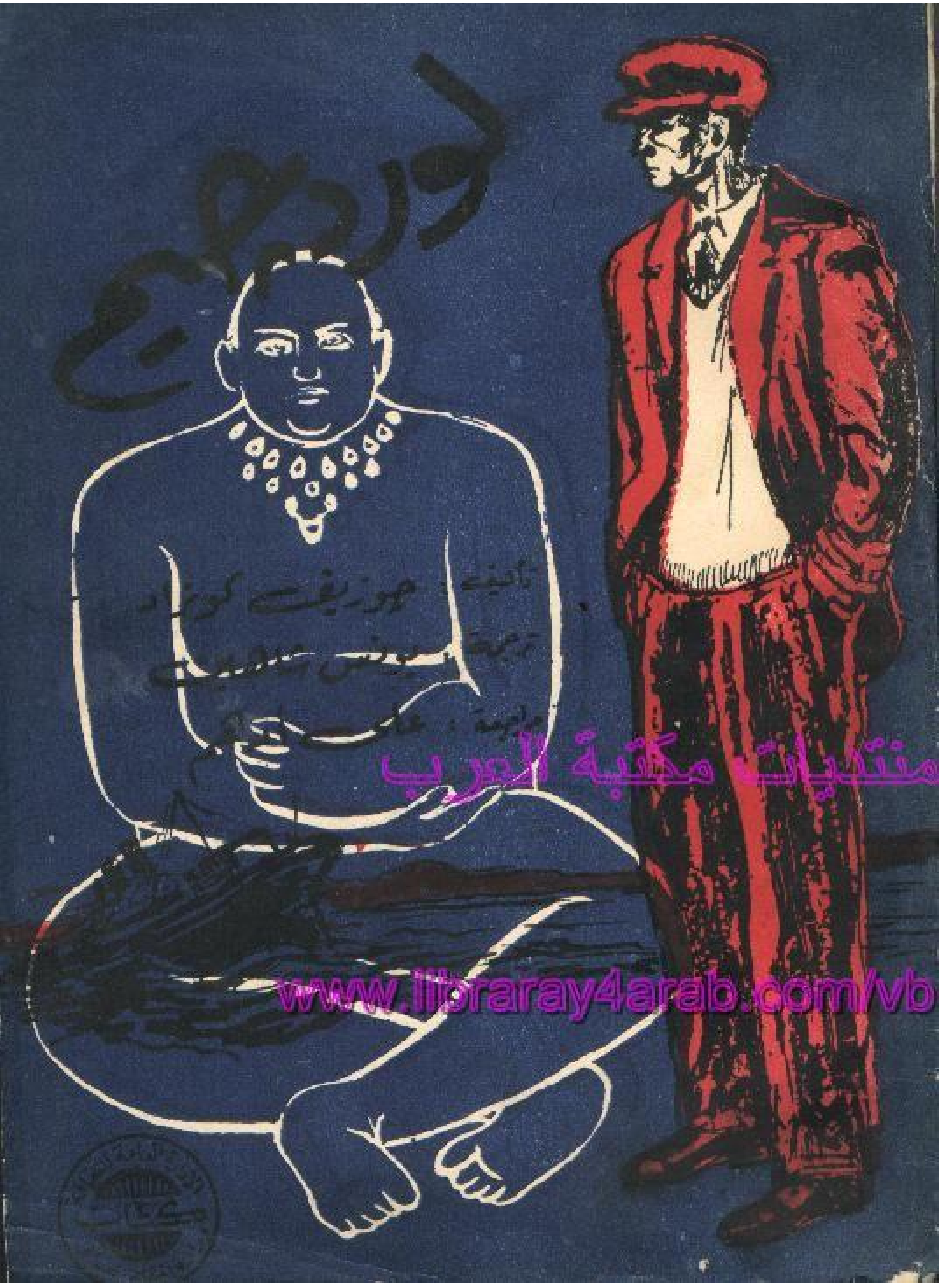

لورد جيم
تأليف : جوزيف كونراد

الألف كتاب

٥٥٣

لورد جيم

إشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب ٥٥٣

لورد جيم

الجزء الثاني

تأليف
جوزيف كونراد

ترجمة
يونس شاهين

راجعه
على أدهم

الناشر
مؤسسة التضامن العربي

١٩٦٦

هذه ترجمة الجزء الثانى من كتاب :

LORD JIM

تأليف

Joseph Gonrad

الفصل السادس عشر

وكان سيأتى الوقت الذى أراه فيه محبوباً ، موثوقاً به ، محاطاً بالإعجاب ، وقد ظهرت حول اسمه قصة للقوة والشجاعة والأعمال الخارقة ، كما لو كان من طينة الأبطال . وإنى أوكد لكم أن هذا صحيح — صحيح كما أجلس الآن إليكم لأحدثكم عنه دون جدوى . ولقد كان عند جيم تلك الملكة التي تجعله يتعرف من لمحة واحدة على وجه أمنياته وصور أحلامه . وهى ملكة لولاها لما عرفت الأرض محباً ولا مغامراً . ولقد حصل على مجد عظيم ، وسعادة مثالية فى الغاية (ولن أقول شيئاً عن البراءة) ، وكان ذلك بالنسبة إليه كالمجد والسعادة اللذين يحصل عليهما رجل آخر فى ضجيج الحضارة وسط شوارع المدينة. فهناءة العيش يستطيع الإنسان أن يحتسيها من كأسها الذهبية فى كل مكان ، فنكهتها وطعمها السائغ هما فى حوزتك أنت فقط . أنت وحدك الذى تستطيع أن تنتشى منهما ماشاء لك الانتشاء . وكان جيم من ذلك الطراز من الرجال الذى يشرب الكأس حتى الثمالة ، كما يمكنكم أن تتوقعوا مما سمعتموه عنه قبل ذلك . ويمكننى أن أصف لكم حالته حين رأيته فأقول إنه إن لم يكن فى حالة نشوة شديدة ، فلقد رأيته وحمرة الدم تورد وجهه والإكسير بين شفتيه .

ولم يحصل على كل ذلك فى حال . فلقد كانت هناك فترة تجربة — كما تعلمون — قضاها فى تعاسة بين متعهدى السفن .

ولقد كان يتعذب فى تلك الفترة . وكنت قلقاً على تلك الأمانة التى فى عنق — كما يمكن أن نسميه . ولست أعلم أننى مطمئن تماماً الآن بعد أن رأيته جباراً بين الأقزام . قد سلطت عليه الأضواء القوية . ولكنه كان رغم ذلك فى توافق تام ، مع بيئته ، مع حياة الغابة ، ومع طريقة الحياة عند الناس . وانى لأعترف لكم أن تلك الصورة قد أثرت فى تأثيراً قوياً . ولكنى لا أملك إلا أن أكون صادقاً مع نفسى وأقول لها إن التأثير لم يكن من ذلك النوع الذى له صفة الدوام . فقد كانت عزلته هى التى تحميه ؟ وكان الوحيد هناك من بنى جنسه الأرق . وكان على اتصال وثيق بالطبيعة . التى تخلص لعشاقها ، دون أن تتقاضاهم على ذلك ثمناً باهظاً . ولكنى لا أستطيع أن أثبت فى خيالى صورته وهو آمن مطمئن فسأظل أذكره دائماً على الصورة التى كنت أراه فيها من خلال باب غرفتى المفتوح وهو متأثر تأثيراً عميقاً — ربما جاوز به الحد — مما لم يكن سوى النتائج المتوقعة لإخفاقه . وإنى لمسرور بالطبع من أن شيئاً من الخير — وحتى من العظمة — قد جاءه نتيجة لجهودى . ولكنى أعتقد فى بعض الأحيان أنه كان من الأفضل لراحة بالى أن كنت لم أقف بينه وبين عرض تشستر الكريم الجهنمى . وإنى لأسائل نفسى ماذا كان سيصنع خياله الفياض من جزيرة وولبولة

الصغيرة . وهى هذا الفتات من الأرض الجافة وسط المياه التى تخلت عنها رحمة الله .ولكننى لا أظن أنه كان من الممكن أن أعرف ذلك لأنه يجب على أن أخبركم بأن تشستر بعد أن ذهب إلى أحد موانى أستراليا ليصلح ما أفسده الدهر من تلك السفينة ذات الصاريين التى عفى عليها الزمان : سار بها إلى المحيط الهادى ومعه اثنان وعشرون من البحارة . وبعد ذلك انقطعت أخباره.وكان الخبر الوحيد الذى كان من الممكن أن يكون له علاقة بمصيره الغامض ، هو أن إعصاراً قد هب فى طريقه على مياه وولبول الضحلة ، بعد حوالى شهر من خروج السفينة إلى المحيط . ولم يظهر بعد ذلك لجوانى البحار هذين من أثر ، ولا خرج صوت واحد من هذا الضياع . النهاية ! والمحيط الهادى هو أكثر المحيطات الحية حادة الطباع احتفاظاً بالسر،ومع أن المحيط المتجمد الملىء بالصقيع يستطيع أيضاً الاحتفاظ بالسر إلا أنه يفعل ذلك على طريقة القبور :

وهناك معني للنهاية الحاسمة المداركة للأشياء فى هــذا الاحتفاظ بالسر ، معنى نقر به جميعاً فى إخلاص قد يزيد أو ينقص ، وإلا فما الذى يجعلنا نتحمل فكرة الموت ؟ النهاية ! النهاية الحاسمة ! الكلمة القوية التى تطرد من بيت الحياة أشباح المصير ، وذلك هو ما أفتقده فى نظرتى إلى نجاح جيم،رغم ما شاهدته عيناى وما أكده هولى بنفسه كل التأكيد . فصحيح أنه مادامت هناك حياة فهناك أمل ، ولكنه

صحيح أن هناك خوفاً أيضاً ؛ وأنا لا أعنى أننى أندم على مافعلت ، أو أدعى أننى لا أنام الليل نتيجة لذلك : ولكنه مع ذلك ، فإن هناك فكرة لاتزال تطل برأسها عليه، وهو أن أثر العار فى نفسه قد جاوز كل حد ، بينما كان الذنب هو الشيء الوحيد الجدير باهتمام فى هذا الموضوع كله . وعلى ذلك فإن جيم — إن جاز لى ذلك التعبير — لم يكن واضحاً بالنسبة لى ؛

وأظنه أيضاً لم يكن واضحاً بالنسبة لنفسه : فقد كانت له حساسيته ومشاعره الرقيقة وتطلعاته الجميلة ، وكان ذلك كله نوعاً من الأثرة التى حولها من صورة إلى صورة وأضفى عليها نوعاً من المثالية . فلقد كان — إن سمحتم لى بهذا التعبير — رجلا رقيقاً ، وسيء الحظ إلى حد كبير ؛

ولو كانت طبيعة حياته التى صنع منها أكثر خشونة لما أمكنه أن يتحمل كل هذا التوتر، ولوجد أن طبيعته يجب أن تتلاقى مع نفسها بتنهيدة أو زفرة أو حتى بقهقهة عالية ، ولو كانت طبيعته أكثر خشونة من هذه الخشونة لظل جاهلا بكل شيء وفى أمان من العلم، ولما كان جديراً بالاهتمام على الإطلاق ؛

ولكنه كان مثيراً للاهتمام أو سيء الحظ بدرجة لا يمكن معها أن يرمى به إلى الكلاب أو حتى إلى تشستر . ولقد شعرت بكل هذا حين

كان وجهى منكباً على ورقة الكتابة وكان هو يقاتل ويلهث محاولا أن يجد أنفاسه بتلك الطريقة التى يحاول بها أن يخفى ما به عنى فى الغرفة . شعرت بذلك وهو يندفع إلى الشرفة كما لو كان يريد أن يقذف بنفسه من عل — ثم لم يفعل . وشعرت بذلك أكثر وأكثر طيلة الوقت الذى مكثه فى الخارج ،فى النور الضعيف من الليل ، كما لو كان يقف على شاطئ بحر مظلم لا أمل فيه .

ثم سمعت على حين غرة قصفاً جعلنى أرفع رأسى . وأخذت الضوضاء تعلو وتنخفض فى تتابع سريع ، ثم إذا بضوء قوى عنيف يبدد ظلام الليل فجأة . وخيل إلى أن ومضات البرق القوية المستمرة قد ظلت فترة غير معقولة من الزمان . وكان قصف الرعد فى تزايد مستمر وأنا أنظر إليه — واضحاً — أسود — وقد ثبت نفسه كالطود على شاطئ بحر من النور . وفى قمة ذلك التلألؤ للنور هجم الظلام ثانية مصحوباً بضوضاء شديدة هى نهاية ما وصل إليه نصف الرعد من شدة قبل أن ينتهى . وإذا بى أرى جيم يختفى تماماً أمام بصرى المخطوف ، كما لو كان غضب السماء قد حوله إلى عناصره الأولى ؟ وتنفست الريح العاصفة ، وكأنها أيد محنقة تمزق الشجيرات ، وتهز رءوس الأشجار تحت الشرفة ، وتقفل الأبواب بعنف ، وتكسر زجاج النوافذ ، على طول واجهة المبنى . فدخل جيم إلى الغرفة وأغلق الباب وراءه ، ورآنى مائلا على المنضدة . وكان شعورى

المفاجئ بالقلق مما سينطق به كبيراً — يشبه الرعب . ولكنه قال ، « أيمكن أن تعطيني سيجـارة ؟ » فدفعت بصندوق السجائر نحوه دون أن أرفع رأسي. فاذا به يهمهم، « إني أريد — أريد شيئاً من التبغ. » فشعرت كأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهلي ، وأنني صرت أشعر بخفة في الروح والجسد تـكاد تجعلني أطير . وقلت له بلطف ، « انتظر لحظة ، » .فمشى بضع خطوات هنا وهناك . وسمعته يقول ، « إن هذا قد انتهى » .

وبعد ذلك سمعنا قصفة واحدة بعيدة للرعد من ناحية البحر ، كأنها طلقة استغاثة. وسمعته ورائي يقول في لهجة من يريد أن يبدأ حديثاً ، « إن الرياح الموسمية قد هبت مبكرة هذا العام . » وشجعني هذا على أن أستدير لمواجهته وذلك هو مافعلته ، في اللحظة التي انتهيت فيها من كتابة العنوان على خطابي الأخـير . وكان يدخن بشراهة وسط الغرفـة ، ورغم أنه سمع صوت الحركة التي قمت بها فقد ظل في مكانه وظهره إلي .

ثم قال وهو يستدير إلي فجأة : « إني أظن أنني قد احتملت الصدمة بطريقة مرضية . إني أشعر بأنني قد بدأت أكافأ على ماتحملت من شدائد ، ولكن ربما كان ذلك لايكفي . وإني لأسائل نفسي الآن عن الخطوة التالية » . وكان وجهه الآن قد خـلا من كل انفعال ، ولكنه كان يبدو مظلماً ومتورماً قليلا كما لو كان قد أوقف تنفسه

ثم ابتسم ابتسامة مغتصبة، واستمر فى حديثه وأأحدق فى فية صمت؛ « شكراً لك على كل حال. غرفتك مريحة جداً لرجل فى هذه الظروف السيئة ». وكان المطر يسقط فى الحديقة فى نقرات سريعة متتالية، وفى صوت كالذى تحدثه العصى الرفيعة حين تمزق بها الهواء فى حركة عنيفة. وكانت هناك ماسورة للمياه (ولا بد أنها كانت مثقوبة) تلعب مقطوعــة من الأصوات هى خليط من الصياح الباكى والشهقات المضحكة والولولات المتحشرجة التى تقطعها تقلصات عنيفة من السكون. وبعد ذلك دمدم يقول، « كانت لى بمثابة ملجأ ». وبعد ذلك توقف . ثم مرقت ومضة من البرق الباهت من خلال إطار النافذة الأسود، واختفت دون أن تحدث أية ضوضاء . وكنت أفكر فى خير طريقة لبدء الحديث معه فى هذه المسألة دون أن أثيره (فلم أكن أريد أن ينحيني ثانية عن طريقه) حين ضحك ضحكة صغيرة وقال، «إننى كالمتشرد الآن . . . وليس لى فى الدنيا أى ـــ أى . . . ومع ذلك». ثم توقف، وكان ينطق بهذه الكلمات فى بطء شديد والدخان يتصاعد من عقب السيجارة بين أصابعه . وكان المطر يسقط فى عنف مضاعف ، ثم قال وهو يهمس فى وضوح محدقاً فى حذائى ، « إننى لا شك سأجد الفرصة التى تمكننى من استرجاع كل شىء فى يوم من الأيام . نعم، لا شك فى ذلك » .

ووجدت نفسى جاهـلا حتى بالشىء الذى يتوق إلى استرجاعه بهذه الشدة ،ويفتقده إلى هذا الحد. لعله كان شيئاً كبيراً إلى حد أنه لا يخطر على البال . أفكان ياترى تلك القصاصة من الورق على حد تعبير تشستر؟.. ثم رفع نظره إلى مستطاعاً. فدمدمت خلال أسنانى بلهجة عدائية لا مسوغ لها قائلا، « ربما ، إذا طال بك العمر ، ولكنى أنصحك ألا تعول كثيراً على هذه الفرصة . »

فأجاب فى لهجة رصينة تنم على الاقتناع الشديد ، « بحق السماء! إنى لا أشعر أن شيئاً يمكن أن يصيبنى بسوء بعد ذلك . وأنه إذا كان هذا الحادث لم يستطع أن يقضى على ، فإنى أعتقد أنه لا خوف على الإطلاق من أن الزمن لن يتسع أمامى للتساق إلى خارج هذه الحفرة التى ترديت فيها ، و ... » ثم نظر إلى أعلى .

وخطر لى حينئذ أنه من أمثال جيم يجند ذلك الجيش الحاشد من التائهين والمشردين ، ممن يذرعون شوارع الدنيا متسكعين إلى جانب البالوعات فيها . وإنه حالما يغادر هذه الغرفة التى هى « بمثابة ملجأ » فسينتظم لتوه فى صفوف هذا الجيش، ويبتدئ رحلته إلى أسفل الحفرة التى لا قرار لها، وأما عن نفسى ، فقد كان هـذا اعتقادى الراسخ الذى لا تستطيع أن تغيره الأوهام الزائفة . ولكنى أنا نفسى أيضاً — الذى كنت أخشى تأثير الكلمة المنطوقة منـذ لحظة — أصبحت الآن فى خوف من استعمالها، كما يخاف الإنسان من أنه

ينقل قدمه على سطح أملس خشية السقوط . وإنى لأعتقد أننا حين تحاول أن نصل إلى أعماق إنسان ماللتعرف على حاجته الدفينة ، فإننا نكتشف حينــذاك فقط ما هى عليه طبيعة هؤلاء الأشخاص الذين نشاركهم رؤية النجوم ودفء الشمس ، من استغلاق على فهمنا واهتزاز وغموض فى صورتها التى تظهر لنا . كما لو كانت الوحدة هى شرط مطلق لامناص منه للوجود، وكما لو كان غلاف اللحم والدم، الذى تراه العين يذوب أمام يدنا الممتدة ، ولا يبقى بعــد ذلك غير الروح التى تتحدى اللمس والرضى والعزاء ، وتروغ من النظر وتبتعد عن متناول اليد الممدودة .

وكان خوفى من فقدانه هو الذى ألزمنى الصمت ، لأنى كنت أشعر شعوراً قوياً لاأدرى له سبباً بأنى إن تركته يفلت منى فى الظلام فلن أستطيع أن أغفر ذلك لنفسى قط .

ثم قال جيم متلعثماً ، « حسن ، شكراً لك مرة أخرى . لقــد كنت كريماً معى إلى درجة جاوزت المعقول . . . وإنى لا أعلم لماذا ، وأخشى أنى لا أشعر لك بعرفان الجميل إلى الدرجــة التى كنت سأشعر بها لو لم ينقض هذا الحادث ، وتمثل هذه الوحشية ، على من الغيب . لأننى فى أعماق . . . وأنت نفسك . . . » .

فقلت له « ذلك ممكن » . فقطب وقال وهو يرقبنى كالصقر ، « على كل حال فالمرء مسئول » .

فقلت « وذلك صحيح أيضاً » .

فقال وهو يشد على قبضته « حسن ، لقد عشت مع هذا الحادث إلى النهاية . وإننى أنوى ألا أسمح لأحد بأن يقذف به فى وجهى بعد ذلك دون أن يندم على فعلته » .

فقلت له : « وماذا ستفعل مع نفسك ؟ » قلت ذلك فى ابتسامة ـ يعلم الله أنها كانت خالية من كل معانى المرح — ولكنه مع ذلك نظر إلى نظرة فيها معنى التهديد وقال ، « ذلك شأنى » . ثم ظهر على وجهه تعبير يدل على العزم الأكيد ولكنه لم يلبث أن اختفى ، وكأنه لم يكن إلا ظلا يمر . وفى اللحظة التالية ، ظهر كما كان من قبل وكأنه طفل عزيز صغير أصابته بعض المتاعب . وقذف بسيجارته بعيداً وقال ، « الوداع » ، بالسرعة المفاجئة لرجل وجد نفسه قد أطال مكثه ، وهو يعلم أن عملا ذا طبيعة عاجلة ينتظره ، ولكنه وقف بعد ذلك حوالى الثانية فى مكانه لا يتحرك . وكان المطر يسقط فى اندفاع السيل العارم الذى لا ينقطع ، وفى صوت كأنه غضب السماء ، الذى لا راد لقضائه ، والذى يأخذ عليك مشاعرك ، ويجعلك تحس برؤى من القناطر المتهاوية ، والأشجار المقتلعة من جذورها ، والجبال المسيرة . ولم يكن هناك رجل يستطيع أن يواجه ذلك الفيض المندفع من السماء بمثل هذه القوة التى خيل إلينا أنها كانت تصطدم وتدور على ذلك السكون المظلم فى الملجأ غير الأمين الذى كان يضمنا ،

وكأنه جزيرة صغـــيرة وسط بحر هائج متلاطم الأمواج وكانت م
الماسورة المثقوبة تتحشرج وتختنق وتبصق وتقذف بالمياه كأنها تمثل
فى سخرية مذهلة ، قصة غريق يصارع صراع حياة أو موت فى بحر
متلاطم الأمواج . فعاتبته قائلا ، « إنها تمطر، وأنا . . . »فبدأ بقوله
فى شىء من العزم ، « مطر أولا مطر . . . » ثم أوقف نفسه عن
الكلام ، وذهب إلى النافذة ، وقال فى همس بعـــد حين وقد أسند
جبهته الى الزجاج ، « إنه طوفان كامل ، والظلام حالك أيضاً »

فقلت له ، « نعم إنها ليلة حالكة الظلام » .

ثم استدار فجـــأة على كعبيه وعبر الغرفة ، وفتح الباب الذى
يصلها بالممر فعلا قبل أن أقفز من فوق مقعدى وأصرخ فيه قائلا
« انتظر إنى أريدك . . . » فرمى إلى بجوابه وإحدى قدميه خارج
الغرفة قائلا ، « إننى لن أستطيع تناول العشاء معك ثانيه فى هذه الليلة »
فصرخت فيه قائلا ، « ليس عندى النية مطلقاً فى دعوتك » . فسحب
قدمه ثانية عند ذلك ، ولكنه وقف فى فتحة الباب تماماً ، وكأنه غير
واثق من صدق كلماتى . وعندها بادرت إلى رجائه فى إلحاح أن
يكف عنه عناده ؛ ويدخل إلى الغرفة ويقفل الباب .

الفصل السابع عشر

وأخيراً ، دخل إلى الغرفة . ولكنى أظن أن المطر كان هو الذى دفعه إلى ذلك . فلقد كان يسقط حينئذ فى عنف شديد ، أخذ يهدأ قليلا قليلا ونحن نتكلم . وكان سلوكه رصيناً وثابتاً . وقد ظهر فى صورة رجل قليل الكلام بطبعه وقد استولت عليه فكرة معينة . وكان حديثى عن الجانب المادى لوضعه الحالى وكان غرضى الوحيد من ذلك الحديث هو أن أنقذه من المهابة والدمار واليأس الذى لا بد أن يطبق سريعاً فى خارج هذه الغرفة على رجل لا صديق له ولا مأوى يلتجىء إليه ، ورجوته أن يقبل معونتى ، واستعملت فى ذلك كل وسائل المنطق والإقناع . وبعد ذلك كنت فى كل مرة أرفع نظرى إلى وجهه الأماس المستغرق الجاد ، الذى يظهر عنفوان الشباب واندفاعه فى قسماته ، أحس بإحساس يضيق به صدرى . وهو أننى لست عوناً له بل عائقاً أمام محاولة غامضة لروحه الجريحة لا أفهم كنهها ولا أستطيع سبر أغوارها .

وأتذكر أننى قلت له فى ضيق « أظن أنك تنوى أن تأكل وتشرب وتنام تحت سقف كما يفعل بقية الناس ؟ ثم إنك تقول إنك لن تقرب ما استحق لك من أجر » . فأتى بإشارة هى أقرب

ما يستطيع ذلك الطراز من الرجال الذين ينتمى إليهم جيم أن يفعلوا للتعبير عن اشمئزازهم : وكان يستحق له مرتب ثلاثة أسابيع وخمسة أيام كضابط أول للباخرة « باتنا » . وقلت له « حسن إن ذلك المبلغ هو من الضآلة بحيث لا يهدم على كل حال . ولكن ماذا تنوى أن تفعل فى الغد ، والى أين تلجأ ، إنه لا بد لك أن تعيش » وكان التعليق الوحيد الذى همس به هو : « ليست هذه المشكلة » فتجاهلت هذا التعليق ومضيت أحاول أن أتغلب على ماافترضت أنه إحساس مبالغ فيه بالكرامة . واختتمت حديثى قائلا ، « إنه على أى وجه قلبت هذه المسألة فستجد أنه لا بد لك من أن تقبل معونتى » . فقال بـكل بساطة وهدوء ؛ « إنك لا تستطيع معونتى » . . . قال ذلك وهو يتعلق باستماتة بفكرة عميقة كنت أستطيع أن أراها تلمع على السطح وكأنها بركة ماء فى الظلام ، وإن كنت قد يئست تماماً من استطاعتى الاقتراب منها إلى مسافة تمكننى من التعرف عليها . فألقيت نظرة فاحصة على جسده المتناسق الأجزاء . وقلت له ؛ « إنني أستطيع على كل حال أن أمد يد المعونة لذلك القدر الذى يقع عليه بصرى منك فقط ، ولست أدعى أننى أستطيع أكثر من ذلك » . فهز رأسه فى شك دون أن ينظر إلى . فغلى الدم فى عروقى . وقلت مؤكداً . « ولكنى أستطيع ذلك . بل إنى أستطيع أكثر من ذلك بل إنى أفعل لك الآن أكثر من ذلك . إننى أضع ثقتي فيك » فقاطعنى قائلا . « النقود » . فصرخت فيه ، وأنا أتصنع الغضب ؛ « إنك — والحق يقال — تستحق أن يقال لك بأن تذهب إلى الشيطان » . فبدت عليه الدهشة وتبسم : ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأشدد

من هجومى ، حتى أصل به إلى الغرض المرجو فقلت : « إنه لا دخل للنقود فى ذلك على الإطلاق . إنني أجد أنك فى غاية السطحية» (وكنت أقول لنفسي فى ذات الوقت : حسناً يجب أن نستمر فى هذا الهجوم : ولربما كان ما قلته هو الحق) . « انظر إلى هذا الخطاب الذى أريد أن تأخذه معك . لقد كتبته إلى رجل لم يسبق لى أن طلبت منه شيئاً من قبل، ولقد كتبت إليه عنك بطريقة لا يمكن أن يكتب بها أحد إلا عن صديق حميم يعرفه تمام المعرفة : ولقد جعلت نفسى مسئولا عنك دون قيد أو شرط . وهذا هو الذى قلت إنني أفعله من أجلك : ولو استطعت أن تفكر قليلا فى معني ذلك .. » .

ودفع جيم برأسه . وكان المطر قد توقف وإن كانت ماسورة المياه لا تزال تسفك الدمع بصوتها الغريب تحت النافذة وكانت الغرفة فى غاية السكون . وقد قبعت الظلال متجمعة فى أركانها ، بعيدة عن لهب الشمعة الساكن المنصب فى صورة خنجر مسلول : وبدا وجه جيم بعد لحظة وكأنه غارق فى بحر من الضوء الهادى وكأنما الفجر كان قد بزغ على الكون ..

وقال جيم فى تنفس عميق . «بحق السماء! إنك لرجل كريم حقاً».

ولو كان قد أخرج لى لسانه سخرية منى بدلا من ذلك . لما شعرت بالمهانة التى شعرت بها وقلت لنفسى .. إنك تستحق ذلك لتقمصك تلك الشخصية المفتعلة . . ولمعت عيناه بضوء غريب وهما

تنظران إلى وجهي مباشرة . ولـكني رأيت ألا سخرية فيهما . وإذا به يقفز فجأة في حركات عنيفة سريعة وكأنه إحدى تلك الدمى الخشبية التي تتحرك بالخيوط . فارتفعت ذراعاه ثم هبطتا في ضوضاء على رجليه ؛ وتحول إلى شخص آخر يختلف عنه تماماً ؛ وقال : « ولم أستطع أن أرى ذلك طوال هذه الفترة ! » ثم عض على شفته وقطب وقال ببطء في أسف ودهشة : « يالى من حمار » ثم صرخ في صوت مكبوت : « يالك من جوهرة » ثم خطف يدى وكأنما رآها للمرة الأولى ثم أسقطها في الحال . ثم أصابته نوبة من اللعثمة فأخذ يقول : « لماذا ! فهذا هو ..ما .. أنت ... أنا ... » ثم رجع بعد ذلك إلى سلوكه القديم الذى يتسم بثقل الحركة والعناد الذى يشبه عناد البغال ؛ وبدأ يقول « إنني سأعتبر نفسي حيواناً إذا كنت الآن . . . » وبعد ذلك خيل إلى أن صوته يخونه . فقلت له : « لا عليك من كل هذا » . ولقد أزعجتني منه هذه الصورة في إبدائه لمشاعره ، والتي كنت أحس من خلالها ؛ أنه يشعر بنشوة غريبة . وكأنني كنت قد شددت الخيط الذى حركه بطريق الصدفة ؛ لأنني كنت لا أزال أجهل أسرار هذه الدمية.

وقال : « إنني يجب أن أخرج الآن ؛ وبحق السماء ! لقد مددت لى يد المعونة . وليس من الممكن لى الآن أن أجلس هادئاً . إنه نفس الشيء . . . نعم هو بعينه . . . »

ثم نظر إلى في إعجاب مشوب بالحيرة . وبالطبع — كان ذلك هو بعينه الشيء الذى يحتاج إليه . وأستطيع أن أراهن عشرة

مقابل واحد أنني أنقذته من الموت جوعاً ؛ بل من ذلك الموت الذى يكون له دائماً صلته الوثيقة بالشراب ؛ وكان ذلك كل ما هناك ؛ ولم يكن لدى وهم واحد بعـــد ذلك عن حقيقة ما فعلت ؛ يضيف شيئاً إلى ما ذكرت . ولكنى حين نظرت إلى جيم ؛ سمحت لنفسى أن أتساءل عن طبيعة الوهم الذى ملك عليه نفسه فى الدقائق الثلاث الأخيرة ؛ والذى كان من الواضح أنه احتضنه فى أعماقه ؛ ولقد أرغمته على قبول الوسيلة التى تمكنه من الحصول على حاجياته الملحة فى الحياة بطريقة شريفة — للحصول على المأكل والمشرب والمأوى كبقية الناس ؛ بينما كانت تزحف روحه الجريحة على الأرض فى حركات الطائر الكسير الجناح ؛ إلى حفرة منعزلة عن الأنظار كى تموت فى هدوء . وكان ذلك هو كل ما أرغمته على قبوله ؛ ومن المحقق أنه شيء صغير جداً ولكن ؛ انظروا ! كيف جعل من ذلك الشيء الصغير ؛ بطريقة استقباله له ، شيئاً كبيراً ظهر على ضوء تلك شمعة كظل هائل الحجم ؛ غير واضـــح المعـالم، وربما كان فيه شيء من الخطورة ؛ وقال وكأنه لا يكاد يحتوى شعوره : «لعلك تغفر لى إن لم أستطع أن أجد الكلام المناسب للتعبير عن شعورى . فإنى لا أجد ما أقوله الآن : لقد أسديت لى معروفاً كبيراً فى الليلة الماضية ؛ وأنت تصغى إلى كما تعلم ؛ وصدقنى إذا قلت لك إني شعرت غير مرة أن سقف رأسي يوشك أن يطير ... » وأخذ يمرق ؛ وذلك هو ما كان يفعله حقا هنا وهناك، أو وهو يضع يديه فى جيوبه ثم يخرجهما ثانية ؛

ثم يرمى بقبعته على رأسه : وما كنت أتوقع قبل ذلك أن يكون له ذلك النشاط الاستعراضي،وذكرنى ذلك بورقة جافة من أوراق الشجر سجينة فى تيار هوائى لاأستطيع الابتعاد عن مجاله ، بينما استولى على شعور بخوف غامض ؛ يحمل من الشك مالا أستطيع وصفه جعلنى لا أستطيع الحركة فى مقعدى . ثم وقف هو جامداً أيضاً كأن كتشافاً جديداً قد غرسه فى مكانه بلا حراك.وقال لى فى رصانة، «لقد أعطيتني الثقة فى نفسى » . فرجوته وكأنه قد جرح شعورى قائلا ؛ « أرجوك أن تكف عن هذا الكلام بحق السماء ! » فقال « حسن ! سأمسك عن الكلام الآن.وإن كنت لاتستطيع أن توقفني عن التفكير على كل حال . . . حسن ! . . . إن الوقت الذى سأرهن لك فيه عن قيمتى آت لا ريب فيه ».وذهب إلى الباب فى خطوات سريعة ثم توقف ورأسه إلى أسفل ؛ ثم رجع إلى ثانية فى خطوات متزنة وقال ، «إننى كنت أفكر دائماً أنه اذا بدأ المرء حياته بصفحة جديدة . . والآن أنت . . . بعض الشيء . . . نعم . . . صفحة جديدة . » وأشرت له بيدى إشارة الوداع ؛ ثم غادر الحجرة دون أن ينظر ثانية إلى الوراء . واختفى صوت وقع أقدامه تدريجياً وراء الباب المغلق، وكان صوت أقدام ثابتة لرجل يمشي فى وضح النهار :

أما أنا ؛ وقد تركت وحيداً مع شمعتى الوحيدة ؛ فمن العجيب أننى وجدت نفسي لا أزال فى الظلام . فلم أعد الآن شاباً كى أستطيع

أن أرقب فى كل لفتة تلك العظمة التى ترافق خطواتنا التي لا قيمة لها فى اتجاهها نحو الخير أو الشر . وابتسمت لنفسي . إنه كان هو — منا نحن الاثنين — الذى فى النور . وشعرت بحزن . صفحة جديدة أقال ذلك ؟ فكأنما لم تكن الـكلمة الأولى من كل مصير من مصائرنا محفورة فى حروف لا تزول ؛ على وجه الصخر .

الفصل الثامن عشر

وكان صديقي الذى كتبت إليه رجلا متشككاً فى جوانب الخير من الناس .وكان كهلا أعزب ، مشهوراً بالغرابة فى طباعه . يملك مضرباً للأرز . وبعد ستة شهور من لقائى الأخير مع جيم كتب إلى هذا الصديق . ويظهر أنه استنتج من توصيتى الحارة على جيم أنني أريد أن أعرف أخباره . وعلى ذلك فقد أسهب قليلا فى ذكر حسناته ، وقد ظهر من خطابه أن هذه الحسنات كانت من النوع الهادئ ذى التأثير العميق . ووصف ذلك فى كلماته حيث قال ، «ولما كنت حتي تلك اللحظة لا أجد فى قلبي متسعاً لأية عاطفة نحو رجل آخر من بنى جنسى سوى استسلامى لمعاناة وجوده . فلقد عشت إلى الآن وحيداً فى بيت يتسع لأكثر من رجل واحد . حتي إذا أخذنا ذلك الجو الذى يخنق الأنفاس فى الاعتبار . ولذا فقد جعلته يعيش معى منذ وقت مضى . وأظننى لم أخطئ فى ذلك الإجراء .» وخيل إلى وأنا أقرأ هذا الخطاب أن صديقى قد أصبح يكن لجيم فى قلبه شيئاً يزيد عن مجرد احتماله لوجوده ، وأن عاطفة قوية تتسم بالإيجابية كانت قد بدأت تعتمل فى قلبه نحوه . ولقد ذكر صديقى بالطبع أسباب ذلك بطريقته الخاصة . فكان أحد تلك الأسباب أن جيم قد احتفظ بنضارته فى ذلك المناخ . وقال صديقى فى خطابه

إنه لو كان فتاة ، لقلت إنه كان يزدهر ... يزدهر فى تواضع كزهرة البنفسج . وليس على الصورة الصارخة التى تتفتح بها الأزهار الاستوائية. وكان قد مضى عليه الآن ستة أسابيع وهو يعيش فى البيت، ومع ذلك فإنه لم يحاول أن يجعله يشعر كأنه أثر من تلك الآثار القديمة التى يعثر عليها فى باطن الأرض . ولم يكن من خصاله تلك الثرثرة التى تزهق الروح كما هى عادة الشبان الذين فى سنه . وكتب صديقى يقول إنه كان هادئ الطبع لا يتحدث كثيراً عن نفسه ولا كان ، ولله الحمد، يتسم بالحنكة والدهاء . ولكنه كان ، على ما يظهر ، على قدر كاف من المهارة يمكنه من استساغة وتقدير ملكة حضور النكتة فى صديقى، وفى الوقت نفسه يسليه ويروح عنه بسذاجته . فقد كتب لى صديقى يصفه قائلا : «إنه لا يزال بنداه . وعلى ذلك فمنذ أن خطرت لى تلك الفكرة النيرة بإعطائه غرفة فى البيت . ومصاحبته فى تناول الطعام . فإنني أشعر بأننى قد عدت أقل ذبولا عن ذى قبل . ومنذ بضعة أيام خطر له أن يعبر الحجرة بلا غرض آخر سوى أن يفتح لى الباب، وشعرت حينئذ كما لم أشعر منذ سنوات عديدة باتصالى بالجنس البشرى . وهو شعور مضحك . أليس كذلك ؟ ولقد خمنت بالطبع أن هناك شيئاً ، شيئاً إذاً لاشك أنك تعرفه تمام المعرفة . ولكنني ولو تأكدت أنه شىء فى غاية الفظاظة ، فإننى أتخيل أننى أستطيع غفرانه له . ومن جانبي، فإننى أعلن لك أنه ليس فى قدرتى أن أتخيله مذنباً فى جريمة تزيد فى فظاعتها عن ارتكاب سرقة لبعض الثمار فى إحدى حدائق الفاكهة . فهل جريمته أفظع من ذلك ؟ لعله كان من

الواجب عليك أن تخبرنى بها . ولكنى أعذرك فلقد مضى زمن طويل على تحولنا إلى قديسين ، وربما جعلك ذلك تنسى ما ارتكبنا من الخطايا فى زماننا . وربما يجىء اليوم الذى لابد من سؤالك فيه عن ذلك . وإنى لأتوقع أن تخبرنى حينئذ بكل شىء . ولست أريد أن أسأله شخصياً عن ذلك قبل أن تكون لدى فكرة ولو صغيرة عن ماهية المسألة . وعلى كل حال فذلك سابق لأوانه الآن . لأنى أريد أن أدعه يفتح الباب لى بضع مرات أخر ....» وهكذا كتب صديقى إلى، ولقد سررت أيما سرور بسلوك جيم المرضى وبلهجة الخطاب ، وبمهارتى ، وقلت لنفسى إنه من الواضح أني كنت أعرف ماذا أفعل . وإنى لاشك أحسن الحكم على الأشخاص ... إلخ . ثم لماذا لا أتوقع ألا تكون لهذه العلاقة نتيجة مدهشة ليست فى الحسبان . وفى ذلك المساء ، وأنا مسترخ على مقعد من مقاعد السطح تحت ظل سقف سفينتى فى المؤخرة (وكان ذلك فى ميناء هونج كونج) وضعت لجيم حجر الأساس نيابة عنه لبناء قصر فى الهواء .

وقمت برحلة بعد ذلك نحو الشمال ، وحين رجعت وجدت خطاباً آخر من صديقى فى انتظارى . وكان غلافه هو أول غلاف مزقته . وكان أول سطر فى الخطاب هو الآتى « لم يختف شىء من ملاعق المائدة ، على قدر ما أعلم » ، ثم قال « والحق أنى لم أهتم بذلك الأمر إلى الحد الذى يدعونى إلى التحرى . فلقد غادر المنزل تاركاً على مائدة الإفطار ورقة صغيرة يعتذر فيها عن تصرفه الذى لا أخاله من

السخف أو الجحود ، أو من كليهما معاً ، فالأمر يستوى عندى . ودعى أؤكد لك — إن كان لا يزال عندك فضل من أمثال ذلك الشاب الغامض — أننى قد اعتزلت العمل نهائياً وإلى الأبد . وسيكون ذلك آخر ما سأتهم به من غرابة الأطوار . ولا تدع خيالك يصور لك أن ذلك الأمر قد أثر فى قليلا أو كثيراً ، ولكن الناس يفتقدونه كثيراً فى ملاعب التنس . ومنعاً للقال والقيل ، ولدفع الشبهات عن نفسي فقد اضطررت إلى اختراع كذبة معقولة فى النادى ... » فرميت بهذا الخطاب جانباً وبدأت أتفقد باقى الخطابات فوق المنضدة حتى عثرت على واحد منها بخط جيم ، وهل تصدقون ؟ إن فرصة حنوث ذلك لم تكن تزيد عن واحد فى المائة ! ولكنها دائماً الفرصة الضئيلة التى لا تحسب حسابها هى التى تحدث لنا ! وتؤثر فى مصيرنا ! فالذى حدث هو أن ذلك المهندس الثانى — ذا الجسم الضئيل — للباخرة بتنا قد حضر إلى هناك فى آخر حالات اليأس وأمكنه الحصول على وظيفة مؤقتة للإشراف على آلات المضرب . فكتب إلى جيم من ميناء بحرى يبعد سبعمائة ميل إلى الجنوب عن تلك البقعة التى كان يستمتع فيها بالعيشة الراضية ليقول ، « إننى لم أستطع احتمال رفع الكلفة التى كان يعاملنى بها ذلك الحيوان . إننى أعمل الآن مع متعهدى السفن أجستروم وبليك ، كرسول لهم إلى السفن إذا كنا سنسمى الأشياء بأسمائها ، ولقد أعطيتهم اسمك كمرجع لما يريدون الحصول عليه من بيانات عنى ، وهم يعرفونك بالطبع ، فإن استطعت أن تكتبه

إليهم كلمة تزكيني فيها فإنهم سيثبتونني في عملي » وشعرت حين قرأت هذا الخطاب وكأنني أسحق تحت أنقاض تلك القلعة التي وضعت فيها حجر الأساس . ولكنني بالطبع كتبت الخطاب الذي طلب مني أن أكتبه . وقبل أن ينتهي العام كان هذا الميناء الذي كتب لي عنه في خط سيري الجديد، وعلى ذلك فقد أتيحت لي فرصة الالتقاء به، وكان لا يزال مع أجستروم وبليك حين التقينا في غرفتهم الخارجية التي كانوا يطلقون عليها « غرفة استقبالنا »، وكان قد حضر لتوه في تلك اللحظة من زيارته لإحدى السفن، وواجهني ووجهه إلى أسفل كمن يستعد للقتال . وبدأت أسأله حالما انتهيت من هز يده « ماذا تستطيع أن تقول دفاعاً عن نفسك ؟ » فأجاب في عناد، «ما كتبت لك فقط ــ ولا شيء أكثر من ذلك ». فسألته، « هل ذكر الرجل شيئاً . عن الحادث ؟ » فرفع نظره إلى في ابتسامة مضطربة وقال، « كلا . كلا ! إنه لم يقل شيئاً . ولكنه جعل هذه المسألة سراً بيننا . وكان يبدو في غموض العين كلما ذهبت إلى المضرب . فكان يرمش إلى بطريقة تتسم بالاحترام، وكأنه يقول « إننا نعلم ما نعلم » ؛ وكانت له طريقة جهنمية تتراوح بين الذلة الشديدة ورفع الكلفة، وارتمى جيم على أحد المقاعد وأخذ يحدق في قدميه وقال، « وقد تصادف ذات يوم أن كنا وحيدين ، فبلغت الصفاقة بذلك الرجل إلى الحد الذي جعله يقول « حسن يا مستر جيمس » . وكانوا يطلقون

على اسم مستر جيمس هناك كما لو كنت الابن . « ها نحن معا الآن مرة أخرى . وهذا المكان هو خير من تلك السفينة ، أليس كذلك ؟ ألم يكن ذلك مزعجاً ؟ » فحدقت فيه ، وإذا به يظهر بمظهر من يستطيع قراءة الأفكار ويقول، « لا تقلق ياسيدى إنى أستطيع أن أتعرف على الجنتلمان بمجرد أن أراه ، وأستطيع أيضاً أن أعلم مايشعر به . وإنى لآمل على كل حال أن تبقينى فى هذا العمل . فلقد قاسيت أنا الآخر كثيراً من تلك الضجة التى قامت بسبب تلك الباخرة العفنة « بتنا » . ويا للسماء ! لقد كان شيئاً فظيعاً . ولست أدرى ماذا كنت سأقول أو أفعل إن لم أكن قد سمعت صوت مستر دنفر فى الممر وهو ينادى على . وكان وقت الطعام قد حل فمشينا معاً عبر الفناء واخترقنا الحديقة إلى المنزل الخشبي . وأخذ يمازحنى بطريقته العطوفة ... وأعتقد أنه كان يحبنى ... »

وتوقف جيم عن الكلام لحظة ثم قال . « إنى أعلم أنه كان يميل إلى ، وهذا هو ماجعل المسألة صعبة على فلقد كان رجلا عظيماً . وفى هذا الصباح وضع يده تحت ذراعى وكان هو أيضاً قد رفع الكلفة بيننا . ثم انفجر فى ضحكة صغيرة .

وأسقط ذقنه على صدره وقال فى صوت مهتز ، « وحين تذكرت كيف كان يتحدث هذا الحيوان الحقير إلى ، لم أستطع احتمال تلك

الفكرة عن نفسي : : ولعلك تعلم . . » وأومأت برأسي . . فصاح جيم ، « إنه كان لى بمثابة أب » ثم خفض صوته وقال « وكان على أن أخبرك ... فلم أكن أستطيع أن أترك الحال على هذا الوضع » فهمست بعد أن انتظرت فترة قائلا ، « ثم ماذا ؟ » فقال فى بطء «لقد فضلت أن أغادر المكان لأننى كنت أريد أن أدفن هذا الحادث» :

وكنا نستطيع أن نسمع بليك فى الحانوت وهو ينهر أجستروم فى صوت متوتر ملىء بالشتائم ، وكان الاثنان قد اشتركا فى هذا العمل منذ عدة سنوات . وفى كل يوم من اللحظة التى تفتح فيها الأبواب إلى الدقيقة التى تسبق غلقها كان بليك، وهو رجل ضئيل الجسم فى شعر أسود ناعم وعينين ناعستين كأنهما من زجاج، يسمع وهو يتشاجر دون توقف مع زميله فى كلمات غاضبة جارحة حزينة . وكان صوت ذلك التوبيخ المستمر جزءاً لا يتجزأ من المكان كغيره من الأشياء الثابتة التى تحدد معالمه . وحتى الغرباء كانوا يتعودون بسرعة على تجاهل هذا الأمر تماماً إلا فيما ندر حين يدمدمون بكلمة « مضايقــة » . أو ينهضون فجأة ليقفلوا باب « حجرة الاستقبال » وكان أجستروم نفسه ، وهـــو إسكندنافى نحيل ، له لحية شقراء كثة ، وسلوك يوحى بأنه مشغول دائماً ، يروح ويجىء فى الحانوت وهو يأتى بأوامره للموظفين ويتفحص الطرود ، ويحضر قوائم الحساب ، أو يكتب خطابات وهو واقف أمام مكتب عال هناك . وبالإجمال يتصرف فى تلك الحركة الدائبة وكأنه أصم كالحجر . وبين حين وآخر كان يحض زميله على السكوت

قائلا له « إش إش ». ولكنه كان يقول ذلك بحكم العادة دون أن يحدث أو ينتظر حدوث أية نتيجة لتلك الملاحظـــة . وقال جيم ، « إنهم يعاملونني معاملة حسنة جداً في هذا المكان . وإن كان بليك فيه شيء من الاعوجاج ، فإن اجستروم على ما يرام . » ثم وقف بسرعة ومشي في خطوات منتظمة إلى منظار مكبر على حامـــل ذي ثلاثة قوائم أمام النافذة وموجه إلى المياه ، ووضع عينه عليه . وقال في تؤدة ، « إنني أرى تلك السفينة التي اضطرت أن تقف خارج الميناء طيلة الصباح وقد أتاح لها الريح الآن أن تدخل إليها ويجب على الآن أن أذهب لزيارتها . » فهززت يده في سكون ، واستـــدار ليخرج ولكني صرخت وراءه قائلا « جيم » فاستدار ويده على المقبض فقلت له ، « لقد قذفت بثروة كبيرة بعيداً عنك حين غادرت ذلك المكان . » فقطع المسافة ثانية من الباب إلى حيث كنت وقال « إنه كان رجلا عظيماً بكل معنى الكلمة . فكيف كنت أستطيع ؟ نعم ، كيف كنت أستطيع ؟ » واهتزت شفتاه بشدة وهو يقول ، « لو كان ذلك قد حـــدث هنا لما اهتممت بالأمر » فقلت له « إنك . . إنك » وكنت أبحث عن الكلمة المناسبة ولكنني قبل أن أعلم أنني لا أستطيع العثور عليها كان قد غادر المكان ، وسمعت صوت أجستروم خارج الغرفة في نبراته العميقة الهادئة التي تدخل على النفس السرور وهو يقول ، « هذه هي الباخرة « ساره و جرينجر » ياجيمى ، فلعلك تستطيع أن تكون أول من يزورها » . وسمعت صوت بليك وهو

يتدخل فى الحديث ، ويصرخ كأنه إحدى الببغاوات الغاضبة قائلا «أخبر الكابتن أن له بعض الخطابات عندنا ، فلا شك أن ذلك سيأتى به إلى هنا ، أتسمعنى يامستر ... ما اسمك ؟ » وسمعت جيم وهو يجيب أجستروم بلهجة كلهجة الأولاد الصغار وهو يقول . « حسن . سأجعل من ذلك سباقاً » ويظهر أن الجزء الذى كان يتصل بالقارب الشراعى من تلك الحرفة المؤسفة كان بمثابة مهرب ومنطلق بالنسبة إلى جيم .

ولم أره ثانية أثناء تلك الرحلة ، ولكن فى رحلتى الثانية (وكان ذلك بعد ستة شهور) ذهبت إلى محل التجارة ، وكان صوت بليك وهو ينهر زميله يصل الى سمعى وأنا لا أزال على بعد عشر ياردات منه ، وحين دخلت إلى المحل ، حدجنى بليك بنظرة تدل على ما كان يشعر به من شدة التعاسة . أما أجستروم فقد تقدم نحوى ماداً إلى يده التى برزت منها العظام وعلى وجهه ابتسامة مشرقة ، وقال لى ، « إنى سعيد برؤيتك أيها القبطان .. إش . إش .. لقد كنت أفكر فى أن موعد حضورك إلى هنا قد أزف .. ماذا تقول يا سيدى ... إش . إش .. آه ! عن جيم ! لقد تركنا . تعال إلى حجرة الاستقبال » ... وبعد قفل الباب ، كنا لانزال نسمع صوت بليك المتوتر وقد أصبح ضعيفاً وكأنه صراخ يائس ينهر الناس فى واد غير مأهول . وقال أجستروم « لقد سبب لنا كثيراً من المتاعب بتركه إيانا . وأعتقد أنه كافأنا

مكافأة سيئة على حسن معاملتنا له . ولا بد لى أن أقول ... » فسألته «أتعلم أين ذهب ؟ » فقال « لا. ولا جدوى من ذلك السؤال أيضاً » قال ذلك وهو يقف أمامى مرحباً — فى لحيته الكثة . ويداه معلقتان فى استرخاء إلى جانبيه . وسلسلة ساعته الفضية الرفيعة معلقة فى أسفل صديريته المصنوعة من القماش الأزرق . ثم استأنف حديثه قائلا : « إن رجلا كهذا لايذهب إلى مكان معين بذاته » وكان اهتمامى ودهشتي الشديدة من هذه الأخبار قد منعانى من سؤاله عن تفسير مايعنى . فاستمر فى حديثه قائلا « لقد تركنا فى نفس اليوم الذى وصلت فيه باخرة للحجاج من البحر الأحمر . وكانت هذه الباخرة قد فقدت فى طريقها سلاحين من أسلحة محركها . وكان ذلك منذ ثلاثة أسابيع » . فسألته وأنا أتوقع سماع أسوأ الأخبار ، « هل حدث أن جاء ذكر الباخرة بيننا حينذاك؟ » فظهرت على وجهه علائم الدهشة الشديدة ، ونظر إلى كما لو كنت ساحراً . وقال «نعم . ولكن كيف عرفت ذلك ؟ لقد تصادف أن كان هنا بضعة أشخاص يتحدثون عن ذلك فى هذه الغرفة ... واحد أو اثنان من قباطنة السفن ، ومدير ورشة فانلو الهندسية فى الميناء واثنان أو ثلاثة آخرون وأنا . وكان جيم هنا أيضاً يتناول شطيرة وقدحاً من البيرة . فقد اعتدنا فى زحمة العمل ياعزيزى القبطان ألا نجد الوقت الكافى لتناول وجباتنا المعتادة . فكان يقف هنا بجانب هذه المائدة وهو يأكل شطائره ، وكان بقيتنا ملتفين حول هذا المنظار نرقب دخول السفينة ، وحين تشعب الحديث

بدأ مدير ورشة فانلو يتحدث عن قبطان الباخرة بيتنا . فلقد تصادف أن قام ببعض الإصلاحات له فى مرة من المرات . ثم تطرق به الحديث فأخبرنا بما كانت عليه حالة السفينة من القدم . وعدم الصلاحية . وكيف كانت رغم ذلك تدر ربحاً عظيماً . ثم ذكر شيئاً عن رحلاتها الأخيرة . فاشتركنا حينذاك جميعاً فى الحديث . فقال بعضنا شيئاً . وقال بعضنا الآخر شيئاً آخر . وكان حديثاً عادياً من النوع الذى يمكن أن يجرى على لسانك أو لسان أى شخص آخر . ثم كان هناك بعض الضحك . وكان القبطان أوبراين الذى يقود الباخرة « ساره وجرينجر » وهو رجل عجوز ضخم كثير الضجيج يصطحب عصاه دائماً ، يجلس على هذا المقعد المريح هنا وهو يصغى إلينا . وإذا به يضرب الأرض بعصاه فجأة ويزأر قائلا « هؤلاء الخنازير ! ... فجعلتنا هذه الحركة وذلك الصوت المفاجىء ، الذى أخذنا على حين غرة نقفز من فوق الأرض ثم سأله مدير ورشة « فانلو » وهو يرمش إلينا . « ماخطبك ياعزيزى القبطان أوبراين؟ » فصرخ القبطان أوبراين فينا وهو يقول « ما خطبى ! ماخطبى ! علام تضحكون ؟ إنها مسألة لا يجوز الضحك منها . إنها عار فى جبين الإنسانية جمعاء ، نعم إنها لكذلك . فإننى سأحتقر نفسى إن تصادف وجودى فى غرفة واحدة مع رجل من هؤلاء . نعم ياسيدى ! » وخيل إلى أنه ينظر إلى وهو يقــول ذلك . فرأيت ألا مفر لى من مجاملته ببضع كلمات فقلت، «نعم أيها القبطان أوبراين إنهم فعــلا خنازير ؟ وأنا

أيضاً لاأريد أن أجلس معهم فى غرفة واحدة . وعلى ذلك فإنك آمن "هنا ياسيدى . ألا تريد أن تتناول قدحاً من الشراب المنعش؟» فقال القبطان . وعيناه تلمعان : « اللعنة على شرابك يا أجستروم . فحين أحتاج إلى شراب فسأصرخ فى طلبه . إننى خارج من هنا . إنى أشعر برائحة كريهة فى هذه الغرفة » وحين حدث ذلك انفجر الآخرون فى الضحك . وخرجوا جميعاً يريدون اللحاق بالرجل العجوز : وبعد ذلك ياسيدى . وضع جيم اللعين شطيرته التى كانت فى يده على المائدة . ثم جاء إلى حيث كنت . وكان القدح أمامه مليئاً بالبيرة لم تمسه بعد . وقال لى بكل بساطة : «إننى ذاهب » فقلت له وقد ظننت أنه يعنى الذهاب إلى عمله « إنها لم تبلغ الواحدة والنصف بعد . وأظن أنه لديك الوقت الكافى لكى تدخن سيجارة قبل أن تذهب» ولكن حين علمت مايعنى؛ سقطت ذراعاى هكذا فأنت تعلم ياسيدى أننا لانستطيع العثور على رجل مثله فى كل يوم . فلقد كان كالشيطان فى مهارته فى قيادة الشراع . وكان دائماً على استعداد للخروج إلى البحر مسافة عدة أميال كى يقابل سفينة غير عابئ بحالة الجو ، إن كانت سيئة أو حسنة . وما أكثر قباطنة السفن الذين حضروا إلى هنا ، وقد أخذهم الإعجاب به كل مأخذ :

وكان أول ما ينطق به أحدهم هو ؛ إن هذا الرجل الذى يعمل عندكم كاتباً للماء ياأجستروم لابد أن يكون رجلا مجنوناً فهو من

النوع الذى لايبالى مطاقاً بالأخطار . فحين كنت أتحسس طريقى وأنا أدخل الميناء عندمطلع الفجر طاوياً شراعى ؛ إذا بى أجد قارباً يظهر لى فجأة من الضباب أمام سفينتى، وهو نصف مغمور بالمـــاء ورذاذ الأمواج يصعد حتى يبلغ قمـــة شراعه،وفيه زنجيان قابعان فى القاع وقد ظهرت على وجهيهما علائم الفزع . وعند دفته شيطان يصيح بأعلى صوته، «هاى!هاى ! أيها القبطان !رجل بايك وأجستروم هو أول من يتحدث إليك فى هذا الميناء . »وإذا به يرفس الزنجيين ويطوى شراعه؛ويتقدمنى وهناك عاصفة توشك أن تهب وهو يصرخ ويصيح على طول الوقت بأن أتبعه وأنه سيرشدنى إلى الميناء . والحق أنه كان أقرب إلى الشيطان منه إلى الرجل . فلم أر فى حياتى رجلا يسير قاربه بمثل هذه المهارة . أكان مخموراً ؟ ومن العجيب أنه كان شاباً هادئاً خافت الصوت ، وأنه حين صعد إلى السطح كان خداه مصطبغين بحمرة الخجل كما لو كان فتاة . . . وأستطيع أن أخبرك أيها القبطان مارلو أننا استطعنا أن نضيع جميع الفرص من جميع متعهدى السفن الآخرين من اقتناص سفينة غريبة حين كان جيم معنا . فلم يكن أمامهم إلاأن يكتفوا بزبائنهم القدامى...و...)

وكان يبدو على أجستروم الانفعال الشديد وهو يقص على قصته ثم قال :

«ومن العجيب ياسيدى أنه كان يظهر عليه أنه لا يبالى بالخروج إلى مسافة مائة ميل فى البحر على أى قارب قديم كى يقتنص سفينة لشركتنا . وفى اعتقادى أنه لو كانت هذه الشركة ملكه وكان لا يزال أمامه أن يبنيها ويدعمها لما أمكنه أن يفعل أكثر مما كان يفعل. والآن .. ودون مقدمات . . . كان يريد أن يتركنا فجأة . فقلت لنفسى لا بد أنه يريد علاوة على مرتبه . وقلت له « حسن ياجيمى فلا داعى لإحداثك لهذه الضجة . فكل ماعليك الآن هو أن تذكر الرقم الذى تريده . . . أى رقم فى حيز المعقول » فنظر إلى وكأنه يريد أن يبتلع شيئاً وقف فى حلقه وقال ، « إننى لا أستطيع أن أبقى معكم ». فسألته « مامعنى هذا المزاح الغريب ؟ »

ولكنه هز رأسه ، وكنت أستطيع أن أرى فى عينيه أنه قد صار فى حكم من غادرنا فعلا . فاستدرت إليه وأخذت ألهب جلده بلاذع الكلم حتى استحال لونه إلى الزرقة . وسألته ، « من أى شيء تهرب ؟ من الذى يطاردك ؟ ما الذى يخيفك ؟ إنه ليس لديك حتى ولا عقل الفأر ، فالفيران لا تترك سفينة صالحة . ثم فى أية ناحية تطمع أن تجد لك فيها مكاناً خيراً من هذا؟ . . . إنك كذا وكذا.. » وأستطيع أن أخبرك أنني جعلته يبدو أمامى وكأنما قد انتابه المرض وقلت له « إن هذه السفينة التى تعمل فيها لن تغرق » وإذا به يقفز قفزة كبيرة ويومئ إلى رأسه كأحد اللوردات وهو يقول « الوداع »

إنك رجل لا بأس به يا أجستروم . إن كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنك ستزهد من رغبتك فى الاحتفاظ بى إن علمت الأسباب التى تدعونى لتركـكم ». فقلت له . « إن هذه أكبر كذبة كذبتها فى حياتك، فإنى على علم بما أريد » . وكان قد نجح فى إثارتى إلى الحد الذى جعلني أضحك . فقلت له : « ألا تستطيع أن تطيل إقامتك هنا بضع دقائق أخرى حتى تشرب هذا القدح من البيرة . أيها الفتى المضحك؟ » ولـكنى لا أعلم ما الذى أصابه عندئذ حتى جعله عاجزاً عن العثور على الباب، فلقد كان ذلك شيئاً مضحكاً ياعزيزى القبطان . فقلت له وأنا أشرب ذلك القدح من البيرة بنفسي ، « إذا كنت فى مثل هذه العجلة من أمرك فدعنى أشرب قدحك هذا فى صحتك وأتمنى لك الحظ السعيد . ولـكن يجب عليك أن تتذكر كلماتى هذه ، إنك إن كنت ستستمر فى هذه اللعبة فستجد قريباً جداً أن الأرض ستضيق أمامك على سعتها . وهذا هو كل ما أريد أن أقوله لك » . فنظر إلى نظرة سوداء وخرج مندفعاً ووجهه صورة يفزع من رؤيتها الأطفال .

وتنهد أجستروم فى مرارة ومشط جانباً من جوانب لحيته الحمراء بأصابعه التى برزت عظامها وقال، « ولم أستطع منذ ذلك الوقت أن أحصل على رجل أستطيع الاعتماد عليه، إننا لا نجد فى هذا العمل غير المتاعب التى لا تنتهى . ولـكن أين التقيت بجيم؟ إن كان هذا السؤال لا يضايقك » .

فقلت له وأنا أشعر بأني مدين له ببعض التفسير الذي يلقي بعضاً من الضوء على سلوك جيم ، « لقد كان الضابط الأول للباخـــرة (بتنا) في رحلتها الأخيرة » . وظل أجستروم صامتاً بعض الوقت ، ثم انفجر قائلا « ومن كان سيهمه ذلك بحق الشيطان ؟ » فقلت له « لعله لا يهم أحداً ولكن . . » وقبل أن أكمل كلامي صاح قائلا : « وماذا كان يظن في نفسه بحق الشيطان حتى يتصرف هذا التصرف اللعين ؟ » ثم إذا بأحد جانبي لحيته يدخل إلى فمه وهو يقف مشدوهاً . وأخيراً صاح قائلا « لقد أخبرته أن الدنيا لن تتسع لقفزاته هذه » .

الفصل التاسع عشر

ولقد قصصت عليكم هذين الحادثين فى شىء من الإطالة لأبين لكم طريقة تصرفاته مع نفسه تحت ظروف حياته الجديدة ، ولقد كانت هناك حوادث أخرى مشابهة تزيد فى عددها على أصابع اليدين .

وكانت تلك الحوادث جميعاً تتشابه فى تلك النية الحمقاء ، التي تتميز بمسحة من المبادىء الأخلاقية تعمق عدم جدواها وتجعلها تمس شغاف القلوب . ولقد يكون عملا من أعمال البطولة أن تتخلى عما يعطيك قوتك اليومى كى تحرر يديك لقتال شبح من الأشباح . وهى ظاهرة معروفة سبق أن خاض تجربتها كثير من الرجال ، (وإن كنا نحن الذين عشنا ، نعلم تمام العلم أن المنبوذين هم الذين يتميزون بأجسادهم الجائعة وليس بأرواحهم المعذبة) . وكان غيرهم ، ممن يأكلون ويصرون على تناول وجباتهم كل يوم بانتظام ، هم الذين يصفقون تقديراً وإعجاباً بهذه الحماقة . وقد كان جيم حقاً سيء الحظ ، لأن عدم مبالاته الشديدة بالأخطار لم تستطع أن تبعد عنه ذلك الظل القاتم الذى كان يجثم فوق رأسه . فكانت شجاعته دائماً أبداً موضع الشك : فمن المستحيل عليك أن تخفى شبح الحقيقة . وكل ما تستطيعه هو إما أن تواجهه و إما أن تهرب منه . ولقد التقيت فى زمانى برجل أو

اثنين كانا يستطيعان أن يرمشا بأعينهما لتلك الظلال التى اعتادا عليها : ولكن من الواضح أن جيم لم يكن من ذلك النوع الذى يرمش، وإن كان الشىء الذى لم أستطع قط أن أقطع فيه برأى هو إن كانت طريقة سلوكه معناها الهرب من شبحه، أو مواجهته لهذا الشبح .

وبعد أن أجهدت عقلى فى التفكير فى هـذه المسألة ، لم أصل إلا لهذه النتيجة ، وهى أن الخط الفاصل بين هذا وذاك ، كما هو الحال دائما فى تصرفاته المعتمـدة هو من الدقة بحيث تتعذر رؤيته تماماً . فلربما كان ذلك هرباً ، ولربما كان نوعاً من المواجهة والقتال .

ولكن عامة الناس كانوا ينظرون إليه كحجر متدحرج ، وكان هذا هو أكثر ما يثير الضحك فى هذه المسألة . فبعد فترة من الزمان أصبح معروفاً تمام المعرفة ، بل نستطيع أن نقول إنه أصبح ذا شهرة من نوع مشكوك فيه فى الدائرة التى كان يتنقل فيها من مكان إلى مكان (وكان نصف قطر هـذه الدائرة يبلغ حوالى ثلاثة آلاف ميل) بنفس الطريقة التى يصبح فيها رجل غريب الأطوار معروفاً فى طول وعرض البلاد : فحين كان فى بانجكوك مثلا ، حيث كان يعمل مع إخوان يوكر الذين كانوا يحترفون تأجير السفن وتجارة الأخشاب ، كان مما يدعو إلى الرثاء أن تراه يروح ويغدو فى ضـوء الشمس ، وهو يحتضن سره الذى كان معروفاً حتى لكتل الأخشـاب التى تنحدر فى مجرى النهر : وكان هناك رجل يدعى شومبرج ؛ يدير الفندق الذى كان يسكن فيه جيم ، وكان رجلا كث الشعر من إقليم

الألزاس ، منتصب القامة ، له مظهر الرجال الأقوياء ؛ وكان معروفاً بحبه الذى لا يستطيع كبته للثرثرة والخوض فى أعراض الناس والفضائح المحلية ؛ فكان ذلك الرجل يجلس ورفقاه على المائدة ليقدم لكل من يريد من ضيوفه صورة كاملة الزينة لحادث جيم مضافاً إليها التوابل الحريفة ، مع أقداح الشراب التى يدفع فيها الضيوف ثمناً أعلى . وكان يختم حديثه بالكلمات الكريمة الآتية ، «ومع ذلك فهو ألطف الرجال معشراً وأدمثهم أخلاقاً ، رجل قل أن ترى مثيله بين الرجال» . ويجب على أن أقول ، إنه لا بد أن أولئك الرجال من عامة الناس الذين اعتادوا ارتياد فندق شومبرج ؛ كانوا على جانب كبير من الطيبة حتى إن جيم استطاع البقاء فى بانجكوك طيلة ستة أشهر . ولقد لاحظت أن الناس هناك من الغرباء الذين لا يمتون إليه بصلة ، كانوا ينجذبون إليه كما لو كان طفلا جميلا ؛ مع أنه كان يجفل من الاختلاط ، إلا أن مظهره وشعره وعينه وابتسامته كانت دائماً تكسب له كثيراً من الأصدقاء أينما ذهب ؛ ثم إنه لم يكن بالطبع رجلا أبله فلقد سمعت سيجوند يوكر (وكان سويسرياً) ـ وهو رجل هادىء الطبع وكان يعانى كثيراً من عسر الهضم ومن عرج فظيع كان يجعل رأسه ترسم ربع دائرة مع كل خطوة يخطوها ـ يعلن فى تقدير شديد أن جيم كان على صغر سنه ذا كفاية واسعة ، كما لو كانت تلك الصفة يمكن أن تقاس بعدد الأقدام المكعبة ؛ فقلت له بشىء من القلق ، «لماذا لا ترسله إلى داخل البلاد ؟ (وكان إخوان يوكر لهم كثير من حقوق الامتياز والغابات

الخشبية فى الداخل) فإن كان واسع الكفاية كما تقول فسوف يستطيع السيطرة على العمل هناك سريعاً . إلى جانب لياقته الجسمانية، وحالته الصحية الممتازة » . فتنهد يوكر المسكين كأنه يحسده على ذلك واسترق نظرة على معدته التى أنهكها المرض وقال، « آخ ! ! إنه لشىء عظيم فى هذه البلاد ألا تعانى من عسر الهضم » . ثم تركته وهو ينقر بأصابعه على المكتب ويقول لنفسه « إنها لفكرة . إنها لفكرة » .

ولكن لسوء الحظ حدث فى الفندق فى تلك الليلة بالذات حادث مؤسف .

ولست أدرى إن كنت ألوم جيم كثيراً ، ولكن مالا شك فيه أن ذلك الحادث كان يدعو إلى الأسف الشديد : وكان حادثاً من ذلك النوع من المشاجرات التى تنشب فى غرف الشراب . وكان بجانبه الآخر رجل دنماركى أحول العينين من النوع الذى يصعب تقييمه، وكانت بطاقة زيارته تقول تحت اسمه المشتبه فيه . . . ملازم أول بالبحرية الملكية لسيام : وكان الرجل بالطبع ضعيفاً إلى حد اليأس فى لعبة البلياردو . ولكن أظن أنه كان لا يحب أن يخسر فيها . وكان قد احتسى من الخمر مايكفى - بعد أن فرغ من مباراته السادسة - لأن يجعله يسىء أدبه ، وأن يذكر عن جيم شيئاً يوحى بالإهانة أو الاحتقار، وإن كان معظم الناس الذين كانوا هناك لم يسمعوا ما قال ؛ وكان الآخرون الذين سمعوا قد فقدوا ذاكرتهم تماماً بسبب ماانتابهم من الخوف من الأحداث المفزعة التى تلت ذلك مباشرة : ولقد كانت

من حسن حظ ذلك الدنماركى أنه كان يستطيع أن يعوم . لأن غرفة البليارد كانت تطل على شرفة يجرى تحتها نهر مينام ؛ واسعاً - أسود اللون . وكان يسير فى النهر قارب ملىء بالصينيين الذين كانوا فى أغلب الظن يزمعون القيام بسرقة من سرقاتهم المعتادة . فأخرج هؤلاء الصينيون ضابط صاحب الجلالة ملك سيام من النهر وكأنه سمكة من الأسماك . وحضر جيم إلى سفينتى حوالى منتصف الليل بلا قبعة وقال لى ؛ وهو لا يزال يلهث من جراء ذلك الصراع ؛ إذا أطلقنا عليه هـذا الاسم من باب التجوز ؛ «إن كل من فى الغرفة كان يبدو عليهم أنهم يعلمون كل شىء . » وكان آسفاً على ما حدث لأن مبادئه بوجه عام كانت لا تقر هذا السلوك . ولـكنه أخبرنى « أنه لم يكن لديه اختيار » فى هذه الحالة . وكان الذى يضايقه حتماً هو أن طبيعة الحادث الذى كان يؤرقه ويثقل كاهله ، كانت معروفة للجميع كما لو كان يحمل ذلك الحادث طيلة ذلك الوقت على كتفيه ؛ وهو يروح ويغدو أمام الناس . وبالطبع لم يـكن يستطيع أن يمكث بعد ذلك فى هـذا المـكان . فلقد أجمع الناس على لومه على ذلك العنف الوحشى الذى ما كان يليق برجل فى وضعه الدقيق . وقال البعض إنه كان مخموراً بصـورة تبعث على الاشمئزاز عند ما فعل ذلك ؛ وقال آخرون إنه كانت تنقصه سـلامة الذوق فى ذلك التصرف ؛ وحتى شومبرج كان فى غاية الضيق . وقال لى وهو يناقش الحادث إنه شاب على جانب كـبير من دماثة الأخلاق ولطف المعشر

ولكن الملازم هو الآخر رجل من الطراز الأول وهو يتعشى على مائدتى فى كل ليلة كما تعلم : وهناك عصا من عصى البلياردو قد كسرت : وأنا لا أستطيع أن أسمح بذلك . وكان أول ما فعلته فى الصباح ، هو أننى ذهبت لأقدم اعتذارى للملازم . وأظن أننى قد أنهيت هذه المسألة فيما بينى وبينه : ولكن تصور ياعزيزى القبطان ماذا سيحدث إذا بدأ الجميع فى التصرف بهذه الطريقة ؟ ألا تدرى أن ذلك الرجل كان يمكن أن يغرق ؟ ثم إننى فى هذا المكان لا أستطيع أن أجرى إلى الشارع المجاور لأشترى عصا جديدة للبلياردو . فأنا لا بد لى أن أكتب إلى أوروبا لشراء هذه العصا . كلا ، كلا ؟ إنه لا يمكن أن يتحمل المرء مثل هذا الطبع الحاد . . . إن ذكر ذلك الموضوع قد جرحه جرحاً شديداً » .

وكان هذا أسوأ ما حدث له فى أثناء هربه . ولم يكن هناك أحد أكثر منى أسفاً على ذلك ، لأنه كما قال عنه رجل حين سمع اسمه يذكر « نعم ، إنى أعلم أنه كان يتسكع كثيراً فى هذه الأنحاء . إلا أنه كان قد اجتنب بطريقة أو بأخرى أن يتحول إلى كومة من العظام أو يفتك به فى تلك العملية . ولكن هذا الحادث الأخير جعلنى فى حالة شديدة من القلق ، لأنه إن كانت حساسيته المرهفة ستجره إلى مثل تلك المشاجرات التى تنشب عادة بين رواد الحانات ، فسيفقد اسمه كرجل لا خطر منه ، وإن كان من الذين تضيق القلوب بتصرفاتهم ، ويصبح معروفاً بوصفه رجلا من عامة المتسكعين .

وعلى الرغم من كل الثقة التي كانت لي فيه، لم يسعني إلا أن أفكر أنه في هذه الحالة، لن يكون بين الاسم الذي اكتسبه وبين الحقيقة المريرة للشيء نفسه، غير خطوة صغيرة. وأظنكم استطعتم أن تفهموا أنه لم يكن في استطاعتي الآن غسل يدي من جيم وتركه وشأنه: فأخذته معي في سفينتي من بانكوك، وسرنا بها في رحلة طويلة. وكان مما يرثى له أن أراه منطوياً انطواء شديداً على نفسه. فمن طبيعة الأشياء لرجل البحر، أن يهتم بالسفينة التي هو فيها — حتى ولو كان مجرد راكب — وينظر إلى حياة البحر حوله بعين الناقد الذي يجد متعة في ذلك، كما يفعل المصور مثلا وهو ينظر إلى صورة رسمها رجل آخر: فيصير بكل معنى من معاني هذه الكلمة: «على ظهر السفينة». ولكن جيم العزيز كان في أكثر الأحيان يقضي وقته حزيناً في أسفل السفينة، وهو مختف عن الأنظار، كما لو كان قد تسلل إلى السفينة دون علم أصحابها: ولقد أصبت منه بالعدوى حتى تجنب الحديث عن كل ما يتعلق بحرفتي كما هو من الطبيعي أن يحدث في أثناء رحلة بحرية بين رجلين من رجال البحر: وكانت تمر بنا أيام عديدة لا نتبادل فيها كلمة واحدة. وشعرت بأنني يجب أن أمتنع عن إصدار أوامري إلى مساعدي في حضرته: وغالباً لم نكن ندري ماذا تفعل بأعيننا إذا تصادف ووجدنا أنفسنا منفردين على السطح أو في القمرة:

ولقد وجدت له وظيفة مع دي يونج، كما تعلمون، وسررت

لاستطاعتى التخلص منه بأى شكل كان . وإن كنت فى قرارة نفسى مقتنعاً بأن وضعه على الشاطىء قد أصبح غير محتمل . وكان قدفقد بعض تلك المرونة التي كانت تمكنه من استعادة وضعه الأول الذى كان لا يقبل المفاصلة فيه بعد أن يفقد مكانه السابق . ورأيته ذات يوم ، فى زيارتى للشاطىء واقفاً على رصيف البحر ، وكانت مياه الميناء ومياه البحر على مدى البصر فى مستوى واحد أملس يرتفع ارتفاعا طردياً مع طول المسافة . وكانت السفن فى مراسيها البعيدة تبدو وكأنها معلقة دون حراك فى السماء . وكان جيم ينتظر قاربه وهو يحمل تحت أقدامنا بطرود صغيرة من المؤن لسفينةعلى وشك الرحيل . وبعد أن تبادلنا التحية وقفنا صامتين جنباً إلى جنب : وإذا به يقول فجأة، «بحق السماء ، إن ذلك العمل يقتلنى».

وابتسم إلى،ويجب أن أقول إنه عادة يستطيع الابتسام . ولم أجبه وكنت أعلم تمام العلم أنه كان لا يشير إلى واجباته ، فلقد كان عمله مع دى يونج من السهولة بمكان . ومع ذلك ، فعند ما نطق بهذا ، أصبحت مقتنعاً تماماً بأن هــذا العمل فعلا كان يقتله . ودون أن أنظر إليه قلت له،« أتريد أن تترك ذلك الجانب من الدنيا كلية ، وتذهب إلى كاليفورنيا أو الساحل الغربى ؟ إنني سأرى ما يمكن أن أفعله . . . » فقاطعنى بشىء من الاحتقار قائلا ،« ومافائدةذلك؟» وشعرت فى الحال بأنه على حق : فلم يكن ذلك ليجدى شيئاً ، لأنه لم يكن يطلب الراحة : وخيل إلى أنى أدرك ، فى شىء من الصعوبة

ما يريد ، وما كان ينتظر إن جاز لنا هذا التعبير . وكان ذلك شيئاً من الصعب تعريفه . . . شيء يمكن أن نصفه « بالفرصة » ولقد أعطيته فرصاً كثيرة ، ولكنها كانت كلها فرصاً لكسب قوته . ولكن ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من ذلك ؟ ولقد خطر لى أن الموقف ميئوس منه وتذكرت كلمات بريرلى المسكين حين قال « دعه يزحف عشرين قدماً تحت الأرض ويمكث هناك » وقلت لنفسى إنه لو فعل ذلك لكان خيراً له من الانتظار فوق سطح الأرض حتى يحدث المستحيل. ولكننى لم أكن متأكداً حتى من هذه الفكرة . ففى تلك البقعة ، وفى ذلك الوقت بالذات وقبل أن يبتعد القارب ثلاثة أطوال عن الرصيف ، كنت قد عقدت العزم على الذهاب لاستشارة شتاين فى المساء .

وكان شتاين هذا تاجراً غنياً ، له مكانته واحترامه بين الناس وكان « بيته » (لأنه كان بيتاً حقيقياً من بيوت المال والتجارة) يدعى (شتاين وشركاه) وكان له شريك بصورة أو بأخرى ، وكان شتاين يقول عنه « إنه المختص بجزائر المولوكا » يشرف على أعمال واسعة بين الجزائر هناك ، وكان له مراكز ومحطات للتجارة أسسها فى الأماكن البعيدة فى الداخل لتجميع المحاصيل . ولم تكن ثروته ولا مكانته هما الحافز لى فى طلب النصيحة منه . ولكن السبب الحقيقى الذى حفزنى إلى الإفضاء إليه بمتاعبى هو أنه كان من أجدر الرجال الذين عرفتهم فى حياتى بالثقة . فكان هناك نور هادىء يشع من طبيعته

البسيطة التى لا يبدو عليها الإرهاق ، والتى كانت تتميز بالطيبة والذكاء
لينين وجهه الطويل الحايق ، الذى كان فيه من التجاعيد العميقة
والشحوب ما يوحى بأن حياته كانت من النوع المريح الهادئ الخالى
من المغامرات ، وهو ما كان يخالف الواقع تماماً فى هذه الحالة .
وكان شعره الخفيف مصففاً إلى الوراء ، من جبهته العريضة العالية .
وكان يخيل لمن ينظر إليه أن صورته وهو فى العشرين من عمره لم تكن
تختلف كثيراً عنها الآن وهو فى الستين . فكان وجهه يوحى بأنه أحد
طلاب الجامعات ، فيما عدا حاجبيه الكثين اللذين كادا أن يكونا
أبيضين الآن ، ونظرته الثابتة النافذة التي كانت تنبعث من تحتهما
فقد كان ذلك غير منسجم تماماً مع صورة العالم ، إن صح ذلك التعبير.
وكان طويل القامة مرن المفاصل . وكان انحناء ظهره الطفيف مع
ابتسامته البريئة يوحى باستعداده الطيب إلى الاستماع إليك . وكانت
ذراعاه الطويلتان براحتيه الكبيرتين الشاحبتين ، تتحركان فى قصد
بحركات مدروسة لتشير إلى شىء أو تساعد على تجسيم معني . وإنى
أطيل فى وصف ذلك الرجل ، لأنه كان يملك تحت ما يظهر منه
للناس وزيادة على طبعه القويم المتسامح روحاً لا تعرف الخوف وشجاعة
مادية كان يمكنني أن أصفها بعدم المبالاة بالخطر . لولا أنها كانت
إحدى الخصائص الطبيعية لجسده كالقدرة على الهضم مثلا لا تحس
أبداً بوجودها . وإننا لنصف رجلا فى بعض الأحيان بأنه يحمل
حياته على يده . ولكن هذا الوصف لا يكفى فيما يتعلق به ، لأنه فى

شبابه الأول فى الشرق كان يلعب الكرة بحياته : وقد حدث كل ذلك فى الماضي ، ولكني كنت أعرف قصة حياته ، وكيف حصل على ثروته . وكان إلى جانب ذلك من العلماء الطبيعيين الذين أحرزوا بعض الشهرة . أو لعله كان ، على الأصح ، جامعاً من أهل العلم ، وكان علم الحشرات هو اختصاصه : وكانت مجموعته من الخنافس ، التي كانت تظهر فى موتها وجمودها جماعة شريرة من المخلوقات البشعة الصغيرة الفظيعة : وكانت مجموعته من الفراشات ، وهى تضم نماذج جميلة تنشر أجنحتها الميتة تحت الزجاج قد أذاعت صيته وشهرته فى كل بقاع الأرض . فكان اسم التاجر المغامر الذى كان فى وقت ما مستشاراً لأحد سلاطين الملايو كان يشار إليه دائماً باسم «محمد بنسو المسكين») قد أصبح معروفاً لعلماء أوربا ، بسبب بضعة أكياس من هذه الحشرات الميتة . إن لم يكن عند هؤلاء العلماء فكرة — ومن المؤكد أنهم ما كانوا ليهتموا بمعرفة شيء — عن حياة ذلك الرجل أو صفاته : أما أنا الذى كنت أعرفه فقد اعتبرته الرجل الجدير بالإسرار إليه وطلب النصيحة منه عن متاعب جيم ، وعن متاعبي ،

الفصل العشرون

وفى ساعة متأخرة فى المساء دخلت إلى مكتبته بعد أن عبرت، فى طريقى إليها، حجرة الطعام الفاخرة، وكانت خالية لا ينيرها سوى ضوء خافت فى ذلك الوقت. وكان يتقدمنى خادم عجوز مقطب الجبين من أهل جاوه فى حلة رسمية تتكون من صدرة بيضاء وسروال أصفر. ففتح لى الباب وقال بصوت خافت: «سيـــدى!» ونحى نفسه عن الطريق واختفى بطريقة غامضة كما لو كان شبحاً تجسم مؤقتاً كى يستطيع أداء هـــذه المهمة فقط. فاستدار شتاين بمقعده، وبدا وكأن نظارته قد ارتفعت إلى جبهته بسبب هذه الحركة. ورحب بى فى صوته الهادىء الملىء بالمرح. وكان ركناً واحداً من هذه الغرفة الواسعة، وهو الركن الذى يقع فيه مكتبه، هو الذى كان مضاء بإضاءة قوية تصدر عن مصباح للقراءة فوقه مظلة، أما بقية الغرفة الواسعة فكانت تذوب فى ظلمة غير واضحة المعالم كأنها مغارة.

وكان فيها رفوف ضيقة عليها صناديق قاتمة اللون، ذات أشكال وألوان متشابهة حول الحوائط! ولم تكن تلك الرفوف تبـــدأ من الأرضية حتى تصل إلى السقف، ولكنها كانت تكون حزاماً لا يزيد طوله على أربع أقدام وكأنها كانت نوعاً من المقابر الرومانية تحوى

جثث هذه الخنافس ؛ وكانت هناك لوحات خشبية معلقة عليها على مسافات غير متساوية ،وكان الضوء يصل إلى إحدى هـــذه اللوحات فتظهر كلمة « كوليوبترا » فى حروف ذهبية تلمع بطريقة غامضة وسط الظلمة السائدة . وكانت صناديق العرض الزجاجية التى تحتوى مجموعةالفراشات مرتبة فى ثلاثة صفوف طويلة على موائد صغيرة من ذوات الأرجل الرفيعة . وكان أحد هذه الصناديق الزجاجية قد نقل من مكانه إلى المكتب المغطى بقطع صغيرة من الورق مستطيلة الشكل عليها كتابة دقيقة من الحبر الأسود .

وقال شتاين « وهكذاترانى فى هذا الوضع » وكانت يده تحوم فوق ذلك الصندوق الزجاجى ، حيث كانت تقبـــع فراشة فى عظمتها الفريدة وهى تنشر جناحيها البرونزيين القائمين، وكان يبلغ طولها سبع بوصات، بعروقهما البيضاء التى تدق على الوصف ،وإطارهما الفخم من النقط الصفراء . وقال شتاين « إنه لا يوجد فى عاصمتكم العظيمة لندن غير فراشة واحدة من هذا النوع ، ولكننى سأوصى بكل هذه المجموعة لبلدتى الصغيرة التي ولدت فيها وسيكون ذلك بعضاًمنى ، بل سيكون خير مافى كيانى .

وكان ينحنى إلى الأمام فى مقعده ، وينظر باهتمام شديد . وذقنه على الصندوق الزجاجى وكنت أقف وراءه. وهمس قائلا. « ياللعظمة » وكأنه كان قد نسى وجودى ؛ وكان تاريخه غريبا ،

فلقد ولد هذا الرجل فى بافاريا وحين كان شاباً فى الثانية والعشرين من عمره اشترك بدور فعال فى ثورة سنة ١٨٤٨ . وحين وجد نفسه فى مأزق بسبب ذلك فقد استطاع الهرب والتجأ فى أول الأمر إلى أحد الجمهوريين الفقراء فى تريست . وكان يعمل صانعاً للساعات ؛ واستطاع أن يأخذ طريقه من هناك إلى طرابلس وفى جعبته مجموعة من الساعات الرخيصة كان يأمل أن يعرضها للبيع فى الأماكن العامة ـ ولم تكن تلك بالطبع بداية عظيمة . ولكنه ظهر بعد ذلك أنها هى التى جلبت له الحظ السعيد . لأنه التقى هناك برحالة هولندى ، وكان رجلا مشهوراً على ما أعتقد ـــ وإن كنت لا أذكر اسمه : وكان ذلك الرجل ،وهو أحد علماء الطبيعة،هو الذى أخذه معه الى الشرق كمساعد له على صورة ما . فأخذا يتنقلان معاً ، متفرقين فى نواحى الأرخبيل لمدة أربـــع سنوات أو أكثر : كانا يجمعان فيها أنواع الحشرات والطيور . ثم رجع ذلك العالم الطبيعى إلى وطنه أما شتاين ، فلما لم يكن له وطن يرجع إليه . فقـد مكث مـع تاجر عجوز كان قد التقى به خلال أسفاره داخل جزيرة سيليبس . إن كان لهذه الجزيرة ما يمكن أن يسمى بالداخل . وكان هذا الرجل الاسكتلندى العجوز ، هو الرجـل الأبيض الوحيد المصرح له بالمعيشة فى ذلك القطر حينئذ . وكان صديقاً مقرباً لأكبر حكام ولايات الواجو ؛ وكانت من النساء : وكثيرا ما سمعت شتاين وهو يقص علينا كيف أن هذا الرجل ، الذى كان يعانى من شلل خفيف فى أحد جوانبه، قدمه إلى الحاشية الوطنية قبل أن تقضى عليه نوبة أخرى من نوبات

القلب ؛ وكان رجلا ضخم البنيان له لحية بيضاء كثيفة ؛ وهيئة توحى بالاحترام . فدخل قاعة المجلس حيث كان المهراجات ورؤساء العشائر مجتمعين مع الملكة التى كانت امرأة سمينة ، لها وجه ملىء بالتجاعيد (وقال شتاين إنها كانت طليقة اللسان) . وهى جالسة تتكىء فى استرخاء على أريكة عالية فوقها مظلة ؛ وجر الاسكتلندى رجله وهو يضرب بعصاه الأرض . وأخذ بذراع شتاين حتى أوصله إلى حيث كانت الأريكة . ثم قال فى صوت جهورى « انظرى أيتها الملكة ؛ وأنتم أيها الراجات ؛ هــذا ولدى . لقد تاجرت مع آبائكم ، وحين أموت سيتاجر هو معكم ومع أبنائكم » .

وبهذه الصورة البسيطة من الرسميات ، ورث شتاين المكانة المرموقة للرجل الاسكتلندى وكل بضاعته ، إلى جانب بيت محصن على ضفة النهر الوحيد الصالح للملاحة فى هذه الأنحاء . وبعد ذلك بقليل ماتت الملكة العجوز التى كانت طليقة اللسان . واضطربت البلاد بسبب الكثيرين الذين كانوا يطالبون بالعرش من بعدهـا . وانضم شتاين إلى فريق ابنها الأصغر الذى لم يكن يسميه بعد مضى ثلاثين عاماً من هذه الأحداث إلا « بمحمد بنسو المسكين » ، وأصبح كلاهما بطلا لعدة مغامرات ، وحدثت لهم أحداث عجيبة . وفى مرة من المرات استطاعوا أن يتغلبوا على حصار جيش كامل لهم ؛ استمر شهراً فى بيت ذلك الاسكتلندى . فى حين أن عدد أنصارهم لم يكن يزيد على

عشرين رجلا : وأعتقد أن الأهالى فى تلك الناحية مازالوا يتحدثون عن تلك الحرب إلى يومنا هذا . ويظهر أن شتاين فى هذه الأثناء لم يكن يدخر وسعاً فى إضافة كل فراشة أو خنفسة يستطيع أن يضع يده عليها إلى مجموعته. وبعد ثمانية أعوام من تلك الحرب وما صاحبها من مفاوضات ،وهدنات كاذبة،واندلاعات مفاجئة ، وصلح وغدر وغير ذلك ، وفى الوقت الذى بدا وكأن السلام قد استقر أخيراً . قتل « محمد بنسو المسكين »على عتبة مقره الملكى . وهو يترجل عائداً من رحلة موفقة لصيد الغزلان وهو فى غاية درجات السرور . وقد جعل هذا الحادث موقف شتاين مليئاً بالمخاطر وعدم الأمان، ولكنه ربما كان قد مكث هناك رغماً من ذلك لو لم يفقد شقيقة محمد أيضاً بعد ذلك بوقت قصير (وكان يسميها « زوجتى العزيزة الأميرة) » وكان له ابنة منها،فماتت الأم وبنتها فى مدى ثلاثة أيام إذ أصيبت إحداهما من الأخرى بإحدى الحميات المعدية .وترك هذه البلاد التى صار وجوده فيها غير محتمل بسبب هــذه الخسارة . وهكذا انتهى الجزء الأول الملىء بالمغامرات من حياته . وكان الجزء الذى تلاه مختلفاً عنه تمام الاختلاف إلى درجة أنه ـــ لولا الحزن الذى بقى معه ـــ لظن أن ذلك الجانب العجيب من حياته لم يكن إلا صلحاً . وكان قد تبقى معه شىء من النقود فبدأ حياته بدءاً جديداً . وعلى مدى السنين نجح فى الحصول على ثروة كبيرة . وكان أول الأمر يتنقل كثيراً بين الجزر : ولكن العمر سرقه.وأحس الآن بكبر سنه

وأصبح فى السنين الأخيرة لا يكاد يغادر بيته الفسيح الأرجاء الذى يقع خارجا عن المدينة بثلاثة أميال تحيط به حديقة واسعة وعدد من الاسطبلات والمكاتب والأكواخ المصنوعة من البامبو لخدمه هو ولأتباعه الكثيرين . وكان يستقل عربته الصغيرة كل صباح إلى المدينة حيث كان له مكتب يعمل فيه الكتاب البيض والصينيون .

وكان يمتلك أسطولا صغيراً من القوارب والسفن المستخدمة فى تلك الأنحاء . ويتعامل فى محصولات تلك الجزر على نطاق واسع . وفيما عدا ذلك كان يعيش وحيداً ولكنه لا يكره الناس . وكان يعيش مع كتبه ومجموعاته . وهو يرتب ويصنف نماذجها ويكاتب علماء الحشرات فى أوربا . ويحاول أن يكتب دليلا لها يصف فيه كنوزه وصفا دقيقاً . وهذه هى قصة حياة الرجل الذى حضرت لأستشيره فى حالة جيم دون أن أتعلق بآمال معينة فى نتيجة هذه الاستشارة ، فلقد كان يكفينى ويدخل على قلبى الراحة أن أسمع رأيه فى هذا الخصوص .

وكنت قلقا جداً . ولكنى احترمت الاستغراق الشديد الذى كاد أن يكون غراماً الذى كان ينظر به إلى تلك الفراشة . كما لو كان يستطيع أن يرى فى اللمعان البرونزى لجناحيها الدقيقين ، وفى إطارها الأبيض ، وما عليها من علامات بلغت ذروة الجمال ، أشياء

أخرى ، أخيلة أشياء قابلة للعطب ولكنها فى الوقت ذاته تتحدى الفناء . كما تفعل تلك الأنسجة الدقيقة التى لاحياة فيها حين تعرض ذلك الجمال وتلك العظمة فى الخلق التى لم يشوهها الموت .

وكرر كلمته وهو يرفع رأسه إلى قائلا « مدهش ! انظر إلى هذا الجمال . ولكن هذا لايساوى شيئا إلى جانب هذا النظام الدقيق وهذا التجانس والانسجام . ثم هذه الرقة ! وهـذه القوة ! وهذه الدقة ! هذه هى الطبيعة ميزان القوى العملاقة ، فهذه طريقتها فى عمل النجم، وفى جول كل عود من العشب يقف منتصبا، ثم يخلق الكون العظيم فى توازنه الكامل هذه الفراشة . هذه الأعجوبة تلك التحفة الفريدة من عمل الطبيعة ، عمل الفنانة الكبرى .

فقلت له مبتسماً، «إنى لم أسمع قط عالما للحشرات ينطق بمثل هذه الكلمات. تحفة فريدة ! إذن فما رأيك فى الإنسان ؟ »

فقال ، وعيناه لاتزالان مثبتتين على الصندوق الزجاجى « إن الإنسان مدهش ولكنه ليس تحفة فريدة. ولعل الفنان كان مجنوناً بعض الشيء : فماذا تظن ؟ إنه يخيل إلى فى بعض الأحيان أن الإنسان قد أتى إلى حيث لا يريده أحد ، وإلى حيث لامكان له . وإلا فلماذا يطلب كل المكان لنفسه ؟ لماذا يجرى هنا وهناك محدثا كل هـذه الضوضاء حول نفسه، متحدثا عن النجوم، ضاغطا بحذائه على أعواد العشب ؟ ... »

فشاركته فى الحديث قائلا ، « ممسكاً بالفراشات » ؟

فتبسم وارتمى إلى الوراء فى مقعده ومد رجليه إلى الأمام وقال « اجلس . لقد أمسكت بنفسى هذه الفراشة النادرة ذات صباح جميل . وكانت تعتمل فى صدرى عاطفة كبيرة . فإنك لاتعلم مايعنيه الحصول على مثل هذه الفراشة النادرة بالنسبة إلى رجل هاو مثلى — إنك لاتستطيع أن تعلم ذلك . »

فتبسمت فى راحة على مقعدى المتأرجح . وكانت عيناه تبدوان وكأنهما تخترقان الحائط الذى تحدقان فيه . وقص على كيف أنه ذات ليلة حضر إليه رسول من « محمد المسكين » يدعوه إلى الحضور لأن حمر الذى كان يبعد عن بيته تسعة أو عشرة أميال فى درب للخيول ، فى واد مغطى بالمزارع ، تغطى الغابة أجزاء منه هنا وهناك . فبدأ رحلته فى الصباح المبكر من بيته المحصن بعد أن عانق ابنته الصغيرة إما ، تاركاً لزوجته « الأميرة » الإشراف على الحصن مدة غيابه . ووصف كيف صاحبته زوجته إلى البوابة وهى تمشى ، وإحدى يديها على رقبة حصانه وكانت ترتدى صدرة بيضاء ، وتضع فى شعرها دبابيس ذهبية ، وعلى كتفها الأيسر حزام من الجلد بنى اللون فى آخره مسدس ، وقال ، « وأخذت تتحدث كما يتحدث النساء تطلب منى أن أكون حريصاً وأن أحاول الرجوع قبل الظلام . وكم هى « شقاوة » منى أن أذهب منفرداً . وكنا فى حالة حرب ، وكانت الحياة غير مأمونة

فى البلاد وعلى هـذا فقد كان رجالى يضعون أشرعة لاينفذ منها الرصاص لنوافذ البيت ، ويعمرون بنادقهم . ورجتنى بحرارة ألا أخاف عليها ، لأنها تستطيع أن تدافع عن البيت ضد أى إنسان إلى أن أرجع . وضحكت منها ، وقد شعرت بشىء من السرور ، فلقد كان يطيب لى أن أراها فى هذه الشجاعة وهذا الشباب وهذه القوة . وكنت أنا أيضاً شاباً فى تلك الأيام . وعند البوابة ، أخذت بيدى وضغطت عليها ضغطة واحدة ثم قفلت راجعـة . فأوقفت حصانى فى الخارج دون حراك حتى سمعت مزلاج البوابة وهو يوضع فى مكانه ورائى . وكان لى عدو كبير — كان أحد النبلاء العظام ، وكان أيضا وغداً من كبار الأوغاد ، وكان يحوم فى تلك الانحاء مع عصابة من رجاله . ورمحت حصانى فى سرعة معتدلة مسافة أربعة أو خمسة أميال . وكانت السماء قد أمطرت فى الليل ، ولكن الضباب كان قد ارتفع الآن ، وقد صار وجه الأرض نظيفا . فكانت الطبيعة تبتسم لى فى انتعاشها وبراءتها كأنها طفل صغير . وفجـأة أطلق بعضهم النيران، وخيل إلى أنني سمعت عشرين طلقة على الأقل . فكنت أسمع الطلقات وهى تطن قريبة من أذنى ، وأحسست بقبعتى وهى تقفز إلى مؤخرة رأسى . وعلمت أنها لابد أن تكون مغامرة صغيرة . فيظهر أنهم كانوا قد أوحوا إلى محمد المسكين بالإرسال فى طلبي، وبعـد ذلك نصبوا لى هذا الكمين . ورأيت كل ذلك فى دقيقة . وفكرت : إن هذا الموقف كان يستدعى شيئاً من المهارة .

فجعلت حصانى ينفر ثم يقفز ثم يقف. وسقطت برأسى ببطء إلى الأمام على معرفتـه . ثم بدأ حصانى يمشى ، واستطعت أن أرى بعين واحدة من فوق رقبته سحابة خفيفة من الدخان، معلقة بالهواء أمام مجموعة من البامبو عن يسارى . وأخذت أفكر : آهـا ، لماذا لاتنتظرون ياأصدقائى حتى أقترب منكم قبل أن تطلقوا النار ؟ إن المسافة لاتزال بعيدة . نعم، وأمسكت بمسدسى فى يدى اليمنى بغاية الهدوء . وقلت لنفسى إنه ليس هناك إلا سبعة من هؤلاء الأوغاد وذلك شىء يسير . ثم رأيتهم ينهضون من العشب ويجرون نحوى وقد شمروا سراويلهم وأخذوا يحركون حرابهم فوق رءوسهم ، ويصيحون أحدهم فى الآخر أن يحترس ويجتهد فى الإمساك بالحصان لأننى قد مت : فتركتهم يقتربون منى حتى صاروا على مسافة هـذا الباب هنـا . وأطلقت الرصاص ، بانج ، بانـج : بانـج ، وكنت أصوب على الهدف فى كل مرة أيضا . وأخيراً صوبت على ظهر أحدهم ، وأطلقت الرصاص فلم أصبه . وعلمت أنه كان قد جاوز المدى الذى يستطيع المسدس أن يصل إليه : وبعد ذلك وجدت نفسى وحيداً على حصانى والأرض النظيفة تبتسم لى ، وجثث ثلاثة رجال ملقاة على الأرض حولى ، وقد تكور أحدهم كالكلب ، ورقد الآخر على ظهره وذراعه فوق عينيه كأنما كان يريد أن يحجب ضوء الشمس عنهما : أما الثالث فقد سحب رجلـه ببطء شديد ثم برفسة واحدة مدها ثانية فى خط مستقيم: وأخذت أراقبه

بعناية شديدة من فوق حصانى ، ولكنه لم يأت بحركة أخرى وسكن إلى الأبد . وبينما كنت أنظر إلى وجهه باحثاً عن علامة تدل على الحياة ، لاحظت شيئاً كالظل الخفيف يمر فوق جبهته . وكان ذلك هو ظل هذه الفراشة . انظر إلى شكل هـذا الجناح . فمن عادة هذا النوع أن يطير عالياً فى سرعة وقوة . فرفعت عينى ورأيتها وهى تبتعد عنى . فأخذت أفكر : أهذا ممكن ؟ وبعـد ذلك فقدتها . فترجلت ، ومشيت فى بطء شديد وأنا أقود حصانى ، وأمسك بالمسدس فى يدى ، وبحثت بعيني ناظراً إلى أعلى وإلى أسفل ، وإلى اليمين وإلى اليسار ، بسرعة وفى كل اتجاه . وأخيرا رأيتها قابعة على كومة صغيرة من القاذورات تبعد عنى حوالى عشرة أقدام . وبدأ قلبى فى الحال يسرع فى ضرباته . فتركت حصانى ، وظللت أمسك بمسدسى فى يدى ، وخطفت قبعتى المصنوعة من اللباد اللين من فوق رأسى بالأخرى . ثم خطوت خطوة واحدة ، وتوقفت ، ثم خطوت خطوة أخرى . وأسقطت قبعتى ، وأمسكت بها ، وحين نهضت كنت أرتعش كورقة الشجرة لما انتابنى من الاضطراب . وحين نشرت هذين الجناحين الجميلين ، وتأكدت من حصولى على تلك الفراشة النادرة البديعة ، التى بلغت فى صورتها حد الكمال ، وجدت رأسى تدور ورجلى عاجزتين عن حمل ثقلى من الانفعال ، حتى اضطررت إلى الجلوس على الأرض . وكانت تحدونى رغبة شديدة فى أن أمتلك فراشة من هذا النوع ، حين كنت أجمع الحشرات للأستاذ . ولقد قمت برحلات

طويلة ، وتحملت المتاعب الجمة من أجل ذلك . بل لقد كنت أحلم بهذه الفراشة في نومي . ثم إذا بي فجأة أجدها بين أصابعي . وهي ملك لي ؟

وبدأ يعبيء غليونه ذا الساق الطويلة بالتبغ في انتباه وسكون . ثم توقف وإبهامه على فتحة الغليون . ونظر إلى نظرة ذات معنى وقال :

« نعم ياصديقي العزيز . في ذلك اليوم لم يكن لدى أمنية واحدة لم تتحقق . فلقد نجحت في مضايقة أكبر أعدائي مضايقة شديدة ، وكنت قوياً في ربيع العمر ، متمتعاً بالصداقة ، متمتعاً بحب المرأة ، وكانت لي طفلة أكملت سعادتي ، وحتى الشيء الذي كنت أحلم به في نومي كنت أقبض عليه الآن في يدي ؟ »

ثم أشعل ثقاباً ، كان له ضوء شديد ، ارتعش له وجهه الهادىء المفكر ، رعشة خفيفة . وقال ببطء وهو ينظر إلى اللهب الصغير ، « صديق وزوجة وطفلة » . ثم أطفأ الثقاب وتنهد ، والتفت ثانية إلى الصندوق الزجاجي . فاهتز الجناحان الرقيقان الجميلان هزة خفيفة ، كما لو كان نفسه قد بعث الحياة لحظة قصيرة في ذلك الذي كان في يوم من الأيام منى أحلامه .

ثم قال فجأة في لهجته الهادئة العادية المريحة للنفس ، وهو يشير إلى قصاصات الورق المبعثرة ، « إنني راض عن سير العمل في ذلك الدليل ، فهو يسير قدماً ، وكنت الآن أصف هذا النموذج النادر ... والآن ؟ ما هي أخبارك الطيبة ؟ »

فقلت له بجهد أدهشني : « إنني حضرت إلى هنا ياعزيزى شتاين كي أصف لك نموذجا . . . » فسألني في اهتمام شديد ممزوج بشيء من المرح وعدم التصديق ، « نموذجاً من الفراشات ؟ » فأجبته وأنا أشعر بشيء من الهم بسبب ماكان ينتابني من الشكوك ، « كلا ، لاشيء في مثل هذا الكمال ، إنما هو نموذج لرجل ! » .

فتمتم قائلا ، « آخ ! » . وأخذت صورة وجهه وهو يبتسم ملتفتاً إلى ، تتخذ هيئة الجد . وبعد أن حدق في لحظة قال لي في بطء ، « حسن ! فأنا أيضاً رجل . »

وهذه العبارة تعطيكم صورة شتاين الحقيقية . فلقد كان يعرف كيف يبذل من تشجيعه الكريم ما يجعل الرجل ذا الضمير الحى يتردد ، وهو على وشك الإفضاء إليه بمتاعبه . ولكنني إن كنت قد ترددت فلم يستمر ذلك وقتا طويلا .

واستمع إلى كل ما أفضيت له به ، وهو يجلس وإحدى رجليه على الأخرى ، وكان رأسه في بعض الأحيان يختفي تماماً في سحابة من الدخان ، ويخرج من هذه السحابة صوتا يدل على تأثره بما أقول . وحين انتهيت من حديثي أنزل رجله من فوق الأخرى ، ووضع غليونه أمامه ، ومال نحوى في هيئة جادة ، ومرفقاه على ذراعي مقعده ، وقد تقاربت أطراف أصابعهما من بعضها البعض . وقال ، « إنني أفهم كلامك جيداً . إنه خيالي الطبع . »

ولقد شخص الحالة فعلا لي بهذه الكلمات . وفي أول الأمر كنت

فى شدة الدهشة حين وجدت المسألة على هذه السهولة : ووجدت أن اجتماعنا كثير الشبه جداً باستشارة طبية ؛ فكان شتاين بما له من هيئة العلماء يجلس فى مقعد مريح أمام مكتبه : وكنت أنا والقلق باد على محياى ، أجلس فى مقعد مشابه فى مواجهته ، ولكن بقليل من الانحراف إلى أحد الجوانب حتى إننى وجدت من الطبيعى أن أوجه إليه هذا السؤال :

« وما الدواء الناجع لهذه الحالة ؟» فرفع إلى سبابته الطويلة وقال، « ليس هناك سوى دواء واحد . شىء واحد فقط هو الذى يستطيع أن يشفينا ! » وأنزل أصبعه على المكتب بنقرة رشيقة . ورأيته الحالة التي نجح فى جعلها تبدو سهلة أمامى من قبل،وهى تصبح أكثر سهولة إن كان ذلك من الممكن ، وتصبح أيضاً فى الوقت نفسه ، حالة ميئوسا منها كل اليأس . وتلت ذلك فترة سكون . ثم قلت له ، « نعم . ولكن السؤال — إذا أردنا الدقة ، هو ليس كيف يشفى ، بل كيف يعيش . »

فوافقني على ذلك بإيماءة من رأسه خيل إلى أنها كانت إيماءة حزينة . وقال ، « نعم ! نعم ! فذلك هو السؤال على حد قول شاعركم الكبير » . واستمر وهو يومئ برأسه مظهراً عطفه ، وهو يقول ، « نعم إن السؤال هو » كيف يكون ؟ « كيف يكون ! »

ثم نهض وأطراف أصابعه مرتكزة على المكتب ، وقال ، « نحن نريد بطرق مختلفة « أن نكون » فهذه الفراشة البديعة تجد كومة من القذارة لتجلس ساكنة عليها . ولكن الإنسان لا يستطيع أبدا أن يجلس ساكناً على كومة من الطين. إنه يريد أن يكون هذا ، ثم يريد أن يكون ذلك ..» ورفع يده إلى أعلى ثم أنزلها وهو يقول ، « إنه يريد أن يكون قديسا، ويريد أن يكون شيطاناً . وفي كل مرة يقفل عينيه ويرى نفسه رجلا عظيما كامل الصفات ،عظيماً كما لا يمكن أن يكون ... إنه يحلم دائما ... »

ثم أنزل الغطاء الزجاجي . وكان للقفل التلقائي صوت حاد ، وأخذ الصندوق الزجاجي بين يديه،وحمله كما لو كان شيئاً ذا قدسية خاصة إلى مكانه الأصيل : فعبر به دائرة الضوء الضعيف ، ثم إلى غسق الظلمة التي لا تبين فيها الأشياء بعد ذلك . وكان لهذه الحركة تأثير غريب ، كما لو كانت تلك الخطوات القليلة قد حملته بعيداً عن دنيا المادة وما فيها من حيرة ومن عقد : فكانت قامته الطويلة قد تخلت عن بعدها الثالث!وأخذت تحوم دون ضوضاء فوق أشياء غير مرئية وهي تقوم بحركات وانحناءات يصعب وصفها . وكان صوته وهو يصل إلى أذني من تلك المسافة البعيدة حيث كنت أراه مشغولا بطريقة غامضة بأشياء غير مادية ـ قد خفت نغمة الحسم القاطعة فيه وخيل إلى أنه وهو يتدحرج إلى،في جديته وجهوريته قد فقد على طوله

المسافة شيئاً من خشونته واكتسب بعض اللين فى نبراته :

واستمر فى حديثه وهو يقول ، « ولأنك لاتستطيع دائماً أن تبقى عينيك مغلقتين ، فإنك تحس بشقائك الفعلى ، بعذاب القلب ، وعذاب الدنيا ، وإنى أقول لك ياصديقى إنه ليس من الخير لك أن تكتشف أنك لاتستطيع تحقيق أحلامك ، وأن السبب فى ذلك هو أنك لا تملك القوة الكافية ولا المهارة الكافية . نعم ! ... وخاصة أنك تعتقد طول الوقت أيضاً أنك ذلك الفتي العظيم ! كيف ؟ ماذا ؟ فبحق إله السموات ! كيف يتأتى هذا ؟ ها ! ها ! ها ! » :

ثم قهقه الشبح الذى كان يتنقل بين قبور الفراشات وقال : « نعم ! إنه لشيء مضحك جداً . فإن الرجل الذى يولد من الأنثي يسقط أحلامه ، كما يسقط رجل آخر فى البحر : وحين يحاول أن يتسلق إلى الهواء كما يفعل بعض من الاخبرة لهم فإنه يغرق : أليس كذلك ؟ . كلا ياصديقى ! فطريق الخلاص هو أن تسلم نفسك إلى ذلك العنصر الفتاك . ثم بجهود يديك وأقدامك فى الماء ، ترغم البحر العميق ، العميق ، أن يحملك على ظهره . فإن كنت تسألني « كيف يكون ؟ » فإنى سأخبرك ! فليس هناك غير طريق واحد لذلك أيضاً » :

وكان صوته يقفز الآن فى قوة غير عادية كما لو كان قد نزل عليه الوحى فى ذلك الغسق المظلم ، بهمسات من العلم والمعرفة .

ثم ظهر فى دائرة النور الخافت ، وهو يمزق الهواء بخفيه فى حركة سريعة . ثم سار فجأة فى دائرة الضوء القوى للمصباح . وكانت يده الممتدة مصوبة نحو صدرى كالمسدس . وعيناه الغائرتان فى وجهه تبدوان وكأن نظراتهما تنفذ من خلالى . ولكن شفتيه المرتعشتين لم تنبسا بكلمة . ثم إن ذلك السرور الرصين الذى كان يرتسم على وجهه بسبب ما كان يشعر به من الثقة والتأكيد فى تلك الظلمة المقارنة، اختفى فجأة من فوق وجهه. وسقطت يده التي كانت تشير إلى صدرى وبعد ذلك اقترب مني خطوة، ووضعها برفق على كتفى وقال بصوت حزين إن هناك أشياء ، لعله من المستحيل أن يذكرها الإنسان ولكنه قد عاش وحيداً لفترة طويلة ، ولعل ذلك قد جعله ينسي فى بعض الأحيان . ويظهر أن الضوء كان قد أفقده الثقة التي كانت تنزل عليه بالوحى، وسط الظلال البعيدة. فجلس على مقعده ووضع مرفقيه على المكتب ، ومسح على جبهته ، وأخذ يتحدث إلى ، فى نبرات مكبوتة ، وقد وضع وجهه بين يديه دون أن ينظر إلى ، فقال ، « ومع ذلك ، فهذا صحيح . فالطريق هو أن تغطس فى هذا العنصر الفتاك ، وأن تمشي وراء أحلامك، ثم تمشي وراء أحلامك، وهكذا إلى النهاية .. » وخيل إلى أن ذلك الهمس الذى يدل على اقتناعه يفتح أمامى مجالا فسيحاً من الفضاء لايستطيع بصرى أن يتبين معالمه فى وضوح . فكأنما كنت أنظر إلى الأفق فى الضوء الشاحب عند الفجر ، أو ربما فى الضوء الشاحب عند الغسق ، فليس عندى

الشجاعة التي تمكنني من القطع برأى فى ذلك ؛

ولكن أيما كان الحال، فلقد كان ضوء آخاد عاً جذاباً ياقى بشاعريته غير المرئية الشحوب فوق الحفر ، وفوق القبور ! فلقد بدأت حياة هذا الرجل بالتضحية والحماسة للأفكار السامية . وقام بأسفار كثيرة إلى جهات نائية فوق طرق مختلفة ، وعلى دروب غريبة . ولكن حين كان يطلب شيئاً فإنه كان يجد فى السعى وراءه دون تردد ، وعلى هذا فقد كان يفعل ذلك دون شعور بالعار ، أو بالندم . وإذن فلقد كان على حق فى حدود هذا المدى. فذلك كان طريقه دون شك . ولكن رغماً من كل هذا ، فإن السهل العظيم الذى يتجول فيه الناس بين القبور والحفر كان لا يزال موحشاً فى الضوء الشاحب لتلك الشاعرية غير المرئية .كانت تظلله سحابة قاتمة فى الوسط ، وتدور حوله حافة مضيئة ، كما لو كان محاطاً بحفرة هائلة مليئة باللهب ... وحين قطعت ذلك السكون الذى خيم علينا كان ذلك لأعرب له عن رأيي بأنه لا يوجد من هو أكثر خيالية منه .

فهز رأسه ببطء ونظر بعد ذلك إلى نظرة فيها معني الصبر والاستطلاع،وقال إنه يجب أن نخجل من أنفسنا،ونحن نجلس هكذا نتحدث كما لو كنا صبيين يافعين ، بدلا من أن نضع رأسينا معاً كى نصل إلى شيء عملى - علاج عملى ، لذلك الشر ، لذلك الشر العظيم. وكرر هذه الكلمة وعلى فمه ابتسامة مرحة متسامحة . ولكن رغماً من

كل هذا الكلام، فإن حديثنا لم يتطرق إلى الحلول العملية . فقد كنا نتجنب ذكر اسم جيم وكأننا نحاول أن ننحى جانباً اللحم والدم عن مناقشاتنا . أو كأن جيم لم يكن إلا مجرد روح خاطئة أو شبح لا اسم له - يقاسي العذاب . وأخيراً نهض شتاين وهو يقول ، «حسن إنك ستنام هنا الليلة، وفى الصباح سنجد شيئاً عملياً - عملياً . . . » ثم أشعل شمعداناً ذا شعبتين وتقدمني كى ينير لى الطريق ، وسرنا خلال غرف مظلمة خالية تصحبنا ومضات الضوء الذى كان يحمله شتاين ، فكانت هذه الومضات تنزلق على الأرضيات الملمعة بالشمع . وتنطلق هنا وهناك على سطح مائدة أملس ، ثم تقفز فوق منحنى صغير لقطعة من الأثاث . أو يدخل ويخرج ضوءها رأسياً فى المرايا البعيدة ، بينما كنا نستطيع أن نرى فى لحظة خاطفة صورة رجلين ولهبين مهتزين ، يسترقان طريقهما في سكون عبر أعماق ذلك الفراغ البلورى . وكان شتاين يمشي فى بطء فى انحناءة خفيفة وهو يتقدمني بخطوة . وكان يرتسم على وجهه هدوء عميق كما لو كان يصغى إلى شيء . وكانت خصلات شعره الطويلة التي تشبه الكتان وهى تختلط بالخيوط البيضاء منتشرة فى قلة وخفة على رقبته التي تميل قليلا إلى الأمام .

وقال وهو يكرر الكلمة، « إنه خيالى - خيالى . وذلك شيء سيء نعم هو شيء سيء ... » ثم أضاف ، » ولكنه شيء حسن أيضاً » وسألته حينذاك ، « ولكن أصحيح أنه خيالى ؟ »

فتوقف عن المشي والشمعدان لا يزال مرفوعاً فى يده ، وقال دون أن ينظر إلى ، « إن ذلك واضح ! وإلا فما هو الشيء الذى يجعله يعرف نفسه عن طريق ما يشعر به من الألم فى داخله ؟ ثم ما هو الشيء الذى يجعلك ويجعلني نحس بوجوده ؟ » .

وفى هذه اللحظة كان من الصعب على أن أعتقد فى وجود جيم فلقد كان بالنسبة لى مخلوقاً بدأ حياته فى بيت قسيس ريفى ، ثم ضاعت معالمه فى زحمة من الرجال ، وكأنما قد حجبته سحابة من التراب وسكن صوته فى ضجة مطالب الحياة والموت المتعارضة فى عالم مادى ، ولكن حقيقته التي لا تغني ، أتت إلى فى شكل مقنع ، وقوة لا تقاوم فرأيتها بوضوح شديد كما لو كنا - فى سيرنا خلال الغرف الصامتة العالمية ، وبين ومضات الضوء الخافتة ، وفى رؤيتنا المفاجئة للخيالات الآدمية ، وهى تسترق طريقها مع اللهب المهتز إلى الأعماق الشفافة التي لا يمكن الوصول إلى قرارها - قد اقتربنا كثيراً من الصدق المطلق الذى هو بطبيعته إحدى القيم كالجمال ذاته ، يطفو بعيداً ، عن متناول اليد غير واضح ، نصف مغمور فى المياه الساكنة الصامتة للغموض ، وقلت له موافقاً على كلماته ، وقد أفلتت مني ضحكة صغيرة كان لصداها العالى غير المتوقع أثر فى نفسى جعلني أخفض من صوتى تواً ، « ربما كان خيالياً . ولكنني متأكد أنك أنت الخيالى الأصيل » . فاستأنف سيره ثانية ورأسه ساقط على صدره ، وهو يمسك بالشمعدان عالياً ثم قال ، « حسن فأنا أيضاً موجود . » .

وكان يتقدمني : وكنت أتتبع حركاته ، ولكن مارأيت لم يكن هو الرجل ، الذى كان على رأس بيت كبير من بيوت الأعمال ، ولا الضيف الذى كان يرحب به فى استقبالات الشاى ، ولا مراسل الجمعيات العلمية ، ولا مضيف علماء الطبيعة المتجولين فى أنحاء الدنيا ، ولكن ما رأيت ، كان حقيقة مصيره الذى عرف كيف يتبعه في خطوات لاتعرف التردد . كان ما رأيته هو ذلك الحياة التي بدأت في بيئة متواضعة ، ذلك الحياة الغنية بالحماسة والبذل فى سبيل الصداقة والحب ، والحرب ـ وكل العناصر الخيالية السامية . . . وعند باب غرفتي استدار ليواجهني فقلت له، وكأنني كنت مستمراً فى المناقشة «نعم وبين غير ذلك من الأشياء كنت قد حلمت ـ حلماً من تلك الأحلام الحمقاء ـ بفراشة معينة . ولكنك حين رأيت حلمك ذات صباح جميل يعبر طريقك ـ فإنك لم تترك ذلك الفرصة العظيمة تفلت منك : بعكس الآخر ...» فرفع شتاين يده معترضاً وقال ، « ولكن هل تعرف كم عدد الفرص التي تركتها تفلت مني ؟ وكم عدد الأحلام التي فقدتها وهى تعترض طريقى ؟ » ثم هز رأسه علامة الندم وقال، «إنه يخيل إلى أن بعض هذه الأحلام كان سيكون جميلا ـ لو جعلته يتحقق : هل تعرف عدد هذه أو تلك ؟ ربما كنت أنا نفسي لاأعرف:» فقلت ، «سواء أكانت فرصه وأحلامه جميلة أم لم تكن فإنه لاشك كان يعرف منها فرصة بذاتها لم يقتنصها : » فقال شتاين»

« إن كل إنسان يعرف فرصة أو فرصتين من ذلك النوع : وهذا هو سبب المتاعب - المتاعب الكبيرة ».

وهزيدى عند عتبة الغرفة ، وهو ينظر إلى غرفتي من تحت ذراعه المرفوعة وقال ، « نوماً هنيئاً . وفى الصباح لا بد لنا من أن نفعل شيئاً عملياً - عملياً .... » .

ومع أن غرفته كانت بعد غرفتي ، فلقد رأيته يرجع من حيث أتى فلقد ذهب ثانية إلى فراشاته .

الفصل الحادى والعشرون

«ولا أعتقد أنكم سمعتم بمكان يدعى باتوزان» وكان ذلك هو ما قاله مارلو حين استأنف حديثه بعد فترة صمت قضاها فى إشعال سيجاره بعناية؛ ثم استمر فى حديثه قائلا، «ولكن هذا لا يهم فهناك عدد كبير من الأجرام السماوية تزدحم فوق رءوسنا فى ليلة صافية، ولم يسمع الجنس البشرى عنها شيئاً، حيث إنها تقع خارج نطاق نشاطه، ولا أهمية لها عند أحد، فيما عدا الذين يتقاضون أجورهم كى يتحدثوا — حديث العلماء — عن تكوينها ووزنها ومسارها — وعن الشذوذ فى سلوكها، والانحراف فى أضوائها، فكأنه نوع من الخوض فى الفضائح بطريقة علمية. وذلك هو ما يسرى عن باتوزان؛ فلقد كانت الدوائر الحكومية فى باتافيا، تتحدث عنها حديث العارفين، وخاصة فيما يتعلق بشذوذها وانحرافها؛ وكان القليلون جدا فى عالم التجارة هم الذين يعرفون اسمها؛ وعلى كل حال، لم يذهب أحد إلى تلك البلاد، ولا رغب أحد — فى اعتقادى — فى زيارتها بشخصه، كما يرغب الفلكى — فيما أظن — فى أن ينتقل إلى جرم سماوى بعيد، حيث يجد نفسه وقد حيل بينه

وبين عيشته التى رضي بها على الأرض فى حيرةٍ واضطراب ،
منظر الفضاء الذى لم يتعوده . ولكن ليس بين الأجرام السماو
والفاـكيين وبين باتوزان علاقة على الإطلاق : فلقد كان جيم
الذى ذهب إلى هناك ، وكل ما أردت أن أفهمكم إياه، هو أنه لو ك
شتاين قد نظم له رحلة إلى نجم من نجوم الطبقة الخامسة فى اللمعان، لما ك
ذلك أكبر أثراً عليه من إرساله إلى باتوزان ! ولقد ترك وراءه
نقائصه الدنيوية . وذلك النوع من الشهرة الذى كان يلصق به :
وجد هناك مجموعة أخرى من الظروف الجديدة عليه غاية الجد
يستطيع أن يعمل فيها كما يريد بوحى من خياله الخصب : وكان
ما رآه هناك يبدو له جديداً ومدهشاً : ولقد استطاع أن يتملك ه
الظروف ويخضعها له بطريقة تدعو إلى الإعجاب :

وكان شتاين هو الذى يعرف عن باتوزان أكثر مما يعر
رجل آخر : وأكثر مما كان معروفاً لدى الدوائر الحكومية ف
أعتقد ، وليس لدى شك فى أنه كان قد زار هذه الأنحاء إما فى أ
صيده للفراشات وإما بعد ذلك ، حين كان يحاول بطري
التى تستعصى على التعديل أن يتبل بحفنة من المغامرات العاطفية صحا
الطعام الدسمة فى مطبخه التجارى : فلم تكن هناك إلا أماك
قليلة جداً فى ذلك الأرخبيل لم يرها فى زمان الغسق من تاري
قبل أن يدخلها النور « والنور الكهربائى أحياناً » الذى يحم
معه مكارم الأخلاق ، و... وحسن ! والطمع فى الربح أيضاً . وكا

الساعة التي ذكر فيها شتاين ذلك المكان ، هي وقت الإفطار في صباح ذلك اليوم الذي تلا حديثنا عن جيم ، بعد أن اقتبست له كلمة جرولي وهلي : « دعه يزحف عشرين قدماً تحت الأرض ويمكث هناك» ، فرفع إلى نظره عندئذ في اهتمام ظاهر كما لو كنت حشرة نادرة الوجود ؛ وأخذ رشفة من قهوته وقال ، « إن ذلك ممكن أيضاً » ففسرت ذلك له قائلا « ادفنه بطريقة ما ، وإن كنت لا أحب أن أفعل ذلك بالطبع ، ولكن هذا هو الحل الوحيد لمشكلته ونحن نراه على حقيقته » . فقال شتاين وقد بدت عليه علائم التفكير ، « نعم إنه صغير السن » . فأكدت ذلك قائلا ، « إنه أصغر إنسان في الوجود الآن » ؛ فقال شتاين في نفس اللهجة « حسن ، هناك باتوزان » ، ثم أضاف ما استعصى على فهمه إذ قال « ثم إن تلك المرأة ماتت الآن » ؛

وأنا لا أعرف بالطبع تلك القصة ولكني أستطيع أن أضمن فقط أن باتوزان كانت استعملت من قبل هذه المرة كقبر لدفن خطيئة ، أو خروج عن الطريق القويم ، أو حظ عاثر ؛ وإني أجد أنه من المستحيل على أن أتهم شتاين ؛ فالمرأة الوحيدة التي كانت في حياته هي فتاة الملايو التي كان يدعوها « زوجتي الأميرة » أو في اللحظات النادرة التي كان يترك فيها نفسه على سجيتها ، « أم ابنتي إما » ، أما من هي هذه المرأة التي ذكرها بمناسبة حديثه عن باتوزان فهذا ما لا أعرف شيئاً عنه .

ولكني استطعت أن أفهم من خلال حديثه حين كان يشير إليها أنها كانت فتاة متعلمة على جانب كبير من الجمال ، من أصل مختلط بين الهولنديين والملايو . وكانت لها قصة محزنة أو لعلها كانت مثيرة للرثاء فقط . ولا شك أن أكثر الجوانب إيلاما فى هذه القصة زواجها من برتغالى من « ملقا » كان يعمل كاتباً فى أحد البيوت التجارية فى المستعمرات الهولندية . ولقد فهمت من شتاين أن ذلك الرجل كان غير مرض فى أكثر من جانب واحد، بل كان فى كل نواحيه مبعثاً للنفور ومثاراً للشبهات . ولقد عينه شتاين مديراً لمحل تجارة شتاين وشركاه فى باتوزان ، إرضاء لزوجته فقط . ولكن هذا التعيين قد أثبت أنه غير موفق فيما يتعلق بتجارة الشركة على أية حال . أما الآن وقد ماتت هذه المرأة ، فان شتاين كان يميل إلى استخدام وكيل آخر له هناك . وكان هـذا البرتغالى واسمه كورنليوس يعتبر نفسه رجلا من أصحاب المواهب الكبيرة ، الذين ظلموا ، وأن كفاءته وقدرته كانتا تؤهلانه لوظيفة أعلى . وكان ذلك هو الرجل الذى كان على جيم أن يحل محله فى وظيفته. وقال شتاين «ولكني لا أظن أن ذلك الرجل سيترك المكان ، وهو أمر لا شأن لى به، ثم إنه كان إرضاء لتلك المرأة فقط إنني . . ولكني أظن أن هناك

ابنة تركتها تلك المرأة،وعلى ذلك فسأدعه يحتفظ بالبيت إذا أراد أن يمكث هناك ».

وكانت باتوزان أحـد الأقاليم النائية لدولة يحكمها الوطنيون . وكانت القرية الأولى فيها تحمل نفس الاسم ،وكانت هناك نقطة على شاطىء النهر تبعد حوالى أربعين ميلا على البحر ، حيث كانت المشارف الأول للبيوت تبدو فى مجال النظر . وكنت تستطيع أن ترى فى هذه النقطة قمتين لتلين منحدرين انحداراً رأسياً يعلوان عن مستوى الغابة، وليس بينهما إلا مسافة قصيرة جداً. وكان يبدو أن ما كان يفصل أحدهما عن الآخر هو انكسار عميق من ضربة قوية للطبيعة شطرت الجبل شطرين . والحق أن الوادى الذى كان بينهما لم يكن إلا تجريفاً ضيقاً فى الصخر ، وكان المنظر يظهر للرائى من القرية فى صورة تل مخروطى غير منتظم الشكل شطر من وسطه إلى نصفين ، وقد مال كل نصف منهما قليلا بعيداً عن الآخر. وفى اليوم الثالث من اكتمال القمر، رأيته من الأرض الفضاء أمام بيت جيم (وكان له بيت جميل مبني على الطراز الوطني حين زرته) يبزغ وراء هذين التلين تماماً ، وقد أظهر ضوؤه غير المباشر التلين فى أول الأمر على صورة ظلين حالكى السواد ، ثم أخذ قرصـه الذى كاد يكتمل فى ضوئه النحاسي الذى يشع الصحة والشباب يرتفع قليلا .. قليلا فى الفتحة التي بين التلين حتى وصل فى علوه إلى ما فوق القمتين ، وظهر فى أوجه وكأنه يحتفل

في هدوء بانتصاره حين أفلت من ذلك القبر الذى كان يقبع تحته وهو فاغرفاه ، وقال جيم وهو يقف إلى جانبي « صورة جميلة أخاذة تستحق النظر إليها. أليس كذلك» ؟» ولمحت فى سـؤاله رنة كبرياء جعلتني ابتسم، كما لو كان يريد أن يشعرنى بأن له يدا فى تنسيق هذا المنظر الفريد ، وكان قد نجح فى عمل أشياء كثيرة فى با توازن،أشياء كانت تبدو بعيدةعن سيطرته بعدحركات القمر والنجوم؛ كان شيئاً بعيداً عن التصور ، وذلك هو الوصف الذى كان يتميز به الدور الذى كان يلعبه جيم هناك،نتيجة لتلك الفرصةالتي ألقيناها أنا وشتاين فى طريقه دون قصد سوى إبعاده عن الطريق ... طريق نفسه ، وأرجو أن تفهموا معني هذه العبارة الأخيرة تمام الفهم. فذلك كان غرضنا الأساسى ، وإن كنت أعترف أنه كان لدى دافع آخر له بعض الأثر فيما فعلناه لجيم ، فلقد كنت أزمع العودة إلى الوطن لقضاء فترة من الوقت هناك : ومن الممكن أن تكون قدتولدت لدى رغبة لم أحس بها إحساساً واعياً إذ ذاك فى أن اتخلص منه - وأرجو أن تفهموا هذا أيضاً - قبل أن أغادر هذه الأنحاء ... نعم فلقد كنت عائداً إلى الوطن ، وكان جـيم قد جاء إلى هناك بمتاعبه التعسة ومطالبه التى كانت من نسيج الأطياف كرجل يلهث تحت ثقل مايحمله فى الضباب . وإنى لأعلم أنني لا أستطيع أن أقول إنني رأيته بوضوح فى أى وقت من الأوقات حتي إلى الآن بعد زيارتى الأخيرة له، ولـكنني كنت

أشعر دائما بأنه كلما قل فهمي لطبيعته زاد ارتباطي به بسبب ذلك الشك الذي هو إحدى خصائص المعرفة عندنا : والحق أنني لا أدرى إن كنت أعرف نفسي أكثر كثيراً مما أعرفه ، ثم إنني أكرر أنني كنت عائداً إلى الوطن، ذلك الوطن الذي كان بسبب بعده عني تبدو لى كل مواقده - وهى الرمز لشعور المرء بالدفء والطمأنينة والانتماء الذى لا يجده الإنسان إلا فى بيته - وكأنها موقد واحد فقط من حق أقل الناس فيناحظاً من الحياة ومتاعبها أن يجلس إلى جواره مستمتعاً بدفئه، فنحن ننتشر بألوفنا فى مناكب الأرض، الشهيرة منها والمغمورة لنكتسب فيما وراء البحار شهرتنا وثروتنا ، أو كسرة الخبز التي تقوم بأودنا فقط، لكنه يخيل إلى أن عودتنا إلى الوطن، لا بد أن تعني أن يقدم كل منا حسابه عما فعل. فنحن نعود إلى الوطن لنواجه رؤساءنا، أو ذوى قربانا ، أو أصدقاءنا .هؤلاء الذين ندين لهم من هذه الطائفة أو تلك . حتي هؤلاء الذين لا يعرفون فى الوطن وجها عزيزاً يتشوقون إلى رؤيته، أو صوتاً حنوناً يتوقون إلى سماعه، حتي هؤلاء سيضطرون إلى ملاقاة الروح التي تسكن البلاد تحت سمائها ، وفى هوائها وفى أوديتها ،وعلى جبالها ، وفى حقولها ، وفى مياهها ، وفى أشجارها كصديق وقاض ومصدر للوحى . . . كل يؤدى فى صمته بلاغة المبين. وقل ما شئت فلكي تشعر بسرورها وتتنفس سلامها ، وتواجه صدقها فانه لا بد لك أن ترجع إليها راضي النفس مرتاح الضمير .

ولقد يبدو كل ذلك لكم مجرد إسراف فى العاطفية . والحق أنها قلة قليلة منا ، وهى التي لها الإرادة أو القوة على استطلاع الأسباب التي تكمن وراء انفعالاتنا العادية بشيء من العمق ... فهناك الفتيات اللاتى نحبهن ، والرجال الذين نرتفع بأبصارنا إليهم ، وهناك الشعور بالحنان والصداقة ، وهناك الفرص ، وهناك المتع ! ولكن المهم فى كل ذلك هو أنه لا بد أن تتسلم جائزتك بيدين نظيفتين لئلا تتحول وهى فى قبضة يدك إلى أوراق جافة أو إلى أشواك . وإنى لأعتقد أن أولئك الوحيدين عن الأهل والخلان، أولئك الذين لا موقد لهم ولا رباط عاطفى يربطهم ، أولئك الذين لا يرجعون إلى بيت بذاته، بل إلى الأرض نفسها ليلتقوا بروحها غير المتجسدة . بروحها الخالدة، بروحها التي لا تتغير ، إن هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يفهموا أكثر من غيرهم صرامتها ، وقدرتها على إنقاذنا ، وقيمة حقها الحر علينا بالولاء والطاعة، نعم . إن القليل منا هم الذين يفهمون ذلك ولكننا جميعاً نشعر به . وأنا أقول جميعاً لأن من لا يشعر منا بذلك لا يستحق . إلا أن نسقطه من العد . فلكل عود من العشب بقعته الصغيرة من الأرض التي يستمد منها حياته وقوته . وكذلك الإنسان فان جذوره فى تلك الأرض التي يستمد منها إيمانه وحياته معاً .

ولست أدرى مدى فهم جيم لذلك . ولكني أعلم أنه يشعر فى شيء من الحيرة ، وفى الوقت نفسه بكثير من القوة، بأهميته تلك

الحقيقة أو ذلك الوهم : ولست أهتم بالاسم الذى تطلقونه على ذلك فبين هذا وذاك فرق ضئيل . ثم إن وجود الفرق لا يكاد يعني شيئاً فى هذه الحالة. فالمهم أن المشاعر التي كانت تعتمل فى قاب جم هى التي كانت تجعلني أهتم به . ومن المفهوم الآن أنه كان قد طلق فكرة العودة إلى الوطن إلى الأبد ، نعم إلى الأبد وإلى غير رجعة .

و كانت له القدرة على إظهار شعوره بصورة درامية لأصابته الرعشة من هذه الفكرة ، ولجعلكم ترتعشون معه أيضاً . ولكنه لم يكن من هذا الطراز ، وإن كانت له طريقته الخاصة فى التعبير الصادق عن مشاعره . فعند ذكر عودته إلى الوطن كان يستولى عليه يأس يفقده مرونة أطرافه ، فيتجمد فى مكانه دون حراك . وذقنه على صدره وشفتاه ممطوطتان وتلك العينان الزرقاوان اللتان لا تستطيعان أن تخفيا شيئاً تقدحان شرراً تحت جبينه المقطب، وكأنه يواجه شيئاً لا يحتمل ، ويثير اشمئزازه ، ويكاد يسلمه إلى الغثيان . فلقد كان ذلك الرأس الصاب على كتفيه ،الذى كان يغطيه الشعر الكث « كالطاقية » المحبوكة ،مليئاً بالخيال . وأما أنا فلم أكن أملك مثل هذا الخيال (ولو كان لى خياله لكنت أكثر اطمئناناً عليه اليوم) . وأنا لا أعني بما ذكرت أنني كنت أتوقع ،وأنا عائد إلى وطني سليم العظام ـ إن صح هذا التعبير ـ أن أجد روح البلاد مطلة على من فوق صخور دوفر البيضاء لتسألني عما فعلت بأخى الصغير المسكين، فذلك خطأ لا يمكن أن أقع فيه ، فلقد كنت أعلم تمام العلم أنه

كان أحد هؤلاء الذين لا يمكن أن يستطيع أخبارهم أحد . ولقد رأيت رجالا خيراً منه يذهبون ويختفون وتمحى آثارهم دون أن يرتفع صوت واحد للسؤال عن مصيرهم أو الأسف عليهم . وروح البلاد كالحاكم الذى تشغله عظائم الأمور لا يمكن أن تهتم بمصائر الناس مهما بلغ عددهم . فالويل للمتخلفين عن الركب ، فان كياننا يعتمد فى وجوده على ترابطنا كجماعة . فان تفرقنا آحاداً ذهبت ريحنا . ولقد تخلف جيم عن الركب بطريقة ما . ولم يلزم مكانه فى القطيع - ولكنه كان يحس بذلك إحساسا شديداً يمس القلب - كمثل الرجل الذى يعيش حياة الإنسان الكاملة بكل ما فيها من نواح متعددة للنشاط - فيحدث موته فى قلوبنا أثراً لا يحدثه موت شجرة . وأستطيع أن ألخص الموقف بقولى إنه تصادف وجودى بالقرب منه ، وإننى قد تأثرت بحالته . وذلك كل ما فى الأمر - فصار الطريق الذى يسير فيه وحيداً بعد أن ترك الجماعة موضع اهتمامى . فلقد كان يحزنى قلبي مثلا أن أراه يلجأ إلى الشراب . فالأرض ضيقة إلى درجة أنى كنت أخشي أن يعترض طريقى ذات يوم رجل كادت قوة الإبصار أن تغيض من عينيه ؛ وقد تورم وجهه ، ورثت هيئته حتي فقد نعلى حذائه المصنوع من قماش الخيم ، وصارت ملابسه خرقاً بالية على جسده ليطلب مني قرضاً قدره خمسة دولارات ؛ باسم ما كان بيننا من أواصر المعرفة القديمة . وإنكم لتعرفون طريقة هؤلاء الغربان فى سلوكهم الفظيع المتكلف حين ينقضون علينا من ماضيهم الطيب ؛ بذلك الصوت النفاذ الذى تتميز نبراته بعدم الاكتراث ؛ وتلك النظرات الوقحة التي تجفل قليلا من المواجهة ؛ ذلك اللقاء الذى يضيق به صدر الرجل .

الذى يؤمن بالوحدة والتضامن فى حياة البشر أكثر مما يضيق به صدر القسيس أمام سرير الموت لرجل يرفض الغفران عن ذنوبه. وأصدقكم القول إن ذلك كان هو الخطر الوحيد الذى أخشى منه عليه وعلى نفسي ولكني كنت فى ذلك أيضاً أسيء التفكير لافتقارى إلى الخيال . ولقد كان من الممكن أن تكون النتيجة أسوأ من ذلك ؛ ولكن ذلك كان بطريقة ما ،أبعد مدى مما تستطيع قدرتى أن تنفذ إليه من خلال الغيب . فلقد كان من عادته ألا يترك لى فرصة لنسيان ما يتمتع به من القدرة على الخيال . ومثل هؤلاء الناس ممن يمتازون بتلك القدرة ؛ من عادتهم دائماً أن ينطلقوا إلى أبعد من غيرهم فى أية ناحية من النواحى ؛ كما لو كانت حبالهم فى مراسي الحياة غير الآمنة أطول من حبال غيرهم . نعم . إن هؤلاء الخياليين دائماً ينطلقون إلى أبعد من غيرهم فى كل شوط . فمن الممكن أن يلجئوا إلى الشراب أيضاً — ولكني لا أعلم فربما كنت أحقر من شأنه بتلك المخاوف — وكيف يتأتى لى أن أعلم ؟ إن شتاين نفسه لم يستطع أن يقول شيئاً أكثر من أنه كان خياليا . إن كل ما أعرفه أنه كان واحداً منا . ولهذا فقد كنت أسائل نفسى ؛ بأى حق زج بنفسه فى هذه الخيالية ؟إننى أخبركم الآن بالكثير عما أشعر به عن طريق الغريزة و بنتيجة تفكيرى وتأملاتى أيضاً ؛لأنه لم يبق مما أعرفه عن جيم شيء لم أخبركم به . فأنا أشعر بوجوده، وأنتم لا تستطيعون بدوركم أن تشعروا بوجوده إلا من

خلال حديثي إليكم ؛ ولهذا فقد قدته من يده ؛ وجعلته يسير أمامكم فى عرض كامل لكل جوانبه . فهل كانت مخاوفى العادية غير عادلة؟ إنني لا أستطيع أن أجزم بذلك حتي فى وقتنا هذا ؛ ولربما كنتم تستطيعون الحكم على ذلك خيراً مني حيث إن المثل يقول إن المتفرجين يرون دائماً الجزء الأكبر من المباراة . وعلى أية حال كانت هذه المخاوف غير ذات موضوع لأن جيم لم يتداع على الإطلاق ؛ بل على العكس فقد صمد إلى آخر الشوط، وأدى دوره كما يجب وهو منتصب القامة، وفى حالة ممتازة مما يدل على أنه كان يستطيع الصمود ؛ كما يستطيع القيام بأى مجهود عنيف إذا لزم الأمر . وكان يجب أن أكون مسروراً بذلك لأنه نصر لعبت فيه دوراً ، ولكني فى الواقع لست مسروراً بقدر ماكنت أتوقع لأنى أسائل نفسى ، إن كان ذلك الاندفاع قد جعله بعيداً حقاً عن ذلك الضباب الذى كان يبدو فيه جديراً بالاحترام أو التقدير ؛ وتبدو فيه خطوطه العريضة التي تحدد قسماته غير واضحة ولا مستقرة، حين كان أحد المتخلفين عن الركب الذين يحنون حنيناً شديداً إلى مكانهم المتواضع فى الصف . ثم إن الكلمة الأخيرة لم ينطق بها بعد ؛ والأرجح أنه لن ينطق بها أبداً .

أليست حياتنا أقصر من أن تمتد بنا إلى ذلك النطق الكامل الذى هو نيتنا الوحيدة الباقية بالطبع طيلة تأتآتنا التي لا تنتهى ؟ إنني قد يئست من سماع هذه الكلمات الأخيرة التي لو أمكن النطق بها لكان

لها رنين يهز السموات والأرض معاً : إن الوقت لا يتسع أمامنا أبداً لكى نقول كلمتنا الأخيرة ، كلمتنا الأخيرة فى حبنا ؛ فى حنيننا ، فى إيماننا ؛ فى تأنيب ضميرنا ؛ فى خضوعنا ؛ فى ثورتنا . فالسموات والأرض لا يجب أن تهتز وعلى الأقل ، فلا يجب أن يحدث ذلك عن طريقنا نحن الذين نعرف الكثير من الحقائق عن كلتيهما . وستكون كلماتى الأخيرة عن جيم قليلة . إنني أؤكد لكم أنه قد وصل إلى المجد ؛ ولكني أخشى أن تفقد هذه القصة الكثير من رونقها فى الرواية ، أو فى الاستماع بمعنى أصح . والصراحة هى أنى لا أخشى من قصور كلماتى عن التعبير ولكني أخشى من عقولكم فانى أعرف كيف أكون فصيحاً لولا خوفى أيها الرجال من أن تكونوا قد أجعتم خيالكم كى تطعموا أجسادكم . وإنى لا أقصد بالطبع الإساءة إليكم . فلعله أدعى إلى الاحترام ألا يكون عند المرء أوهام ؛ وهو أدعى إلى الربح ، والأمن ، والملل أيضاً . ولكنكم أيضاً فى زمانكم لا بد أن تكونوا قد عرفتم الإحساس الشديد بالحياة ؛ ولا بد أن تكونوا قد عرفتم تلك الهالة التي تحيط بالمجد وهى تظهر وسط هزة الأحداث الصغيرة وتدهشنا كما يدهشنا اشتعال الشرر وهو يتولد من الحجر البارد . ويا للأسف ! إنها عادة تكون فى قصر عمر ذلك الشرر » .

الفصل الثانى والعشرون

إن الانتصار على العقبات فى عالم الحب وفى ميدان الشرف وفى كسب ثقة الناس ، وما يتلو ذلك من إحساس الكبرياء بهذا الانتصار ، ومن القوة التى تصحبه ، لهى عناصر صالحة لقصة من قصص البطولة : ومايؤثر فى عقولنا عادة هو المظاهر الخارجية لمثل هذا النجاح ولكن نجاح جيم لم يكن فيه شىء من تلك المظاهر الخارجية. فثلاثون ميلا من الغابات كانت تحجبه تماماً عن أنظار عالم غير مكترث: وكانت أصوات الصيت والشهرة تضيع فى ضجيج الأمواج المحملة بالزبد الأبيض على طول الساحل . فكأنما كان تيار المدنية قد تفرع في بقعة مرتفعة من الأرض على مسافة مائة ميل من شمال باتوزان. كان قد تفرع إلى فرعين ؛ أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الشمال الشرقى ، تاركاً سهولها وأوديتها وأشجارها القديمة وسكانها القدماء فى حالة يرثى لها من الإهمال والعزلة . وكأنها جزيرة صغيرة متداعية لا وزن لها بين الرافدين لهذا المجرى العظيم الذى يجرف أمامه كل ما يقف فى طريقه . وجدير بالذكر أنك غالباً ما تجد اسم هذه البلاد مذكوراً فى كتب الرحلات القديمة ، فلقد ذهب تجار القرن السابع عشر إلى هناك فى طلب الفلفل، لأن الغرام بالفلفل كان يشتعل كجذوة حية

عظيم تحرق صدور الهولنديين والانجليز أيام حكم الملك جيمس الأول.
فلم يكن هناك مكان لم يذهبوا إليه طلباً للفافل. ومن أجل كيس واحد
من الفلفل كان يذبح أحدهم الآخر دون تردد : وكانوا لا يعبأون
باللعنات الأبدية التي تصيب أرواحهم ، التي كانوا يحرصون فى
ميدان آخر على إعدادها للدخول فى ملكوت السموات . وكانت
تلك الرغبة العنيدة الغريبة تجعلهم يتحدون الموت فى مئات من
صوره الشتى كالبحار المجهولة، والأمراض الغريبة الكريهة، والجراح
والأسر ، والجوع ، والطاعون ، واليأس . وجعلهم ذلك عظماء !
نعم بحق السماء ! لقد جعلهم ذلك أبطالا ، ولكنها كانت بطولة
تستدر الرثاء لتمسكهم بالرغبة الشديدة فى هذه التجارة التي كان
يقتضيهم الموت فيها ثمنه الباهظ من حياة شبابهم وشيوخهم . وإنى
لأجد أنه يكاد يكون مستحيلا على أن أصدق ، أن مجرد الشراهة
وحدها تستطيع أن تولد عند الناس مثل هذا الإصرار على الوصول
إلى الهدف ، ومثل هذا الثبات الأعمى على الجهاد والتضحية فى
سبيله. والحق أن أولئك الذين غامروا بأشخاصهم وأرواحهم فى
سبيل ذلك . كانوا يخاطرون بكل ما يملكون فى سبيل جزاء ضئيل ؛
فلقد تركوا عظامهم تتحال فى ضوء الشمس على الشواطىء البعيدة كى
يغترف مواطنوهم الذين كانوا يعيشون فى أمان فى بلادهم من تلك
الثروة التي ماتوا بسببها : ويبدو هؤلاء أمام أعيننا نحن خلفاءهم الذين

كانت حياتهم أقل قسوة من حياة أجدادهم - فى صورة من صور العظمة - لا كرسل للتجارة ، ولكن كأداة لتحقيق مصير محتوم ، وهم يندفعون إلى المجهول [استجابة إلى صوت داخلى ، إلى حافز يسرى مع الدماء فى عروقهم ، إلى حلم من أحلام المستقبل . وكانوا مدهشين ، ولكنهم ، والحق يقال ، كانوا مستعدين لهذا الإدهاش . فسجلوه ، وهم راضون عن أنفسهم، فيما يتعرضون له من العذاب فى حالة البحار ، وفى عادات الأمم الغريبة ، وفى أمجاد الحكام المحاطين بوسائل الترف والبذخ .

وكانوا قدوجد وا فى باتوزان كثيراً من الفلفل، وتأثروا بما رأوا من مظاهر العظمة وجوانب الحكمة فى السلطان هناك . ولكن حدث أن انسحبت هذه البلاد ، بطريقة ما ، من مزوالة التجارة بعد قرن من الزمان من النشاط التجارى المتقطع . ولعل ذلك كان لأن الفلفل قد نضب معينه . وليكن السبب ما يكون ، فذلك لا يعنينا الآن ، فلقد زال المجد . وكان السلطان الحالى شاباً أبله له إبهامان فى يده اليسرى ، ودخل ضعيف غير ثابت ، ينتزعه انتزاعاً بوسائل العنف من السكان التعساء ، ثم يسرقه منه أعمامه العديدون .

ولقداستقيت هذه المعلومات بالطبع من شتاين . فهو الذى أعطانى أسماءهم ونبذة قصيرة عن حياة وصفات كل منهم . ولقد كان مليئاً بالمعلومات عن الولايات الوطنية كأنه تقرير رسمى ، ولكنه كان يمتاز على ذلك بكونه أكثر تسلية بما لا يقاس . وكان من واجبه

أن يعلم ، فلقد كانت له تجارة مع كثير من هذه الولايات ، وكانت شركته فى بعض النواحى - كباتوزان مثلا - هى الشركة الوحيدة التى تملك توكيلا فى هذه الأنحاء بتصريح خاص من السلطات الهولندية، ولقد كانت الحكومة تثق بحكمته وكتمه لأسرارها ، وكان من المفهوم أنه يتحمل كل نتائج مخاطراته على مسئوليته الخاصة ،وكان الرجال الذين يستخدمهم يفهمون ذلك أيضاً . ولكنه يظهر أنه كان يجعل هذه الخدمة تستحق متاعبها بالنسبة إليهم بما كان يجزله لهم من العطاء . وكان فى غاية الصراحة معى على مائدة الإفطار فى ذلك اليوم : إن الظروف العادية هناك على قدر ما يعلم (وكانت آخر الأخبار التى وصلته كما قال منذ ثلاثة عشر شهراً) لم يكن فيها أمان لا للحياة ولا للممتلكات.

فلقد كان فى باتوزان قوات يعادى بعضها البعض الآخر،وكانت إحدى هذه القوات تحت إمرة راجا الانج أسوأ أعمام السلطان ، وكان الحاكم على منطقة النهر الذى كان يبتز ويسرق ويطحن رجال الملايو من سكان هذه المنطقة إلى الحد الذى أوشك فيه أن يفنيهم ، وكان هؤلاء الرجال لا يملكون أية وسيلة للدفاع عن أنفسهم ، ولا حتى ما كان يمكنهم من الهجرة . فكما قال شتاين : « فأين المكان الذى كانوا يستطيعون أن يذهبوا إليه ، ثم أنى لهم بالوسائل التى كانت تمكنهم من الهرب ؟ » ومما لا شك فيه أنهم كانوا لا يرغبون حتى فى

الحرب. فبالنسبة إليهم كانت الدنيا «وهى محاطة بجبال عالية لا يمكن اختراقها» قد ورثت إلى السادة من ذوى النسب الرفيع. وكان ذلك الراجا كما تعلمون ينتمى إلى الأسرة الملكية التي تحكم هذه البلاد، ولقد حدث لى بعد ذلك شرف مقابلة هذا السيد، وكان رجلا عجوزاً مستهلكاً، قذراً، ضئيل الجسم، بعينين شريرتين، وفم ضعيف يبتلع قطعة من الأفيون كل ساعتين: وكان تحدياً منه لما يمليه الذوق السليم والآداب العامة يترك شعره دون غطاء لكى يسقط حول وجهه القذر المتجعد فى خصلة من الخيوط النافرة كشعر الوحوش. وحين يحضر أحد ليتشرف بمقابلته السنية، فإنه كان يجر قدميه كى يتسلق نوعا من المسرح الضيق، أقيم فى قاعة كأنها أحد مخازن المزارع الخربة، لها أرضية عفنة من خشب البامبو، تلمح من خلال الشروخ التي فيها على مسافة تتراوح بين اثنتي عشرة وخمس عشرة قدماً، أكواماً من القاذورات والفضلات من جميع الأنواع ملقاة تحت البيت. وذلك هو المكان وتلك هى الكيفية التى قابلنا بها حين ذهبت مع جيم لأزوره طبقا للرسميات. وكان فى الغرفة حينئذ ما يقرب من الأربعين شخصاً، وربما كان هناك ثلاثة أضعاف هؤلاء يجلسون فى الفناء السفلى للدار، وكانت حركة مستمرة من المجىء والرواح والدفع، والهمس وراء ظهورنا، وكان من هؤلاء بضعة فتيان فى حللهم الحريرية الزاهية، يحدقون فينا بأنظارهم على البعد. أما

غالبية الحضور فكانوا من العبيد والأتباع المساكين ، وهم أنصاف عراة فى سراويلهم المهلهلة القذرة التي يغطيها الرماد وبقع الطين . ولم أر فى حياتى جيم ، كما ظهر هناك على هذه الصورة من الجد والثقة بالنفس التي تحجب ما يدور بخلده من أفكار وتؤثر تأثيراً بليغاً فى نفوس من حوله . ووسط هؤلاء الرجال السمر ، كان جسده القوى فى حلته البيضاء ، وخصل الشعر الشقراء اللامعة على رأسه ، يبدو وكأنه يجذب كل ما كان يتسلل من ضوء الشمس من خلال الشروخ فى الشراعات المقفلة لتلك الغرفة ، التي كادت أن تكون مظلة بحوائطها المصنوعة من الحصير وسقفها المصنوع من الجريد . فكان يبدو حينئذ كمخلوق لا ينتمى فقط إلى جنس آخر ، بل وكأنه مصنوع من مادة أخرى أيضاً . فلو لم يكونوا قد رأوه يصل إليهم فى أحد القوارب لظنوا أنه قد هبط عليهم من السحاب . ولكنه ، على أية حال ، كان قد حضر إليهم فى أحد تلك القوارب الغريبة التركيب وهو يجلس على صندوق من الصفيح ، كنت قد أقرضته إياه . وكان يجلس جامداً دون حراك وقد التصقت ركبتاه خوفاً من أن ينقلب به ذلك القارب ، وهو يضع فى حجره مسدساً من النوع الذى يستعمل فى البحرية كنت قد أهديته إليه عند فراقنا ؛ وقد قرر أن يحمل المسدس بسبب تدخل العناية الألهية ، أو بسبب إحدى تلك الأفكار غير السليمة التي كانت تعن له دائماً ، أو لمجرد إحساس صادق من

غريزته، خالياً من الرصاص. وكانت هذه هى الكيفية التي سار بها فى باتوزان ضد التيار. فلم تكن هناك صورة أقل شاعرية وأكثر خطراً، أو أقل تدبيراً، أو أكثر وحدة — من هذه الطريقة. وكان من الغريب أن قدره كان يدمغ كل أفعاله بطابع الهرب، بذلك الفرار الذى يتسم بعدم التفكير والاستجابة لخاطر اللحظة، بطابع تلك القفزة إلى عالم الغيب :

وإن ما يؤثر فى نفسى بالذات. من ذلك الحادث، هو ما يتسم به من عدم التدبير والاتكال فيه على مجرد الصدفة المطلقة دون الاعتماد على خطة أو تنظيم معين. فلم يكن لدى، ولا لدى شتاين، أية فكرة محدودة عما يمكن أن تكون عليه الصورة فى الجانب الآخر من الحائط حين أمسكنا به مجازاً، ورفعناه ثم ألقينا به من فوق هذه الحائط دون أن نلقى بالا إلا إلى واجبات اللياقة، أو الالتزام بمعاملته معاملة خاصة تدل على الاحترام والتقدير. وفى هذه اللحظة لم أكن أرغب فى شىء آخر غير اختفائه، ولكن شتاين، كما كان ينتظر من طبيعته، كان لديه حافز عاطفى. فلقد كانت لديه فكرة فى أن يفى بدينه القديم «عيناً، كما أعتقد» الذى لم ينسه قط. والحق أنه كان طيلة حياته يبدى صداقته بوجه خاص لكل من جاء من الجزر البريطانية. وصحيح أن الرجل الذى كان قد طوقه بمعروفه كان استكاندياً إلى التفصيل الأخير حتى فى اسمه الاستكاندى ماكنيل، وأن جيم قد جاء من

مسافة بعيدة جنوب نهر « تويد » فى إستكلندا، إلا أنه من مسافة ستة أو سبعة آلاف ميل، فإن بريطانيا العظمى ولو أنها لاتنقص أبداً فى رقعتها تبدو صغيرة حتى لبنيها إلى درجة تسلب هذه التفاصيل أهميتها. وعلى هذا فقد كان لشتاين عذره وكانت نياته كريمة إلى حد أنني رجوته بإلحاح شديد أن يخفيها لفترة من الزمان؛ فلقد شعرت أنه لا يجب أن يسمح لأى اعتبار يتعلق بامتياز شخصى يؤثر فى جيم؛ بل شعـــرت بأنه يجب ألا نأخذ حتى المخاطرة بذلك التأثير. فلقد كان أمامنا حقيقة من نوع آخر لبحثها واتخاذ قرار بشأنها؛ فلقد كان يريد ملجأ يهرب إليه؛ كان علينا أن نعرض عليه هذا الملجأ محفوفاً بالأخطار؛ ولا شيء غير ذلك.

وفيما عدا هذا الجانب كنت صريحاً معه إلى أقصى الحدود؛ حتى أنني بالغت، كما اعتقدت فى ذلك الوقت، فى مدى الأخطار التي سيتعرض لها فى المشروع: ولكنني كما ظهر فيما بعد لم أكن قد وفيت هذه الأخطار حقها من الجسامة: فإن يومه الأول فى باتوزان كاد أن يكون يومه الأخير أيضاً، بل كاد يكون يومه الأخير يقيناً لو لم يكن على تلك الدرجة من عدم الحرص على حياته؛ أو لو لم يكن فى تلك القسوة على نفسه وتنازل بتعبئة مسدسه بالرصاص. وإني لأتذكر وأنا أقص عليه تفاصيل خطتنا لانسحابه كيف تحول استسلامه العنيد المتعب تدريجياً لتحل محله الدهشة والعجب والاهتمام وحماسة الشباب. فجعل يقول إن هذه هى الفرصة التي كان يحلم بها.

وإنه لا يستطيع أن يفكر كيف استحق ... وإنه ليستحق الإعدام إن كان يستطيع أن يعرف ما جعله موضع ذلك ... وإنه كان شتاين — شتاين التاجر الذى ... ولكنه كان بالطبع أنا الذى ... فأوقفته عن الكلام فلم يكن الكلام يسيراً على لسانه : وكان عرفانه بالجميل يسبب لى ألماً لا أستطيع وصفه : وقلت له إنه إن كان مديناً بهذه الفرصة لأحد من الناس بالذات فهو مدين لرجل اسكتلندى عجوز لم يسمع به من قبل : ولقد مات ذلك الرجل منذ سنوات عديدة ولا يذكر أحد شيئا عنه غير صوته الجهورى ؛ وأمانته التي كانت من النوع الخشن . والحقيقة أنه لا يوجد الشخص الذى من حقه أن يصغى إلى شكره لأن شتاين كان يمرر بدوره إلى شاب صغير ماحصل عليه من العون فى شبابه . أما أنا فلم أفعل شيئاً أكثر من ذكر اسمه . احمر وجهه حين سمع ذلك ؛ وقال فى خجل وهو يضغط فى يده قطعة من الورق : إنني كنت دائما أوليه ثقتي .

فاعترفت له بأن ذلك صحيح ؛ وأضفت بعد فترة سكون انني كنت أتمني لو حذا حذوى ووثق فى نفسه فسألني فى اضطراب : « أتظن أنني لا أفعل ذلك ؟ » ثم أضاف فيما يشبه الهمس « إن المرء يجب أن يظهر بعض النجاح أولا » ثم ابتسم وقال بصوت عال فى صورة احتجاج « إنه لن يجعلني أندم أبداً على هذه الثقة التي ... »

فقاطعته قائلا — « لا تسيء الفهم — فإنه ليس فى قدرتك أن تجعلني أندم على شيء » .

ولن يكون هناك ندم. ولكن إن حدث ذلك فسيكون ذلك شأني أنا وحدي، ومن جانب آخر كنت أريده أن يفهم في وضوح أن هذا الترتيب : هذه ... هذه التجربة كانت من صنعه، وأنه هو الذي كان مسئولا عنها ؛ وليس أي رجل آخر ... فأخذ يتأتيء: لماذا ؟ إن هذا هو الشيء بعينه الذي كنت ..» فرجوته ألا يكون بطيء الفهم. فظهرت عليه دلائل الحيرة الشديدة وكأنه في طريقه إلى رؤية حياة غير محتملة بالنسبة إليه — ... وقال في اضطراب: «أتظن ذلك ؟» ولكنه أضاف في ثقة قائلا، «لقد استمررت في تحملي هذه الحياة على كل حال، وكنت أؤدي واجبي فيها . أليس كذلك ؟ » وكان من المستحيل أن يغضب المرء منه . ولم أستطع أن أخفي ابتسامة، وقلت له إن من كان يسير على طريقته في الماضي؛ كان ينتهي به الحال إلى أن يصير واحداً من أولئك الزهاد الذين يعيشون في البرية. فأجاب في سرعة وانفعال محبب : « إلى الجحيم بأولئك الزهاد . .

ثم أضاف إنه بالطبع مستعد للمعيشة في أي برية ... فقلت له : « إنني مسرور من ذلك » ثم أخبرته أن ذلك هو المكان الذي سيذهب إليه . وتجرأت على إعطائه وعداً بأنه سيجده مليئاً بالحركة والحياة بما فيه الكفاية . فقال بتشوق ؛ « نعم : نعم » . واستمررت في الحديث إليه وأنا ثابت على موقفي لا أتحول عنه ؛ وأخبرته أنه قد أبدى رغبته في الذهاب إلى ذلك المكان المعزول ؛

وقفل الباب وراءه بشدة ... فقاطعني فى حزن عجيب ؛ بدا وكأنه يحيط به من رأسه إلى قدميه كظل سحابة تمر ؛ قائلا ؛ «هل بدت مني هذه الرغبة ؟» ورأيت فيه معبراً بليغاً عن شعوره رغما من كل شيء ، وكرر فى مرارة قوله : «هل صحيح أنني أبديت هذه الرغبة ؟ إنك على كل حال لا تستطيع أن تقول إنى قد أحدثت ضجيجاً عالياً حول ذلك ، ثم إنى أستطيع أيضاً أن أستمر فى حياتى كما هى . ولكن يااللعنة . إنك ترينى الآن الباب . .» فقلت له مقاطعا : «حسن ... ادخل من الباب إذن » واستطعت أن أعطيه وعداً أكيداً بأن ذلك الباب سيقفل وراءه بعنف ؛ وأن مصيره أياً كان ذلك المصير سوف لا يهتم به أحد . لأن هذه البلاد على مافيها من فوضى ؛ لا تعتبر السلطات بعد أن قد آن الأوان للتدخل فى شئونها . فعندما مايدخل إليها فسيكون بالنسبة إلى العالم الخارجى ، وكأنه لم يوجد قط . ولن يكون له غير قدميه ليقف عليهما . وسيكون عليه أيضاً ؛ إلى جانب ذلك أن يجد الأرض التي يقف عليها . فسمعته يهمس إلى نفسه قائلا : «لم يوجد قط ، إن ذلك ما أريده بحق السماء . » ولمعت عيناه وهو يحدق فى شفتي باهتمام شديد . فختمت حديثي معه بإخباره أنه إذا كان قد فهم الحالة جيداً ، فإنه يحسن به أن يقفز إلى أول عربة يراها ويذهب إلى بيت شتاين ليتسلم تعليماته الأخيرة . وإذا بى أراه يخرج من الغرفة قبل أن أتم حديثي .

الفصل الثالث والعشرون

ولم يرجع جيم إلى حتي اليوم التالى . فلقد أبقاه شتاين للعشاء ونام عنده فى تلك الليلة . وأخذ جيم يخبرنى عن الأثر الذى تركه شتاين فى نفسه . فقال إنه لم ير فى حياته شخصاً مدهشاً كشتاين . وكان فى جيبه خطاب لكورنيليوس (وفسر أن كورنيليوس هو الجونى الذى كان سيطرد من وظيفته . ولاحظت أن حماسته قد فترت بعض الشيء وهو يقول ذلك). ثم عرض على فى سرور خاتماً من الفضة ؛ من النوع الذى يستعماه الوطنيون . وكان ذلك الخاتم قد أصبح رقيقاً جداً من طول الاستعمال؛ وفيه آثار غير واضحة للحفر .

وكان ذلك بمثابة توصية عليه إلى رجل عجوز يدعى دورامين، وهو أحد الرجال ذوى النفوذ فى باتوزان . وكان صديقاً لشتاين فى تلك البلاد التي حدثت له فيها كل تلك المغامرات . وكان شتاين يسميه « أخاً فى السلاح » . وهى تسمية لذيذة . أليس كذلك ؟ أفلم يكن مستر شتاين يتحدث الإنجليزية بطلاقة ؟ وهو يقول إنه تعلمها فى سليبس من بين جميع الأماكن . إنه شيء مضحك ؛ أليس كذلك ؟ وهو يتكلم الإنجليزية بلكنة . ألاحظت ذلك ؟ .. وكان ذلك الرجل دورامين قد أعطاه هذا الخاتم ؛ لأنهما كانا قد تبادلا

الهدايا ، حين افترقا للمرة الأخيرة . وكان ذلك نوعاً من التعاهد على الصداقة الأبدية. وقال شتاين إن ذلك كان جميلا . أفلا أجـده أنا كذلك ؟ فلقد اضطرا أن يهربا بسرعة كي ينقذا حياتهما حين قتل محمد ، ولقد نسيت اسمه الآخر . وقال جيم إنني أعرف جميع القصة بالطبع .. وكانت حوادث مخزية بصورة يؤسف لها . أليس كذلك؟

واستمر يتحدث على هذا النمط . ونسي الطعام الذى أمامه وهو يمسك بشوكته وسكينه في يديه (فلقد كنت أتناول الغداء حين وجدني) وقد احمر وجهه قليلا وامتزجت عيناه الزرقاوان ببعض الظلال الداكنة وكان ذلك عنده دليلا على انفعاله . وكان الخاتم نوعاً من إثبات الشخصية . وقال جيم عنه في سرور ، « إنه كتلك الأشياء التي نقرأ عنها في الكتب ، التي ستجعل دورامين يفعل كل ما يستطيع من أجله وكان مسترشتاين قد أنقذ حياة ذلك الرجل في إحـدى المناسبات ، وكان ذلك مجرد صدفـة ، كما قال المسترشتاين . وإن كان جيم له رأيه الخاص في هذه المسألة . فإن مسترشتاين كان هو الرجل الذى يبحث عن مثل هذه الحوادث . وأياً كان الأمر ، وسواء أكان ما حدث بطريق الصدفة أم عن عمد ، فإن ذلك لا شك سيفيده كثيراً . وكان يرجو الله ألا يـكون ذلك الرجل العجوز المرح قد ودع الحياة في تلك الأثناء فإن مستر شتاين كان لا يستطيع أن يجزم

بذلك ،لأن أخبار باتوزان كانت قد انقطعت عنه منذ عام . ويظهر أنهم كانوا يثيرون هناك ضجة كبيرة وحروباً لا نهاية لها بينهم وبين أنفسهم ، وأن النهر كان مقفلا . ورغم أن ذلك كان شيئاً فيه الكثير من المضايقة إلا أنه لا داعى للخوف ، فسيحاول بأية طريقة من الطرق أن يجد منفذاً يستطيع الدخول منه .

ولقد أثر فى ، بل كاد يخيفني بهذه الثرثرة الحماسية التي كانت تنساب منه . فلقد كان فى حديثه الذى لا ينتهى كصبي صغير فى الأمسية التي تسبق عطلته الطويلة ، بكل ماتحمله من الأمل فى طياتها من مغامرات لذيذة . وهى طريقة للتفكير - فى رجل اكتمل نموه ، وخاصة فيما يتعلق بما هو مقدم عليه - كانت تثير العجب ، ولا تبعث على الاطمئنان ، بل هى طريقة خطيرة تكاد تتسم بالجنون . وكنت على وشك أن أرجوه أن يأخذ الأشياء مأخذ الجد ، وإذا به يسقط شوكته وسكينه من يديه (وكان قد بدأ يأكل ، أو بمعني أصح يبلع طعامه بطريقة آلية) ، ويبدأ فى البحث عن شيء حول طبقه . ويصيح «الخاتم! الخاتم ! أين ذهب بحق الشيطان . . آه ! هذا هو . .» وأطبق يده عليه . وأخذ يبحث فى جيوبه واحد بعد الآخر . وهو يتمتم قائلا «يالله !إنه يكون شيئاً فظيعاً لو فقدته .» ثم أخذ يفكر متأملا يده التي كان الخاتم فى قبضتها . وقال إنه سيعلقه حول رقبته ! وبدأ لتوه يفعل ذلك ، فأخرج قطعة من الخيط لهذا الغرض (وكان يظهر عليها

أنها رباط حذاء) وقال ، «حسن ! إن هذه الطريقة ستصونه من الضياع إنه سيكون فظيعاً . . » ويظهر أنه نظر إلى وجهي في هذه اللحظة للمرة الأولى . فجعله ذلك يمسك عن الثرثرة . وقال بجدية ساذجة ، «إنني على الأرجح لا أستطيع أن أقدر الأهمية التي يعلقها على هذا التذكار فهو يعني بالنسبة إليه أن له صديقاً ، ومن الخير أن يكون للإنسان صديق . فهو يعرف شيئاً عن ذلك » وأومأ إلى إيماءة معبرة، ولكني حين أشرت إليه إشارة تفيد أنه لا داعي للكلام في هذا الموضوع مال برأسه على يده وجاس لحظة في صمت وهو يداعب فتات العيش على المائدة ، وكأنه مستغرق في التفكير . . وإذا به يصيح ، « ثم يقفل الباب ورائي إنه تعبير جميل » وقفز بعد ذلك واقفاً وبدأ يروح ويغدو في الغرفة وهو يذكرني بوضع أكتافه ، وطريقة التفاته برأسه وخطواته السريعة غير المنتظمة — بتلك الليلة التي كان يذرع فيها غرفتي بهذه الطريقة ، وهو يعترف ويفسر ، أو سمه ما تشاء. ثم كان في اللحظة الأخيرة يعيش أمامي تحت سحابته الخاصة الصغيرة بكل ما كان فيه من دهاء «يشعر به مما جعله قادراً على أن يعتصر العزاء من نفس الينبوع الذي كان يفيض عليه بالحزن والأسى . إنها كانت نفس الحالة ، كانت نفس الحالة ولكن في صورة أخرى كرفيق متقلب لا يثبت على حال يرشدك اليوم إلى الطريق المستقيم بنفس العينين ونفس الخطوة ، ونفس الانفعال الذي يقودك به غداً بغير

أمل إلى طريق الضلال . وكانت خطوته مطمئنة ، وكانت عيناه بظلالهما السوداء تدوران فى أنحاء الغرفة كأنهما تبحثان عن شيء ، وخيل إلى أن وقع إحدى قدميه كان أعلى من وقع الأخرى ، ولعل ذلك كان بسبب عيب فى حذائه : وكان ذلك يعطى تأثيراً غريباً ، يوحى بفترات من التوقف فى مشية غير بادية للعيان .

وكانت إحـــدى يديه غائصة فى جيب سرواله بينما ارتفعت الثانية فجأة إلى مافوق رأسه؟ وقال بصوت عال ،«ثم يقفل الباب ! هذا هو ما كنت أنتظره. وسأريكم بعد ذلك ما أستطيع أن أفعله .. إنني مستعد الآن لكل طارىء ... لقد كنت أحلم بذلك... شكراً لله ، فإنى سأستطيع أن أترك هذه الحياة ،شكراً لله ! لقد واتانى الحظ أخيراً .. انظر وسترى ... أنني ... »

وهز رأسه علامة على عدم الخوف. وإنى للمرة الأولى والأخيرة لا لتقائنا أدركت دون علم سابق أنني بلغت الذروة من الشعور بالسأم منه والضيق به : وسألت نفسى لماذا كل هذا البخار الذى يتصاعد منه ؟ إنه كان يضرب الأرض بقدميه ، ويطوح بذراعيـه بشكل مضحك ، ثم يتحسس صدره بحثاً عن الخاتم تحت ملابسه وهو يذرع الحجرة جيئة وذهاباً . فما معني هذه النشوة لرجل عين كاتباً فى محل تجارة ، وفى مكان ليس به تجارة زيادة على ذلك ؟ لماذا يعلن تحديه فى وجه العالم ؟ إن تلك الطريقة فى التفكير لم تكن

هى الطريقة المثلى للإقدام على أى عمل . وقلت إن تلك الطريقة خاطئة ، لا بالنسبة إليه فقط ولكن بالنسبة لأى رجل آخر. فوقف جامداً يشرف على ، وسألني إن كنت أظن ذلك، غير متأثر بكلامى وعلى فمه ابتسامة لاحظت فيها معني الاستخفاف . ولكني أكبره بعشرين عاماً ، والشباب من عادته الاستخفاف ، وعدم احترام آراء الكبار . فذلك حقه وتلك ضرورته . فلابد أن يثبت وجوده ويؤكد ذاته . وفى كل تأكيد للذات فى هذه الدنيا المليئة بالشكوك نوع من التحدى والاستخفاف . ثم ذهب إلى أقصى ركن فى الغرفة وحين رجع إلى رأيت أنه قد صحت نيته على تمزيق ، مجازاً . فقال إني تحدثت إليه بهذه اللهجة لأني حتى أنا الذى أبديت نحوه كل هذا الكرم فى المعاملة، حتي أنا كنت أتذكر ذلك الحادث وأسجله عليه . ثم ماذا كان يفعل الآخرون ؟ ماذا كان رأى الدنيا بأسرها بالنسبة إليه ؟ وأى سبب للعجب فى أنه كان يريـــد أن يهرب ، وينوى أن يهرب . وينوى أن يظل بعيداً بحق السماء ! وبعد ذلك أتكلم عن الطرق المثلى وما يجب وما لا يجب !

فصحت فيه قائلا « إنه ليس أنا ولا الدنيا هى التى تتذكر . إنه أنت ... أنت فقط الذى لا تستطيع أن تنسى » .

فلم ترمش له عين واستمر وهو يتحدث فى حرارةِ قائلا . « إنني

سأنسى كل شيء — سأنسى كل إنسان... ثم خفض صوته وأضاف «كل إنسان ... إلا أنت».

فقلت له فى صوت خفيض أيضاً : « بل وانسنى أيضاً إذا كان ذلك يفيدك » وبعد ذلك ظللنا صامتين مسترخيين لفترة من الزمان، وكأن قوانا قد خارت . وبعد ذلك استأنف حديثه فى هدوء وقال لى إن مستر شتاين قد أخبره أن ينتظر شهراً أو ما يقرب من ذلك ، حتى يتأكد أنه سيستطيع البقاء ، قبل أن يبدأ فى بناء بيت جديد له ، إذ لاداعى للنفقات الهالكة .وقال جيم إن شتاين كان دائماً يستعمل تعبيرات مضحكة مثل « النفقات الهالكة »...ثم عما قاله فيما يتعلق باستطاعته البقاء . فلماذا قال ذلك ! إن من المؤكد أنه سيبقى هناك. إن كل مايحتاج إليه هو الدخول إلى ذلك المكان ، وبعد ذلك فهو المسئول عن البقاء فيه وعدم مغادرته أبدا. وهو يجد أن من السهل عليه أن يبقى . فقلت له وقد شعرت بشيء من عدم الراحة لما كان فى لهجته من التهديد : « لا تكن أبله ، فإنه إذا كتب لك طول البقاء ، فلا شك أنك سترغب فى العودة » .

فسألني ، وهو كالغائب ، وعيناه مثبتتان على وجه الحائط : « العوده إلى ماذا ؟ » فسكت لحظة وقلت : « إذن فأنت تنوى ألا تعود أبداً » . فقال وكأنه يحلم ، ودون أن ينظر إلى : « أبداً » . ثم نشط نشاطاً مفاجئاً وقال : « بالله لقد بلغت الثانية وموعد رحيلى

هو الرابعة » : وكان ذلك صحيحاً ، فقــد كانت إحدى المراكب الشراعية التى يملكها شتاين ، ستغادر الميناء عصر ذلك اليوم ، فى طريقها إلى الغرب ، وكانت تعليمات جيم تقضى بأن يبحر عليها . ولكن أحداً لم يصدر أوامره بتأجيل موعد قيام هذه المركب : ولعل شتاين كان قد نسى ذلك .

ولذلك فقد أسرع جيم بالذهاب ليحضر حوائجه ، بينما ذهبت أنا إلى سفينتي ، حيث وعد أن يمر على فى طريقــه إلى الميناء الخارجى . ولقد مر على فعلا بعد ذلك وهو فى عجلة شديدة من أمره ، وفى يده حقيبة صغيرة من الجلد : فقلت له إن هــذه الحقيبة لن تنفعه، وأعطيته من عندى صندوقاً من الصفيح من المفروض ألا ينفذ إليه المــاء ، أو على الأقل ألا تنفذ إليه الرطوبة . ونقل حاجياته إلى ذلك الصندوق بطريقة بسيطة،وهى تفريغ دافى حقيبته فيه ، كما تفرغ كيساً من الدقيق . فرأيت ثلاثة كتب تسقط فى هذه العملية. اثنين منها من الحجم الصغير مغلفين بغلاف داكن اللون،أما الثالث فكان مجلداً من الحجم الكبير فى غلاف أخضر ذهبى يضم أعمال شكسبير جميعاً فى الطبعة التى تباع بشلنين و نصف، فسألته «أتقرأ ذلك؟»وأجاب فى عجلة « نعم إنه خير شيء يرفه عن المرء ».ودهشت لغرامه هذا بشكسبير ، ولكن لم يكن هناك وقت للحديث معه عن ذلك الشاعر العظيم .
وكان على مائدة صغيرة فى غرفتي مسدس ثقيل وصندوقان صغيران

مليئان بالرصاص فقلت له : «أرجوك أن تأخذ معك هذه الأشياء ، فستساعدك على البقاء في باتوزان » .

وحالما خرجت هذه الكلمات من فى ، أدركت ما قد تحمل من المعانى المنفرة بما سيتهدده هناك . فدفعنى تأنيب الضمير إلى محاولة إصلاح عبارتى بقولى، إنها ربما تساعدك على الدخول إلى هناك، ولكنه على كل حال لم يشغل باله بالمعانى الغامضة . وشكرنى شكراً جزيلا ، ثم انطلق مسرعاً للخارج ، وهو يلقى إلى بكلمات الوداع من فوق كتفيه . وسمعته من جانب السفينة وهو يصرخ فى رجال قاربه كى يفسحوا له الطريق . وحين نظرت من النافذة فى الجزء الخلفى من السفينة رأيته تحت مؤخرة السفينة يدور بقاربه حولها . وكان يجلس فى القارب ، مائلا بجسمه إلى الأمام وهو يحث رجاله بالصوت والإشارة على الإسراع ، وبما أنه كان يمسك بالمسدس فى يده ، وهو يكاد يكون مصوباً إلى رءوسهم ، فإنى لن أنسى مظهر الرعب الذى كان على وجوه رجاله الأربعة الذين كانوا من «جاوة » ، ولن أنسى ضربات أيديهم المحمومة وهم يجدفون ، التى جعلت المنظر يختفى سريعاً من أمامى . وحين أدرت رأسى كان صندوقا الرصاص أول ما وقع نظرى عليه ، كانا لا يزالان فى مكانهما على المائدة فلقد نسى أن يأخذهما معه .

فأمرت بإعداد قاربى توا . ولكن الرجال الذين كانوا يجدفون

فى قارب جيم ، وقد صور لهم أن حياتهم كانت معلقة بخيط رفيع مادام ذلك المجنون معهم فى القارب — كانوا يتقدمون فى سيرهم بسرعة مذهلة ، إلى حد أننى قبل أن أصل إلى نصف المسافة بين السفينتين رأيت جيم يتسلق إلى ما فوق حاجز المركب ، وصندوقه فى طريقه إليه . وكانت قلوع المركب مسترخية ، وشراعها الرئيسى على أهبة الاستعداد وسمعت صوت البكرة التى تلف حولها الكابلات التى تحرك الشراع — وقد بدأ تشغيلها حين وصلت إلى السطح . وحضر إلى ربانها،وعلى فمه ابتسامة تنبىء عن الرضى بالنفس إلى حد الغرور ، وكان رجلا ضئيل الجسم فى حوالى الأربعين من سلالة مولده ، وكان يبدو متأنقاً فى حلته المصنوعة من قماش « الفانلة »، وله عينان مليئتان بالحيوية ؛ ووجه مستدير فى لون الليمون ؛ وشارب أسود يتدلى فى كل جانب من جانبيه على شفاهه السميكة الداكنة اللون . ولكنه رغما عن مظهره الخارجى المرح ، وما كان يحمله من علامات الرضى بالنفس فاقد تبين لى أنه كان من ذوى الطبائع المثقلة بالهموم . ففى جوابه على أحـــد أسئلتى (وكان جيم قد غادرنا لحظة ، للذهاب إلى السطح السفلى للمركب) قال « آه نعم باتوزان » إنه سيوصل هذا السيد إلى مصب النهر ، ولكنه « لن يرتفع بعد ذلك أبداً » . وكانت لغته الإنجليزية التي كان ينطلق فى الحديث بها ، تبدو وكأن كلماتها قد اقتبست من قاموس جمعه رجل مجنون. واستمر يتحدث بهذه الإنجليزية العجيبة وهو يقول إنه إن صمم مستر شتاين على أن يجعله « يرتفع

فإنه - « بإجلال شديد» - (أظن أنه كان يقصد أن يقول باحترام - وإن كان الشيطان نفسه فقط هو الذى يعلم ما كان يريد أن يقول) « سيقدم أشياء تتعلق بحماية الممتكات »وإذا حاولنا أن نترجم أقواله إلى اللغة المفهومة بعد ذلك ، فقد قصد أن يقول إنه كان سيمتنع عن السير فى النهر بسبب حالة البلاد ، التى كان لا أمان معها على حياة الناس أو ممتلكاتهم . وأنه إن لم يقتنع مستر شتاين فإنه سيقدم استقالته؛ وأنه كان منذ عام تقريبا قد قام برحلته الأخيرة إلى هذه البلاد ، وأنه رغماً عما قدمه مستر كورنيليوس من عروض مغرية إلى الراجا ألانج وغيره من ذوى النفوذ بشروط جعلت التجارة مع هذه البلاد صفقة خاسرة ، فإن إطلاق الناركان لا ينقطع على المركب من الغابات من جماعات غير مسئولة، طيلة مسيرها فى النهر - الشىء الذى جعل بحارته يظلون مختفين خوفاً من تعريض أنفسهم للهلاك. وكان من جراء ذلك أن جنحت المركب على الشاطىء الرملى، وكاد يكون إنقاذها مستحيلا .

وظهر على وجهه العريض الساذج دلائل الصراع بين كبريائه لطلاقة لسانه التى كان يلقى إليها أذناً صاغية،وبين اشمئزازه الغاضب من ذكراه لهـذا الحادث : فكان يقطب ، ويبتسم لى وهو يرقب بنفس راضية تأثير فصاحته الذى لا ينكر على وجهى . . . وبدأت الأمواج الصغيرة تعكر صفو البحر الهادىء، وبدت المركب وكأنها فى

حيرة بين هذه الأمواج التى كانت تشبه مخالب القطط؛ وقد نشرت شراعها الأمامى ، بينما كان صاريها الرئيسى فى الوسط . واستمر الربان فى حديثه وهو يضغط على أسنانه ليقول لى إن هذا الراجا كان ضبعاً يثير الضحك . (ولا أستطيع أن أتصور كيف استطاع الحصول على هذه الكلمة) . على حين كان غيره أفظع من التماسيح... بينما كان يراقب حركات بحارته بطرف عينه ، كان يترك العنان لفصاحته مقارناً المكان ، بقفص للوحوش استشروا بسبب بعدهم عن الرقابة ، وقال إنه لا نية لديه فى « تعريض نفسه للسرقة مع سبق الإصرار والعمد . » وكانت صيحات الرجال المستطيلة ؛ وهم يرفعون المرساة قد اختفت الآن ، فخفض من صوته ، وهو يختم حديثه ويقول فى شىء من الحماسة « إن ماحدث لى فى باتوزان كان فيه الكفاية ، وما فوق الكفاية » .

ولقد سمعت بعد ذلك أنه كان قد أبدى من الحماقة هناك ماجعلهم يربطونه بحبل من الليف من رقبته إلى عمود أقاموه وسط حفرة من الطين أمام بيت الراجا .. وقضى الجزء الكبير من يومه وليلة بأكملها فى ذلك الوضع الحرج ، ولكن هناك مايكفى من الأسباب التي تحمل على الاعتقاد بأن الحادث لم يكن يقصد منه غير المزاح . ثم وقف لحظة وهو يستعيد فى مخيلته ذكرى ذلك الحادث الفظيع على ما أظن قبل أن يوجه حديثه فى شىء من المشاكسة إلى الرجل الذى كان

يتجه نحو الدفة فى مؤخرة السفينة ، وحين التفت إلى مرة أخرى كان حديثه متزناً لا انفعال فيه . فقال إنه سيأخذ هذا السيد معه حتى مصب النهر عند « باتوكرينج ». وقال « إن مدينة باتوزان هى على بعد ثلاثين ميلا إلى الداخل » وفى اعتقاده ، وقد حلت محل لهجته السابقة المنطلقة ، لهجة أخرى من الإقتناع المتعب الملول إن هذا السيد قد أصبح منذ الآن « فى حكم الجثة الهامدة » . فسألته « ماذا ؟ ماذا تقول ؟ » فظهرت على هيئته صورة من الوحشية المزعجة ، وقلد تقليداً متقناً جداً تمثيل اغتيال رجل من الوراء، وفسر ذلك قائلا : « إنه يعتبر من الآن جثة هامدة »: وقد ظهر على وجهه ذلك التعبير الذى لا يحتمل ، لغرورمن على شاكلته حين يعتقدون أنهم قد أظهروا عرضا لمهارتهم الفائقة . ووراءه رأيت جيم وهو يبتسم رافعاً يده كى يوقف صيحة الدهشة على شفتى .

وبعد ذلك ، بينما كان ذلك الرجل المولد ، وهو يكاد ينفجر زهواً بأهميته ، يصرخ ملقياً أوامره ، وبينما كانت أعمدة الشراع يجرى تحريكها فى صرير مسموع ، والصارى الرئيسى ينشر شراعه فوقنا ، إذا بجيم وأنا نجد أنفسنا منفردين فى الجانب الخلفى من الشراع الرئيسى . فتصافحنا وكل منا يضغط بشدة على يد الآخر ، وتبادلنا كلمات الوداع الأخيرة على عجل . وشعرت حينئذ ، كأنى قد تحررت من الشعور الكامن بعدم الرضى عن سلوكه ، الذى كنت

أحس به دائماً ، وهو يسير جنباً الى جنب مع اهتمامى بمصيره . فلقد جسمت ثرثرة هذا المولد التى لا معنى لهـا حقيقة المخاطرة التعسة التى كانت على طريق جيم ، أكثر مما فعلت عبارات شتاين المنتقاة. ففى تلك المناسبة اختفى من حديثنا ذلك النوع من الكلفة الذى كنا نحس دائماً بوجوده بيننا كلما التقينا . فأعتقد أننى ناديته « بولدى العزيز » وأنه ألحق كلمتى ؛ « الرجل العجوز » بعبارة لم يكملها كعادته من تلك العبارات التى أراد أن يعرب بها عن عرفانه بالجميل. كما لو كنا قد وضعنا الخطر الذى ينتظره فى إحدى كفتى الميزان ، ووازناه بسنى عمرى فى الكفة الأخرى . فجعلنا ذلك أكثر تقارباً فى العمر وفى الشعور . وكانت لحظة شعر فيها كل منا بصلة حقيقية تشد أحدنا إلى الآخر . وكأنما كانت ومضة ضوء خاطفة كشفت لنـا عن ناحية من نواحى ذلك الصدق الأبدى الذى يطهر النفس. ثم أخذ يجهد نفسه كى يهدىء من روعى وكأنما كان هو الرجل الذى كان أكثرنا نضجاً ، فقال بسرعة وفى لهجة معبأة بالشعور الفياض « حسن ، حسن ، إنى أعدك بأننى سأحرص على نفسى ، وسأتجنب المخاطر ، جملة وتفصيلا . وهذا طبيعى فإننى أنوى أن أعيش . ولا داعى لقلقك مطلقاً . وبحق السماء ، إنني لأشعر أن شيئاً لا يمكن أن يمسنى . فلقد بدأ حظى مع كلمة « اذهب » . ولا يمكن أن أفسد على نفسى فرصة عظيمة كهذه ! » ... فرصة عظيمة ! » إنها كانت فرصة ، ولكن الفرص هى ما يصنعه الرجال منها ، من أين لى أن أعلم ما الذى سيصنعه جيم

من هـــذه الفرصة ؟ فحتى أنا . كما قال من قبل ، حتى أنا كنت لا أزال أتذكر ... حظه العاثر وأسجله عليه: إن ما قاله كان صحيحاً ، ولقد كان من الخير له أن يذهب .

وكانت المسافة تتسع بيني وبين المركب التي تتقدمني ، ورأيته يقف وحيداً فى المؤخرة فى ضوء الشمس التى كانت تتجه غرباً ،وهو يرفع قبعته عالية فوق رأسه. وسمعت صرخته غير واضحة وهو يقول، « إنك ستستمع عنى ... عني أو مني،فلم أتبين أيهما نطق بها : ولكني أظن أنها لابـــد كانت « عني » . وكانت عيناى مبهورتين بضوء الشمس المنعكس على مياه البحر تحت أقدامى ، فلم أستطع أن أرى بوضوح . ولعله القدر،هوالذى كان يمنعني دائماً من أن أراه بوضوح، ولكني أستطيع أن أؤكد لـكم أنه لم يكن هناك إنسان أقل شبهاً « بجثة هامدة » من جيم فى تلك اللحظة ، كما وصفه ذلك المولد من غربان البين . ثم استطعت أن أرى وجه ذلك الرجل التعس الضئيل، فى شكل ولون القرعة الناضجة ،محشوراً فى مكان ما تحت مرفق جيم . ولقد رفع ذراعه هو الآخر كما لو كان ينوى أن يهوى به على أحد. اللهم إنى أسألك ألا تحقق مخاوفى !.!.

الفصل الرابع والعشرون

وساحل باتوزان (وقد رأيته بعد حوالى عامين من هذه الحوادث) هو ساحل مستقيم ومقبض للنفس ، ويطل على محيط غائم بالضباب ، وترى فيه شعباً حمراء كشلالات من الصدأ تجرى تحت الأوراق الخضراء الداكنة للشجيرات والنباتات المتسلقة ، التي تكسو الصخور المنخفضة . وتتكشف فيه السهول المليئة بالمستنقعات عند مصاب الأنهار عن منظر قمم الجبال الزرقاء المدببة خلف الغابات الواسعة . وفى آخر مجال البصر يرى الإنسان فى البحر سلسلة من الجزر سوداء اللون ، ذوات أشكال غير منتظمة قابعة تحت هذه الغمامة الأبدية المشحونة بضوء الشمس ، وكأنها أنقاض حائط اخترقته مياه البحر .

وهناك قرية للصيادين عند مصب فرع باتوكرينج ؛ وكان النهر الذى كان مقفلا منذ مدة طويلة قد فتح عند زيارتى . فسار فيه قارب شتاين الصغير الذى كنت أستقله حينئذ واجتاز فى طريقه ضد التيار ثلاث موجات من المد دون أن يتعرض لغارات « الجماعات غير المسئولة » فتلك الحالة التي كانت عليها البلاد قد صارت الآن فى ذمة التاريخ : إن صدقت ما رواه لى الرجل العجوز الذى كان على رأس

قرية الصيادين ، وكان قد حضر معى كمرشد ، وكان يتحدث معى (وكنت الرجل الأبيض الثانى الذى رآه فى حياته) فى ثقة ، وكان معظم حديثه عن الرجل الأبيض الأول الذى رآه فى حياته ، وكان يسميه «توان جيم» ، وكانت لهجته وهو يشير إليه جديرة بالملاحظة بما كان فيها من خليط بين الألفة والرهبة ، وكانوا فى القرية تحت حماية ذلك «اللورد» الخاصة ، ومعني ذلك أن جيم كان صديقا لهم . وإذا كان جيم قد تنبأ من قبل بأنني سأسمع عنه ، فقد صحت نبوءته لأنني كنت أسمع عنه الآن . وكانت هناك أسطورة متداولة ، هى أن المد قد سبق زمنه بساعتين ليعينه على رحلته إلى أعلى النهر . وقال الرجل العجوز الثرثار لى إنه هو الذى كان يقود قاربه ، وأن هذه الظاهرة قد أدهشته كثيراً ، وزيادة على ذلك فلقد كانت كل أسرته تشاركه فى هذا المجد . كان ابنه وزوج ابنته يجدفان فى هذا القارب . ولكنهما كانا مجرد فتيين صغيرين تعوزهما التجربة ، فلم يلحظا سرعة القارب ، حتي لفت نظرهما إلى تلك الحقيقة المذهلة .

وكان حضور جيم إلى قرية صيادى الأسماك هذه ، رحمة وبركة . ولكن بالنسبة إليهم كما هو الحال مع كثيرين منا حلت عليهم هذه البركة مصحوبة بشىء كثير من الرعب والفزع . لقد تتابعت الأجيال منذ الزيارة الأخيرة لرجل أبيض لهذا النهر ، وعلى ذلك فقد نسى سكان القرية تقاليدهم المتبعة إزاء حادث كهذا . فكان ظهور ذلك المخلوق

الذى هبط عليهم ، وطلب إليهم فى تصميم أن يأخذوه إلى باتوزان ، حدثاً أوقعهم فى الاضطراب . وكان تصميمه على ذلك الأمر شيئاً مخيفاً بالنسبة إليهم ، وكان كرمه مثيراً لشكهم ، فذلك كان طلباً لم يسمعوا به من قبل ، ولا كان له سابقة فى ذاكرتهم يهتدون بهديها . فماذا سيقول الراجا فى ذلك ؟ وماذا سيفعل بهم ؟ فقضوا الجانب الأكبر من الليل وهم يتشاورون فى الأمر . ولكن الخطر المباشر الذى كان يحيق بهم من غضب ذلك الرجل الغريب كان كبيرا ، إلى حد جعلهم أخيرا يعدون له قارباً ، كانت حالته من السوء بحيث لاتبعث على الاطمئنان . وأخذ النساء يولولن فى حزن حين بدأ القارب رحلته . ولعنته إحداهن بصوت عال ، وكانت عجوزا شمطاء لا تخشى شيئاً .

فجلس فى القارب كما أخبرتكم من قبل على صندوقه الصفيح وهو يداعب مسدسه الذى وضعه على ركبتيه . وجلس فى حذر فى وضع لايكاد المرء يتصور وضعاً أكثر منه مشقة وإرهاقاً للجسد : وهكذا كان دخوله إلى البلاد ، التي قدر له أن يملأ جنباتها بشهرته وجعلها تتحدث عن فضائله طولا وعرضاً ، من أول قممها الزرقاء فى الداخل حتي ذلك الشريط الأبيض من زبد أمواجها على الساحل . وعند أول عطفة فى طريقه غاب البحر عن نظره بأمواجه المتلاطمة فى حركتها الأبدية وهى ترتفع وتنخفض ، وتختفى لتظهر من جديد

كما لو كانت رمزاً لجهاد بني الإنسان . وأصبح أمامه الآن الغابات الساكنه ، بجذورها العميقة فى الأرض وفروعها التي ترتفع فى السماء باحثة عن ضوء الشمس ، وهى أبدية فى تقاليدها القوية ذات الظلال التي تشبه الحياة نفسها . وجاست فرصته إلى جانبه ، وعلى وجهها غلالة كأنها عروس من عرائس الشرق ، تنتظر يد سيدها ، ليرفع عن وجهها النقاب . وكان هو أيضاً ، وريث تقاليد قوية ذات ظلال .. وقد أخبرنى بنفسه على أية حال أنه لم يسبق له فى حياته قط أن أحس بمثل ذلك التعب وانقباض الصدر ، الذى كان يحس به فى ذلك القارب . فكل ما كان يجسر عليه من الحركة فى ذلك القارب ، كان أن يمد يده متلصصاً إلى صحفة كانت عبارة عن نصف القشرة الخارجية لحبة من جوز الهند ، طافية على الماء بين قدميه ، ليستعملها فى حرص شديد فى تفريغ الماء من قاع القارب . واكتشف حينئذ كم هو صلب غطاء ذلك الصندوق الصفيح الذى يجلس فوقه . ومع أنه كان على صحة تتسم بالبطولة ، فإنه على الرغم من ذلك شعر أثناء تلك الرحلة بنوبات من الدوار تصيبه عدة مرات ، وكان بين حين وآخر يفكر فى شيء من شرود الذهن ، فى أى حجم يا ترى كانت تلك الفقاعة التي أحدثتها حرارة الشمس على جلد ظهره . ولتسلية نفسه كان يحاول وهو ينظر أمامه أن يقرر ما إذا كان ذلك الشيء المغطى بالطين الذى يراه راقداً على حافة الماء هو كتلة من الخشب أم تمساح . ولكنه ترك هذه التسلية سريعاً ، لأنه لم يجد فيها أية لذة ، إذ إن

النتيجة كانت دائماً أن هذا الشيء كان تمساحاً . وقفز أحد هؤلاء التماسيح مرة إلى النهر وكاد يقلب القارب . ولكن هذا الحادث ، وما سببه من انفعال انتهى سريعاً . وبعد ذلك حين وصلوا إلى طريق مسطح طويل على الشاطىء شعر بشيء من الشكر لجماعة من القردة ، جاءت إلى حافة النهر لتحدث ضجة مصحوبة بعرض مهين أمامه على الطريق . وكانت هذه ، هي الصورة التي يقترب بها من الوصول إلى مجد حقيقي ، لايقل عن أي مجد وصل إليه إنسان من قبل . وكان أهم ما يتوق إليه في هذه اللحظة ، هو أن يرى غروب الشمس ، بينما كان يستعد الرجال الثلاثة الذين يجدفون القارب إلى وضع خطتهم ، وهي تسليمه إلى الراجا ، موضع التنفيذ .

وقال لي « إنه لابد أنني كنت على درجة من التعب أثرت في في صفاء ذهني . أوربما كانت عيناي قد غفوتا قليلا، لفترة من الوقت لأن أول شيء كنت أحس به كان وصول القارب إلى الشاطىء . وفي نفس اللحظة أدرك أنه ترك الغابة وراءه ، وأنه يستطيع الآن أن يرى أول المساكن على ربوة أمامه ، وأن يرى حاجزاً من الخشب عن يساره . ثم رأى الرجال الذين كانوا معه ، يقفزون إلى الشاطىء ثم يطلقون سيقانهم للريح . فقفز وراءهم بحكم الغريزة . وكان قد ظن في أول الامر أن هؤلاء الرجال قد تخلوا عنه لسبب لا يستطيع إدراك كنهه . ولكنه سمع صرخات تدل على وقوع شيء من الاضطراب .

ورأى بوابة تفتح،ليخرج منها عدد كبير من الناس متجهين نحوه .
وفى نفس الوقت ظهر قارب مملوء بالرجـــال المسلحين فى النهر ،
واستقر إلى جانب قاربه الخالى ، ليقطع عليه خط الرجعة .

وقال لى جيم : « وحدث لى كل ذلك فجأة،فلم أستطع السيطرة على اعصابى.ولو كان ذلك المسدس محشواً بالرصاص لأطلقته على واحد أو اثنين أو ثلاثة منهم ، ولكان فى ذلك نهايتي.ولكنه لم يكن محشواً ... » فسألته : « ولم لا ؟ » فقال وأنا ألمح فى النظرة التي وجهها إلى أثرا ضعيفاً من طبيعته العنيدة .« إنني ما كنت أستطيع أن أقاتل جميع السكان . ثم إنني لم أحضر إليهم كما لو كنت خائماً على حياتى منهم » فلم أقل له إنهم لم يكن فى مقدورهم أن يعلموا أن المسدس فارغ من الرصاص . فلقد كان لابد له من إقنـــاع نفسه بطريقته الخاصة ... ثم قال بشيء من المرح : « على أية حال ، فلم يكن محشواً بالرصاص . وعلى ذلك فكل ما فعلته هو أنى وقفت أمامهم وسألتهم عن سبب هـــذا الضجيج . ويظهر أن ذلك عقد ألسنتهم عن الكلام. ورأيت بعضاً من هؤلاء اللصوص وهم يذهبون بصندوقى . وجاءنى ذلك الوغد العجوز ذو الساقين الطويلتين ، وهو قاسم « وسأريه لك فى الغد » ليقول لى إن الراجا يريد أن يرانى . فقلت له : «حسناً ، إني أيضا أريد أن أراه» . ثم سرت إلى داخل البوابة بكل بساطة و...و... هأنذا » ثم ضحك وسألني بلهجة غير

متوقعة ، تتسم بالتأكيد على مخارج الحروف : « ثم أتعلم أهم ما فى ذلك الحادث ؟ إنني سأخبرك . إنه هو علمى الآن بأنه لو كان قدرلى الموت حينئذ لكان الخاسر هو هذه البلاد » .

وكان يتحدث إلى بهذه الطريقة ، أمام بيته فى تلك الأمسية التي ذكرتها من قبل بعد أن راقبنا القمر وهو يرتفع فوق تلك الفتحة بين التلين ، وكأنه روح ترتفع فوق القبر . وكان ضياؤه يهبط علينا بارداً شاحباً كأنما كان شبحاً لنور الشمس . إن هناك شيئاً موحشاً للنفس فى ضــوء القمر ، ففيه كل ما تحويه الروح التي خلعت عنها جسدها من بعد عن العاطفة والانفعال . وفيه أيضا شيء من غموضها الذى يصعب علينا تصوره . فهو بالنسبة إلى ضوء الشمس — وهو يهبنا الحياة ، أياً كان القيل والقال ، كالصدى بالنسبة إلى الصوت : يبعث على الحيرة والتضليل ، سواء أكانت النغمة الأصيلة ساخرة أم حزينة . فهو يسلب الأشكال مادتها — والمادة هى لاشك مجالنا الذى نتحرك فيه ، ويسلب الأشكال مضمونها ولا يلبس ثوب الحقيقة بما يحوى من نذر الشر إلا للظلال وحدها . وكانت الظلال حولنا فى تلك الليلة حقيقة نشعر بها . ولـــكن جيم كان يبدو إلى جانبي قوياً شامخاً لا يستطيع شيء ، ولا حتى القوة السحرية لضوء القمر ، أن يسلبه حقيقته فى عيني . ولعله كان فعلا لا يستطيع شيء أن يمسه ، منذ أن عاش بعد أن صمد لهجوم قوى الظلام . وكان كل شيء صامتاً ،

وكل شيء ساكناً،حتى أشعة القمر على مياه النهر الجارية كانت قد نامت كما لو كان النهر بركة ساكنة . وكانت الساعة التى باغ فيها المد نهايته كانت ساعة السكون وعدم الحركة التى أكدت العزلة الكاملة لذلك الركن المفقود من الأرض ، فازدحمت البيوت على طول ذلك المجرى المضيء الذى لم تجعد سطحه موجة صغيرة،ولا ومضة واحدة من الضوء،وهى تخطو فى الماء فى صف من الأشكال الفضية الرمادية الغامضة التى يزحم بعضها بعضاً ، وقد اختلطت بكتل سوداء من الظلال . وكأنها قطيع من الأشباح لمخلوقات من شكل غير قابل للوصف تتقدم إلى الأمام لتشرب من سراب لا حياة فيه ، جاء من عالم الأشباح . . . وهنا وهناك أضواء حمراء تظهر وتختفى داخل حوائط البامبو، دافئة كأنها شرر حى،تذكرك بالعواطف الإنسانية، وبالمأوى ، وبالراحة .

واعترف لى أنه كان غالباً ما كان يرقب هذه الأضواء الدافئة وهى تنطفىء واحدا بعد الآخر . وأنه كان يحب أن يرى الناس وهم يذهبون إلى النوم أمام عينيه،واثقين فى أمن غدهم . وسألنى « ألا ترى السلام يخيم هنا ؟ » ومع أجيم لم يكن فصيحاً ، إلا أنه كان هناك معنى عميق لكلماته التى تلت ذلك ، إذ قال « انظر إلى هذه البيوت . إنه لا يوجد واحد فيها لا أتمتع فيه بالثقة الكاملة . بحق السماء ! . . لقد أخبرتك بأنى سأبقى هنا . فاسأل أى رجل أو إمرأة أو طفل . . .

ثم سكت لحظة ، وقال « على أية حال إنني هنا على ما يرام » .

فقلت له بسرعة إنه قد وجد ذلك كله آخر الأمر ، وأضفت أنني كنت واثقاً بأنه سيجده ، فهز رأسه وقال ، « أكنت واثقا حقاً ؟ » ثم ضغط على ذراعي بخفة فوق المرفق وقال ، « حسن ! إذن كنت على صواب » .

وكان هناك زهو وكبرياء كادا أن يبلغا حد الخوف في تلك الكلمات الهامسة . وصاح : « بحق السماء ، فكر فيما يعنيه ذلك بالنسبة إلى » ثم ضغط على ذراعي للمرة الثانية وقال : « ثم إنك سألتني إن كنت أفكر في مغادرة هذا المكان ، يالله .. أنا أفكر في ذلك ... وخاصة بعد أن أخبرتني بما ينوي أن يفعله مستر شتاين .. أغادر هذا المكان ، لماذا ؟ إنني لم أكن أخشى إلا هـذه الفكرة . إن ذلك أقسى على من الموت .. كلا ، وأقسم على ذلك بشرفي . ولا تضحك ، إنه لا بد لى في كل يوم ، في كل وقت أفتح فيه عيني ، أن أشعر بأنى محل للثقة . وأنه لا يوجد إنسان يحق له أن .. ألا تعلم ذلك ؟ أترك هذا المكان ؟ إلى أين .. ولماذا ؟ وللحصول على أى شيء ؟ »

وكنت أخبرته (وكان ذلك في الحقيقة هو الغرض المهم من زيارتي) أنه في نية شتاين أن يبيع له البيت والسلع التي يتاجر فيها

بشروط سهلة تجعل الصفقة صحيحة لا غبار عليها من ناحية القانون وبدأ ينفر ويستنكر ويحتج فى أول الأمر فصرخت فى وجهه قائلا: « إلى الجحيم بحساسيتك هذه .. إن هذا كله ليس ملكاً لشتاين على الإطلاق . إنه يعطيك ما جمعته بنفسك . وعلى كل حال يمكنك أن تدخر ملاحظاتك هذه لما كنيل حين تراه فى الآخرة وأرجو ألا يحدث ذلك سريعاً ...» وكان لا بد له أن يخضع لمنطق ، لأن كل فتوحاته وكل ما أحرزه من ثقة ، ومن شهرة ومن صداقات ومن حب ، كل هذه الأشياء التى جعلت منه سيداً لهذه البلاد جعلته أسيراً لها أيضاً . فكان ينظر بعين المالك إلى سلام الأمسيات ، إلى النهر ، إلى البيوت ، إلى حياة الغابات الخالدة ، إلى حياة هؤلاء الآمنين القدماء ، إلى أسرار الأرض ، وإلى كبرياء قلبه . ولكن هذه الأشياء هى التى كانت تملكه ... كانت تملكه إلى أعمق أفكاره ، إلى كل حركة بسيطة فى دمه ، إلى آخر أنفاسه .

إنه كان شيئا يستحق أن يفخر به . وأنا أيضاً كنت فخوراً له ، وإن لم أكن مطمئناً غاية الاطمئنان للقيمة العظيمة لهذه الصفقة . إنه كان شيئاً مدهشاً . ولم أكن أفكر كثيراً فى عدم خوفه . ومن الغريب أنني لم ألق بالا إلى ذلك ، كما لو كانت شجاعته شيئاً عادياً ، لا يستحق أن يعتبر من الأسباب الجذرية لما حصل عليه من نتائج . فالذى أدهشني حقاً ، هو المزايا الأخرى التى كشف عنها . فلقد برهن على

سيطرته على موقف غريب عليه ، وبرهن على قدرة فكرية وعقلية متوقدة فى ذلك الحقـــل الفكرى . وكان هناك تأهبه واستعداده أيضاً .. نعم كان ذلك مدهشاً . وجاء كل ذلك إليه بشكل طبيعى ، كما تجيء حاسة الشم إلى كلب من سلالة نقية من كلاب الصيد . ولم يكن فصيحاً كما قلت ، ولكن كان هناك وقار فى طبيعته التى كانت تكره الثرثرة . وكان هناك جدية عميقة فى ثأثأته . وكان لا يزال يحتفظ بحيلة حمرة الخجل العنيدة التى تعلو وجهه . ومع ذلك فبين حين وآخر كانت تفلت منه كلمة أو جملة تدل على مدى العمق ومدى الجـــدية التى كان يشعر بها إزاء ذلك العمل الذى أعطاه الثقة فى ابتداء حياته بناء جديداً ، ورد له اعتباره فى عيني نفسه ، وهذا هو ما جعله يحب هذه الأرض ، ويحب أهلها بنوع من الأنانية المفترسة وبرقة شديدة من الشعور مشوبة بشيء من الاحتقار .

الفصل الخامس والعشرون

وهمس فى أذنى (وكانت المناسبة هى زيارتنا للراجا) قائلا :
« هذا هو المكان الذى سجنت فيه ثلاثة أيام » ، بينما كنا نسير ببطء خلال اجتماع صاخب من الأتباع ، عبر فناء تنكو ألانج ، ولقـــد لاحظت على المجتمعين مسحة من الخوف والاحترام والدهشة . ثم قال جيم : « مكان قذر ، أليس كذلك ؟ ثم إنني لم أستطع حينذاك أن أحصل على شيء أقتات به ، إلا إذا أثرت ضجة بسبب ذلك . وحتي بعد هذه الضجة ، كان كل ما أحصل عليه هو صحن صغير من الأرز وسمكة صغيرة ، لاتزيد فى حجمها عن السردينــــة — عليهم اللعنة . فلقد كنت أشعر بالجوع حقاً ، وأنا أتسكع داخل هذا الفناء ذى الرائحة العفنة . وكان بعض هؤلاء الأوغاد يقربون صحافهم المليئة بالطعام مني حتي تصير تحت أنفى تماماً . وكنت قد سلمتهم ذلك المسدس العظيم الذى أهديته إلى بمجرد أن طلبوا مني ذلك . وكنت فرحاً بالتخلص منه لأنى كنت أجد نفسي كالأبله ، وأنا أسير بينهم حاملا فى يدى تلك اللعبة من الحديد الفارغ » . وكنا قد وصلنا فى تلك اللحظة إلى المثول فى حضرة الراجا ، وإذا بى أراه قد انقلب إلى هيئة الجد الصارم مع شيء من المجاملة لآسره القديم .

وكم كان ذلك عظيماً . إني أريد أن أضحك حين أتذكر ذلك الموقف ولكن الحق أنني كنت قد تأثرت به أيضاً . فقد كان ذلك الرجل العجوز سيء السمعة «تونكو ألانج» لا يستطيع إخفاء خوفه ، ولم يكن بطلا ، رغماً عن القصص التي كان مغرماً بروايتها عن شبابه المغامر ، وفى نفس الوقت كان فى سلوكه نوع من الثقة فى جيم ، ربما كان هذا الراجا مسوقاً إليها دون أن يهتدى إلى السبب فى ذلك . وأرجو أن تفكروا فى تلك الظاهرة . فحتي الذين يكرهونه كراهة التحريم كانوا مع ذلك يولونه ثقتهم . وكان جيم على قدر استطاعتي فى تتبع الحديث يضفى على هذه المناسبة شيئاً من الترويح عن النفس بإلقائه محاضرة على الراجا . فلقد حدث لبعض القرويين الفقراء أن قطع عليهم الطريق ، وهم يقصدون الذهاب إلى بيت دورامين ، ومعهم قليل من الصمغ أو شمع العسل يريدون أن يبادلوه بشيء من الأرز . فانفجر الراجا قائلا « إن اللص هو دورامين نفسه » . وبدا وكأن نوبة من الغضب الجامح قد استولت على جسمه الضئيل . فأخذ يهتز بطريقة غريبة على حصيرته ، وهو يحرك يديه وقدميه ويهز تلك الحبال المتشابكة من شعره وكأنه قد تقمص صورة الغضب . ورأيت العيون تحدق والذقون تسقط على الصدور من حولنا . وبدأ جيم الكلام ، فأخذ يشرح فى شيء من الإفاضة ، وفى ثبات وهدوء .

معنى المبدأ الذى يقول إنه لا يجب أن يحال بين أى إنسان وبين الحصول على قوت عياله بطريقة شريفة . بينما كان الرجل الآخر يجلس كما يجلس الخياط إلى عمله ، ويداه على ركبتيه ، وقد طأطأ رأسه ، وأخذ يوجه نظراته إلى جيم من خلال شعره الأشيب الذى كان يسقط فوق عينيه تماماً . وحين انتهى جيم من حديثه ساد السكون التام حتى لقد بدا أن أحداً لا يتنفس . وأمسك الحاضرون عن إحداث أى صوت إلى أن تنهد الراجا العجوز تنهدة خفيفة ونظر إلى أعلى بعد أن هز رأسه ، ثم قال بسرعة . « لقد سمعتم ما قيل أيها الناس . . وإنى آمركم أن تكفوا عن هذه الألاعيب » واستقبل هذا القرار بسكون عميق . وقدم لنا رجل على شيء من الضخامة ، كان يبدو عليه أنه من رجال الراجا المقربين ، فنجانين من القهوة على صينية من النحاس ، تناولهما من يدى تابع آخر أقل مقاماً . وكان لهذا الرجل عينان ذكيتان ، ووجه عريض شديد السمرة بادى العظام ، وكان يبدو فى سلوكه شيء من رفع الكلفة فى الترحيب ، وميل إلى التطفل بتأدية خدمات لا لزوم لها (ولقد سمعت بعد ذلك أنه جلاد الراجا) . وسمعت جيم يهمس إلى بسرعة شديدة قائلا « لست ملزماً بشرب هذه القوة » . فلم أفهم ما يعني فى أول الأمر واكتفيت بالنظر إليه فرأيته يأخذ رشفة كبيرة ، وهو يجلس فى غاية الهدوء ، وطبق الفنجان فى يده اليسرى . وبعد لحظة شعرت بضيق شديد . وهمست إليه وأنا أبتسم ابتسامة رقيقة : « لماذا . . بحق الشيطان ، تعرضني لهذه المخاطرة السخيفة ؟ » . ولكني شربت قهوتى بالطبع ، فلم يكن فى وسعى

أن أفعل شيئاً غير ذلك ، حين لم يعطني أية إشارة أخرى . واستأذنا في الخروج بعد ذلك مباشرة . وحين كنا نعبر الفناء الخارجي في طريقنا إلى قاربنا ، في حراسة ذلك الجلاد الذكي المرح ، قال لي جيم إنه في غاية الأسف . وإنه كان احتمالا ضعيفاً جداً بالطبع . وإن السم لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إليه ، وإنه كان احتمالا بعيداً . وأكد لي أن نفعه (الراجا) كان يعتبر أكبر مما لا يقاس من خطره . وعلى ذلك.. فقلت له : « ولكن الراجا يخشاك بشكل لا مجال للشك فيه ، وذلك واضح جداً لأي إنسان ». وكنت قلقاً بعض الشيء وأنا أقول له هذه الكلمات ، وكنت أراقبه جيداً ، وأنا أخشى أن أرى العلامات الأولى لنوبة من المغص الفظيع تأخذ بتلابيبه . وكنت أشعر باشمئزاز شديد . فقال لي وهو يجلس إلى جانبي في القارب « إذا كنت سأنتج شيئاً من الخير ، وأحافظ على مكانتي في هذه الأنحاء ، فإنه لا بد لي من هذه المخاطرة التي أعرض نفسي لها مرة في الشهر على الأقل . وكثيرون من الناس يثقون بأنني سأفعل ذلك من أجلهم . وتقول إنه خائف مني . . إن هذه هي المسألة . فأغلب الظن أنه يخاف مني لأنني لا أخاف من قهوته » . ثم أراني بقعة في الضلع الشمالي من الحاجز الذي يحيط بالفناء كانت فيها رءوس القوائم الخشبية للحاجز مهشمة . وقال لي « هذا هو المكان الذي قفزت من فوقه في يومي الثالث في باتوازن . إنهم لم يغيروا القوائم بعد . إنها كانت قفزة لا بأس بها ، أليس كذلك ؟ وبعد لحظة مررنا على مصب أحد النهيرات الطينية . وقال جيم » .

« ... كانت قفزتي الثانية . فلقد عدوت مسافة صغيرة ، وأخذت هذه القفزة ، وأنا أكاد أطير . ولكني سقطت دون الوصول إلى الضفة الأخرى وخيل إلى أنى سأضطر إلى ترك جلدى هناك . وفقدت حذائى وأنا أحاول الخلاص . وكنت أفكر طول الوقت فى الهول الذى سأحس به لو أصابتني ضربة من إحدى تلك الحراب الطويلة وأنا مغروز فى الطين على هـذا الوضع . وإنى لأتذكر كيف شعرت بالغثيان وأنا أتلوى فى هذا الطين اللزج ، وإنى أعني الغثيان هنا حقيقة لا مجازاً ، فكأنما قد دخل فى فمى شيء عفن » .

وكان هذا هو ما حدث وكانت فرصته تعدو إلى جانبه ، وتقفز فوق النهير ، ثم تسقط معه فى الطين ... وهى لا تزال مغطاة الوجه . وكان قدومه غير المتوقع هو الشيء الوحيد ـ كما يمكنكم أن تتصوروا ـ الذى أنقذه من التقطيع بالخناجر فى الحال ، ثم رميه فى النهر ، فلقد كان فى قبضة أيديهم . ولـكن ذلك كان فى الوقت نفسه ، كأنهم كانوا يقبضون على شبح أو طيف أو نذير . فماذا كان يعنى ذلك الشيء وماذا نفعل به ؟ وهل ضاع الوقت لإرضائه ؟ وأليس من الأفضل أن نقتله الآن دون تريث ؟ ولـكن ما الذى سيصيبنا بعد ذلك ؟ ولقد كاد تونكو ألانج ، ذلك العجوز التعس ، أن يجن من الخوف ومن صعوبة وصوله إلى رأى قاطع . وانفض المجلس مرات عديدة وخرج المستشارون يندفعون إلى خارج الباب فى غير نظام ليجلسوا فى الشرفة . وقيل إن أحدهم قفز من هذه الشرفة إلى الأرض مسافة خمس عشرة قدماً فى تقديرى ، وكسر رجله . وقيل إن الحاكم الملكى

لباتوازن كان رجلا من ذوى العادات الغريبة الشاذة ، وإن إحدى هذه العادات كان أن يقحم كلاماً مليئاً بالفخر والمغالاة فى التغنى بأوصافه العظيمة وسط المناقشات المحتدة . وعندما يثور شعوره تدريجياً كان ينتهى به الحال بالقفز بعنف من مكانه وخنجره مسلول فى يده . ولـــكن باستثناء مثل هذه المقاطعات ، كانت المداولة على مصير جيم تستمر ليل نهار .

وفى هذه الأثناء كان جيم يتجول فى أنحاء الفناء . وكان بعض من كانوا هناك يتجنبونه ، وكان البعض الآخر يحدقون فيه . ولكنهم جميعهم كانوا يراقبونه . وكان تحت رحمة أى رجل قذر ذى ملابس ممزقة من هؤلاء ، إن تصادف أن كان يحمل فأساً ورغب فى استعمالها . ولقد استولى هناك على عشة صغيرة خربة لينام فيها . وكانت الرائحة الخبيثة المتصاعدة من القاذورات والمواد العفنة هناك تسبب له ضيقاً شديداً . ولكن يظهر أن ذلك لم يفقده شهيته للطعام ؛ لأنه قال لى إنه كان دائم الشعور بالجوع طوال ذلك الوقت ، وبين حين وآخر كان رجل ؛ على حد وصفه ؛ « من أولئك الحمير الذين لا يكفون عن النهيق » يأتى إليه وهو يعدو كمبعوث من المجلس ليسأله أسئلة مدهشة فى نغمات معسولة . « هل سيحضر الهولنديون ليضموا إليهم هذه البلاد ؟ هل يريد الرجل الأبيض أن يرجع ثانية من حيث أتى إلى مصب النهر ؟ وماذا كان غرضه من القدوم إلى أرض فقيرة كهذه ؟ وإن الراجا يريد

أن يسأل الرجل الأبيض إن كان يستطيع إصلاح ساعة؟ » وفعلا أحضروا إليه ساعة من النيكل من صنع نيو إنجلاند ، ولمجرد شعوره بالملل الذى لا يحتمل ، حاول أن يشغل نفسه فى جعل (ناقوس التنبيه) فيها صالحاً للعمل ، ويظهر أنه فى أثناء انشغاله بذلك العمل فى عشته أدرك فجأة حقيقة الخطر الهائل الذى كان يتعرض له . فرمى بالساعة من يده على حد قوله « كما لو كانت قطعة ساخنة من البطاطس » وخرج بسرعة ، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عما ينوى أن يفعل ، أو عما يستطيع أن يفعل . فكل ما كان يعرفه هو أن الموقف كان لا يحتمل . فأخذ يتمشى دون هدف حتى وصل إلى مخزن صغير للحبوب مصنوع بطريقة بدائية على قوائم . ثم رأى بعد ذلك قوائم الحاجز المكسورة وإذا به فى الحال كما قال دون تفكير على الإطلاق من جانبه ، ودون ثورة لأى انفعال فيه ، يبدأ عملية الهرب ، وكأنه ينفذ خطة احتاجت إلى شهر لكى تنضج . فابتعد عن الحاجز فى شيء من الإهمال ليجعل بينه وبينه مسافة تمكنه من العدو ، وتتيح له فرصة لاستجماع سرعته قبل القفز . وحين استدار إلى الاتجاه المقابل رأى أمامه أحد ذوى الجاه ، وفى صحبته تابعان من حملة الحراب الطويلة وراءه عند مرفقه ، وعلى شفتيه سؤال يريد أن يسأله ، ولكنه انطلق يعدو « من تحت أنفه تماماً » وقفز فوق الحاجز « كالطائر » ، وسقط على الجانب الآخر منه . وكانت سقطة هرست عظامه وأحس برأسه وكأنه ينفلق تماماً من تأثيرها . ولكنه جمع شتات نفسه فوراً . ولم يكن يفكر فى شيء آخر فى تلك اللحظة . وكل ما استطاع أن يتذكره على حد قوله هو صرخة عالية . وكانت أول البيوت فى باتوزان أمامه الآن

على مسافة لا تزيد عن أربعمائة ياردة . ثم رأى النهير وأحس بنفسه وهو يزيد من سرعته كما لو كان ذلك قد حدث له بطريقة آلية . وظهرت له الأرض وكأنها تكاد تطير إلى الوراء تحت قدميه . وقفز من آخر نقطة يابسة على ضفة النهير . وأحس بنفسه وهو يطير في الهواء . ثم أحس بنفسه دون أن يشعر بأية صدمة وهو ينزع قرب الضفة الأخرى في الطين الذى كان غاية في اللين واللزوجة . ولم تكن للحظة التى « استفاق فيها لنفسه ، » إلا حين حاول أن يحرك ساقيه اووجد ذلك متعذراً عليه . وبدأ عندئذ يفكر في « الحراب الطويلة » ولكن حقيقة الأمر إذا، أخذنا في الاعتبار أن الرجال الذين كانوا في الفناء ، كان لا بد لهم أن يجروا إلى البوابة ، ثم يصلوا إلى المكان الذى قفز منه ، ثم يستقلوا القوارب ، ثم لا بد لهم أيضاً أن يدوروا بها حول رأس بارز في النهر فإن جيم كان يسبقهم بمسافة أكبر مما كان يظن في تلك اللحظة . أضف إلى ذلك أنه كان وقت الجزر حين تنحسر المياه . وعلى ذلك فقد كاد النهير أن يكون فارغاً من الماء وإن كنت لا تستطيع أن تقول إنه كان جافاً ، وعلى هذا فقد كان من الوجهة العملية في أمان من كل خطر ، لفترة من الزمان على الأقل إلا من رصاصة تصيبه من مسافة بعيدة . وكانت الأرض الثابتة المرتفعة أمامه على مسافة ست أقدام منه . وقال لى . « إنه رغماً عن قرب هذه المسافة ، فلقد خيل إلى أنني سأموت في ذلك المكان . » فجعل يمد يديه ويقبض بهما على الطين : ولكنه لم ينجح إلا في تجميع

كومة باردة لامعة بشعة من الطين اللزج على صدره حتى وصلت تلك الكومة إلى ذقنه . وخيل إليه أنه يدفن نفسه حياً . فأخذ يضرب بيديه كالمجنون ناثراً الطين بقبضتيه فسقط الطين على رأسه وعلى وجهه وفوق عينيه وفى فمه . وقال لى إنه تذكر فجأة فناء الراجا ، كما يتذكر الإنسان مكاناً كان يعيش سعيداً فيه منذ سنوات مضت . وكان يتحرق شوقاً على حد قوله إلى الرجوع إليه ثانية كى يصلح الساعة . وبذل جهوداً هائلة مضنية جعلته يبكى ويلهث ، جهوداً أحس من تأثيرها أن عينيه قد انفجرتا من محجريهما ، وأنه قد صـار أعمى ، جهوداً بلغت ذروتها حين تجمعت فى جهد واحد عظيم وسط الظلام الذى كان يحيق به ، أراد أن يشق به الأرض ويفكك أجزائها ، ثم يلقى بها بعيداً من أطرافه السجينة. وفى هذه اللحظة أحس بتقدمه فى زحفه الضعيف نحو الأرض اليابسة فوق الشاطىء . وأخيراً رقد بطوله على الأرض الجافة ، ورأى الأنوار ورأى السماء . ثم خطر له خاطر سعيد ، وهو أنه سينام. وهو مصمم على أنه قد نام فعلا. إنه يؤكد أنه قد نام ، ربما دقيقة واحدة ، وربما عشرين ثانية ، وربما ثانية واحدة فقط . ولكنه يتذكر فى وضوح تام لحظة يقظته التى كانت مصحوبة بهزة عنيفة من شعور الدهشة . ثم استمر راقدا لفترة من الزمان ، وبعد ذلك نهض وهو مغطى بالطين من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه . ووقف فى ذلك المكان ، وهو يحس بأنه الوحيد من بنى جنسه فى تلك البقعة الواسعة فى تباغ مئات الأميال ، يحس بأنه وحيد بلا صديق واحد يمكنه أن

يتوقع منه المعونة ، أو أية عاطفة تنم بالحنو أو الشفقة ، يحس بانه حيوان يطارده الصياد . وكانت البيوت الأولى على بعد عشرين ياردة فقط منه الآن . وكان الصراخ اليائس لامرأة استولى عليها الرعب وهى تحاول أن تنحى طفلها عن طريقه ، هو الذى جعله يعاود العدو ثانية . فأخذ يعدو فى طريق مستقيم وهو فى جوربه بعد أن فقد حذاءه، وكان ملطخا بالطين ، إلى الحد الذى جعله يفقد كل شبه بالآدميين . ووصل فى عدوه إلى حوالى منتصف القرية . وكان النساء خفيفات الحركة يهربن من طريقه يميناً ويساراً ، بينما كان الرجال الذين هم أثقل منهن حركة ، يسقطون ما بأيديهم كائناً ذلك ما كان ويقفون مسمرين فى أماكنهم وقد فغزوا أفواههم . فلقد كان كالرعب الطائر . وقال لى إنه لاحظ الأطفال الصغار ، وهم يحاولون الجرى إنقاذاً لحياتهم ، ويسقطون على بطونهم الصغيرة وهم يرفسون بأرجلهم . وحاد عن طريقــه المستقيم ليدخل إلى ممر بين بيتين على منحدر مرتفع وشق طريقه فى صعوبة ويأس فوق متراس من جزوع الأشجار (ولم يكن يمضي أسبوع دون قتال فى باتوزان فى ذلك الوقت) ، ثم شق طريقه خلال حاجز إلى قطعة من الأرض مزروعة بالأذرة . حيث قذفه صبي مذعور بعصا كانت فى يده — ثم تصادف أن وجد درباً ، فجرى فيه ، وإذا به يجد نفسه فجأة بين أذرع عدد من الناس الذين عقدت الدهشة ألسنتهم . ولم يبق من الهواء فى صدره إلا ما كان يكفى لأن يلهث بكلمة ، « دورامين . » ولقد تذكر أنه قد أخذ إلى قمة المنحدر

والرجال يحملونه تارة ويدفعونه بأيديهم تارة أخرى . وأنه قد أحس بهم يجرونه إلى أرض مسورة واسعة مليئة بالنخيل وأشجار الفاكهة حيث كان يجلس رجل ضخم الجسم ، فى عظمة ، على مقعد وسط ضجيج عظيم من الحركة والنشاط . فأخذ يبحث فى الطين الذى كان يغطيه وفى ملابسه ليخرج الخاتم ، وحين وجد نفسه فجأة مستلقياً على ظهره على الأرض ، حار فكره فيمن يمكن أن يكون الرجل الذى سدد إليه هذه الضربة التى طرحته أرضاً . والحقيقة أنهم تركوه فلم يستطع أن يقف على قدميه . وكانت هناك طلقات عند قاع المنحدر يطلقها بعض الناس دون هدف . وفوق أسطح القرية كانت تسمع صيحات الدهشة . ولكنه كان قد أصبح فى أمان . فلقد أقفل أتباع دورامين البوابة وحصنوها بالمتاريس ثم صبوا الماء فى حلقه . وكانت زوجة دورامين العجوز ، وهى مليئة بالنشاط والرحمة تصدر أوامرها بصوت عال إلى نسائها وقد قال لى جيم فى حنان ، « إن المرأة العجوز اهتمت بى أعظم الاهتمام كما لو كنت أحد أبنائها . فوضعونى على سرير كبير — سريرها الرسمى — ثم كانت تجرى إلى داخل الحجرة وإلى خارجها لتربت على كتفى وهى تمسح دموعها . ولا بد أننى كنت حينئذ على حالة تبعث على الإشفاق ، ورقدت هناك لفترة لا أعلم مداها وكأننى قطعة من الخشب لا حياة فيها » .

وبدا وكأنه يختص زوجة دورامين العجوز بقسط كبير من حبه ، ثم إنها هى من جهتها كانت تشعر نحوه بشعور الأمومة . وكان لها

وجه مستدير ناعم ، فى لون البندق ، تملؤه تجعدات دقيقة ، وشفاه حمراء كبيرة . (ولعل حمرتها الزاهية كانت نتيجة لمضغها نبات «البيتل» الأحمر). وكان لها عينان ترمشان كثيراً وتوحيان بالطيبة ، وكانت معتادة على فتحهما إلى أقصي ما تستطيع . وكنت ترى هذه السيدة دائماً فى حركة دائبة ، وهى تعنف ، وتأمر دون توقف كتيبتها من النساء الشابات بوجوههن السمراء الصافية وأعينهن الكبيرة الجادة ، وكانت هذه الكتيبة تتكون من بناتها وخادماتها وجواريها . وأنتم تعلمون الصورة فى مثل هذه البيوت الكبيرة . حيث يستحيل على المرء أن يفرق بين طبقة وأخرى من هؤلاء النسوة . وكانت إمرأة دورامين ضئيلة الجسم جداً بحيث كانت ملابسها الواسعة الخارجية — التى كانت تشبكها من الأمام بالمشابك المرصعة بالأحجار الكريمة توحى بما فى داخلها من فراغ . وكانت تلبس فى قدميها العاريتين السمراوين خفاً أصفر من القش ، من النوع الذى يصنعه الصينيون ولقد رأيتها بنفسي وهى تتحرك فى رشاقة وشعرها الأشهب الطويل الذى كان فى غاية الكثافة ينساب على كتفيها . وكان كثيراً ما تجرى على لسانها بعض الأمثال الحكيمة التى تسمعها فى البيوت . وكانت كريمة المحتد ، من نسل النبلاء . فيها شىء من غرابة الأطوار والاستبداد بالرأى . وكانت تجلس فى العصارى فى مقعد واسع جداً فى مواجهة زوجها ، وهى تنظر فى ثبات خلال فتحة واسعة فى الجدار تكشف عن منظر القرية بأكملها والنهر الذى كان يجرى إلى جانبها :

وكانت دائماً تضع قدميها حين تجاس تحتها ، ولكن دوراميں العجوز كان يجاس شامخاً على مقعده وكأنه جبل يجاس على سهل. وكان ينتمى فقط إلى طبقة «الناخوضا» وهى طبقة التجار. ولكن الاحترام الذى كان يتمتع به، والوقار الذى كان فى مظهره كانت من الأشياء التى تؤثر فى النفس. وكان على رأس القوة الثانية فى باتوازن. وكان المهاجرون من سيليبيس (وكانوا حوالى ستين أسرة بأبنائها وأتباعها ، بلغ عدد المقاتلين فيهم من «حملة الخناجر» مائتى رجل) قد انتخبوه منذ سنوات رئيساً عليهم : وكان رجال ذلك الجنس من الأذكياء ذوى الهمة ، الميالين للانتقام والأخذ بالثأر. وكانوا يمتازون أيضاً بأنهم أصرح وأكثر شجاعة من باقى السكان فى الملايو ، وكانوا ممن لا يهدأ لهم بال تحت ظل حكم ظالم. وكانوا يكونون الحزب المعادى للراجا. ولكن التجارة كانت بالطبع هى سبب هذا العداء. فقد كانت هى السبب الرئيسي فى القتال بين الجماعات ، وفى نشوب الثورات المفاجئة التي كانت تملأ هذا المكان أو ذاك من القرية بالدخان واللهيب ، وضوضاء طلقات الرصاص والصراخ. فكانت القرى تحرق ، وكان الرجال يجرون جراً إلى فناء الراجا ، ليقتلوا أو يعذبوا لارتكابهم جريمة التجارة مع رجل آخر غير الراجا نفسه. فقبل يوم أو يومين من حضور جيم ، كان قدقذف ببعض رءوس الأسرى-من تلك القرية ذاتها من قرى الصيادين التى أخذها جيم تحت حمايته الخاصة — من فوق الصخور بواسطة رجال الراجا من حملة الحراب ، لشبهة أنهم

كانوا يجمعون بعض أعشاش الطيور من النوع الذى يؤكل ، لذمة أحد التجار الذين أتوا من سيليبس . فلقد كان راجا الانج يدعى أنه التاجر الوحيد فى بلاده ، وكان عقاب من يجسر على الإخلال بهذا الاحتكار هو الموت . ولكن فكرة هذا الراجا عن التجارة كانت لا تختلف عن طرق السرقة العادية المعروفة. ولم يكن يحد من قسوته ووحشيته إلا جبنه. فكان يخشى من القوات المنظمة لرجال سيليبيس، ولكنه إلى أن حضر جيم كان لا يخشاهم إلى الحد الذى يجعله يمسك عن هذه الأعمال تماماً . فكان يوجه الضربات إليهم عن طريق رعاياه، وكان مما يرثى له، أنه كان يعتقد أنه كان فى جانب الحق. وكان مما يعقد الموقف وجود رجل غريب آخر غير مستقر، من الأعراب المولدين. وكان ذلك الرجل قد أثار القبائل التى فى داخل البلاد (وكان جيم يسميهم رجال الغابة) لأسباب دينية صرفة — كما أعتقد — وكان قد استقر برجاله فى معسكر حصين فوق قمة أحد التلين التوأمين . فكان معلقاً فوق مدينة باتوزان كالصقر فوق حظيرة للدجاج . ولكنه كان يعيث فى الأرض المكشوفة فساداً . فكانت هنالك قرى بأكملها تركها أهلها بسببه خراباً ، تنحى من بناها على قوائمها التى اسودت من النار على طول مجارى المياه الصافية ، وهى تسقط جميعها فى الماء مع العشب الذى نما فى حوائطها ، والأوراق الخضراء التى نمت على سقوفها ، محدثة فى النفس أثراً غريباً كأثر التحلل الطبيعى ، وكأنها نوع من النبات أصابته آفة فى جذوره . ولم يكن الحزبان اللذان كانا فى

حياتوزان على علم أكيد ، أيهما كان ذلك الطرف الثالث يناصبه العداء أكثر من الآخر . فكان الراجا يتآمر معه، ولكنه لم يكن تآمراً جاداً . وكان بعض رجال دورامين ، وقد ضاقوا بتلك الحياة التي لا أمن فيها يريدون أن يدعوه إليهم . وكان الشباب فيهم في قلقهم ينصحون : « بالانضمام إلى الشريف على ورجاله المتوحشين لطرد الراجا ألانج من البلاد » . ولكن دورامين تنام عن ذلك العزم بشيء من الصعوبة . فلقد كان يتقدم به السن ، ورغماً عن أن نفوذه لم يصغر إلا أن الموقف كان يحتاج إلى قوة، خشي ألا تكون له الآن . وهذا هو ما كان عليه الموقف ، حين هرب جيم من معسكر الراجا ، وقدم نفسه إلى زعيم البوجيز (دورامين) وأراه الخاتم ، ففتحت له تلك الجماعة قلبها ليدخل إليه .

الفصل السادس والعشرون

وكان دورامين رجلا من أبرز الشخصيات التى رأيتها فى بنى جنسه . وقد بلغ من الضخامة حداً كان من النادر أن تجده فى رجال الملايو . ولكن سمنته لم تكن هى فقط التى تلفت النظر ، بل إن الذى كان يلفت النظر هو مظهره العام الذى يؤثر فى النفس ويوحى بالاحترام . فقد كانت له الروعة التى تجدها فى تمثال شامخ لنحات عظيم . فقد كان جسمه الساكن ، فى ملابسه الثمينة من الحرير الملون ، المطرز بالذهب ، ورأسه الضخم الذى يغطيه شال أحمر ذهبي ، ووجهه المستدير الكبير بقسماته المسطحة وتجعيداته الكبيرة والصغيرة ، وثنياته الثقيلة التي كان له منها اثنتان على شكل نصف دائرة ، تبدآن على كل جانب من منخريه الواسعين العنيفين ، وتحيطان بفمه ذى الشفاه السميكة ، ورقبته التي كانت تشبه رقبة الثور ، وجبهته العريضة المتجعدة التي تشرف على عينين تنبعث منهما الكبرياء والنظرات الثاقبة . . . كل ذلك كان يعطيك صورة موحدة لا تستطيع إذا رأيتها مرة أن تنساها أبد الدهر . وكان فى جلسته الهادئة (وكان من النادر أن يحرك عضوا أثناء جلوسه) مثلا رائعة للوقار . ولم يعرف عنه أنه رفع صوته مرة واحدة . وكانت كلماته

دائماً همساً قوياً مبحوحاً ، فى نبراته شيء خفى يوحى إليك أنها تصل إلى أذنك من مسافة بعيدة . وحين كان يمشي كان يحيط به شابان قويان قصيرا القامة ، تعريا إلى الوسط فى سراويل بيضاء ، وطاقيتين سوداوين على مؤخرة رأسيهما — ليسنداه من مرفقيه : وحين يريد أن يجلس كانا يسقطانه برفق فى مقعده ، ويقفان وراءه ، إلى أن يظهر رغبته فى النهوض : وذلك بإدارة رأسه فى بطء كما لو كان يفعل ذلك بصعوبة يميناً ويساراً ، وعند ذلك كان التابعان يمسكان به من تحت إبطيه ، ويعاونانه على النهوض . ورغماً عن كل ذلك ، لم يكن فيه ما يوحى بأنه كسيح ، بل على العكس كانت حركاته الثقيلة تبدو كأنها مظهر لقوة عظيمة ذات عقل وتدبير . وكان الاعتقاد السائد أنه كان يستشير زوجته فى المسائل العامة ، ولكن أحداً على ما أعلم لم يسمعهما مرة يتبادلان كلمة واحدة . فحين كانا يجلسان جلستهما الرسمية بجوار الفتحة الكبيرة فإنهما كانا يجلسان فى صمت ، وكان يستطيعان أن يطلا من مكانهما فى نور الغروب المتناقص على المساحات الشاسعة من الغابات ، التى كانت تظهر أمامهما كبحر أسمر قاتم من الخضرة الداكنة المتموجة ، التى تمتد حتى سلسلة الجبال ، فى ألوانها القانية والبنفسجية ، وكان النهر اللامع المتعرج يبدو أمامهما كرسم كبير لحرف S من الفضة المطروقة . وكانت البيوت تمتد أمامهما فى شريط أسمر ، على طول الضفتين فى مجرى النهر وقد علاها التلال التوأمان فوق قمم الأشجار القريبة . . وكان بين

الرجل وزوجته مفارقة مدهشة ، فكانت هى خفيفة الحركة ، دقيقة القسمات، نحيلة سريعة، فيها شيء من الشبه بالساحرات وعليها مظاهر الأمومة بمبالغتها فى الاهتمام بالتوافه - حتي وهى مسترخية على مقعدها المريح. أما هو ، وهو يجلس فى مواجهتها فقد كان ضخماً ، ثقيل الحركة ، كأنه تمثال رجل نحت من الصخر دون أن يصقل ، يوحى إليك فى وضعه الساكن الهادىء بأنه رجل يترفع عن الصغائر ولا يهتم إلا بعظائم الأمور ، وبأن له قلباً كالحجر يعرف متي وكيف يزيح العاطفة عن طريقه. وكان ولد هذين العجوزين شاباً ممتازاً من خيرة الشباب ؛ وكانا قد أنجباه وهما فى سن متقدمة . ولربما كان أكبر سناً مما يبدو عليه من هيئته ؛ فالرابعة أو الخامسة والعشرون لا تعتبر سناً مبكرة إذا كان الرجل قد صار أبا لأسرة وهو فى الثامنة عشرة ؛ وكان من عادته إذا دخل تلك الغرفة الكبيرة المفروشة بالحصير الجميل ، والتى لها سقف عال من القماش الأبيض ، حيث كان الزوجان يعقدان اجتماعاتهما الرسمية محاطين بحاشية تبذل لهما الكثير من مظاهر الاحترام والتبجيل - أن يتقدم أولا إلى دورامين ليقبل يده التى كان يتركها أبوه له فى شيء من العظمة ، ثم يخطو إلى حيث كانت تجلس أمه فيقف إلى جانب مقعدها . وأستطيع أن أقول إنهما كانا يعبدانه عبادة . ولكني لم أرهما مرة واحدة يوجهان إليه نظرة تكشف عن شعورهما. وكانت تلك الاجتماعات بالطبع جزءاً من واجباتهما العامة ؛ وكانت الغرفة تزدحم عادة بالناس ؛ وكانت المراسم الجادة للتحيات ،

والاستئذان فى الانصراف،والاحترام العميق الذى يظهر فى حركات الأيدى،وعلى الوجوه، وفى الهمس الخفيض، شيئاً يجل عن الوصف . وقال لى جيم ونحن نعبر النهر فى طريقنا إلى الرجوع « إنها أشياء تستحق أن تراها » ثم قال فى زهو، « إنهم كالناس الذين تقرأ عنهم فى الكتب، أليس كذلك ؟ ثم إن دين وارس — ولدهما — هو خير صديق لى... بعدك. إنه كان أحد هؤلاء الذين كان مستر شتاين يطلق عليهم اسم « رفقاء السلاح ». لقد كنت محظوظاً بحق السماء.. كنت محظوظاً حين هبطت إلى هذه الجماعة،وأنا فى النفس الأخير» ثم استغرق فى التأمل وهو يطأطىء رأسه. وبعد ذلك أيقظ نفسه من تأملاته وأضاف: « وبالطبع فإنى لم أستسلم للنوم اطمئناناً لهذا الحظ، ولكن ...» ثم توقف ثانية عن الكلام . وبعد فترة قال فى همس، « إنى قد أحسست بشىء يهبط على، شىء جعلنى أرى فى وضوح تام ما يجب على عمله ... »

ولم يكن هناك شك فى أنه قد هبط عليه شىء ما.وأن هبوط ذلك الشىء كان بسبب الحرب أيضاً ؛ كما ينتظر من طبيعة الأشياء . حيث إن ما هبط عليه كان قوة — قوة لفرض السلام.وفى هذا المعنى فقط نستطيع أن نقول : إن القوة حق . ولكن يجب ألا تظنوا أنه رأى الطريق أمامه واضحة فى الحال.لأنه عند وصوله كانت جماعة «البوجيز» (جماعة دورامين) فى موقف حرج للغاية . وقال لى جيم . « إنهم

كانوا جميعاً خائفين .وكان كل منهم يخشى على نفسه.وذلك فى الوقت التى كنت أرى فيـــه بغاية الوضوح أنه لا بد لهم من عمل شىء فى الحال ، إن أرادوا ألا يهلكوا الواحد بعد الآخر. فقد كانوا محاصرين بين الراجا ألانج ، وبين ذلك الشريف الوغد ». ولكن رؤيته لذلك لم تكن تساوى شيئاً.فحين خطرت له هذه الفكرة كان عليه أن يقنع بها الآخرين الذين لم يتحمسوا لها، كان عليه أن يدخلها إلى عقولهم من خلال ذلك الحاجز من الخوف والأنانية . ولقــد نجح فى إقناعهم بالفكرة ، ولكن ذلك أيضاً لم يكن يساوى شيئاً ، فقد كان عليه أن يجد الوسائل . وحين وجد الوسائل لخطته المغامرة، كان قد أنجز نصف مهمته فقط .فقد كان عليه أيضاً أن يوحى بالثقة فيه إلى أناس كثيرين تخلفوا عن السير معه لأسباب خفية أو تافهة. فكان عليه أن يوفق بين الناس بإزالة الأحقاد البلهاء من صدورهم.وأن يقنعهم بتفاهة الأسباب التى تدعوهم لسوء الظن وعدم ثقة أحدهم فى الآخر .من غير مكانة دوراماين بين قومه وسلطته عليهم ، من غير حماسة ابنه الملتهبة ، ما كان يمكن لجيم أن يحقق شيئاً من النجاح . فلقد كان دين واريس ، الشاب الممتاز هو أول من وثق فيه ، وانضم تحت لوائه . وكانت صداقتهما من ذلك النوع الغريب العميق من الصداقات بين رجـل أسمر ورجل أبيض . حيث يبدو اختلاف الجنس بينهما وكأنه يقرب أحدهما من الآخر بطريقة غامضة لعل فاصلة بها لفت الأرواح . وكان قوم دين واريس يقولون عنه فى شىء

من الكبرياء إنه كان يعرف كيف يقاتل كرجل أبيض . وكان ذلك صحيحاً . ثم إنه كان له عقل أوربي أيضاً : فلقد يقابل المرء أحد الوطنيين الذين لهم هذه الميزة ، بطريق الصدفة في بعض الأحيان ، ثم يعجب حين يكتشف على غير انتظار ، أن له طريقة في التفكير ليست غريبة عليه وأن له نظراً صادقاً ثاقباً إلى الأشياء،واستماتة في الوصول إلى الهدف،مصحوبة بلمسة من الإيثار؛ وكان دين واريس ذا جسم ضئيل ولكنه متناسب الأجزاء بصورة تدعو إلى الإعجاب.وكان يشد قامته في كبرياء ويعامل الناس بطريقة مهذبة سهلة لا أثر للتعمل فيها ، وان كان له طبع كالذهب الصافي . وكان وجهه الأسمر ، بعينيه السوداوين الكبيرتين ، معبراً في الحركة ومفكرا في السكون . وكان لا يميل إلى كثرة الكلام . وكانت نظرته الثابتة ، وابتسامته الساخرة وسلوكه المجامل توحي بما عنده من الذكاء الكامن، والقوة التي يمكن أن تظهر عند الحاجة . ومثل هؤلاء الأشخاص يكشفون لعين الغرب التي غالباً ماتهتم بمجرد السطحيات، عن الإمكانيات الخفية للشعوب والبلاد التي يلفها غموض العصور التي لم يسجل تاريخها . واعتقادي الراسخ أنه لم يثق في جيم فقط ، بل كان يفهمه أيضاً . وأنا أتحدث عنه إليكم لأنه أسرني بخصاله. فقد كانت رصانته الحاذقة — إن جاز لي ذلك التعبير — التي كانت مصحوبة في الوقت نفسه بالفهم الذكي العميق لما كان جيم يصبو إليه

محببة إلى نفسى ؛ ولقد خيل إلى أننى أرقب الأصل الأول لكيان الصداقة . فإن كانت القيادة قد عقدت لجيم ، فلقد أسر الرجل الآخر قائده ؛ والحق أن جيم القائد كان أسيراً بكل معانى هذه الكلمة ، فلقد كانت البلاد وأهلها ، وكانت صداقته وكان ، حبه ، حراسا غيورين على جسده . وكان كل يوم يضيف حلقة أخرى إلى سلاسل حريته الغريبة ؛ ولقد اقتنعت بهذا بعد أن كان علمى بتفاصيل هذه القصة يزيد يوماً عن يوم :

القصة :: ألم أسمع بالقصة ؟ نعم لقد سمعتها ، ونحن نسير ، ثم ونحن فى المعسكر (فلقد جعلني أسير فى كل شبر من البلاد بحثاً عن صيد لا أثر له) ؛ ولقد استمعت إلى جانب كبير منها فوق قمة أحد التلين التوأمين بعد أن تسلقت الثلاثمائة قدم الأخيرة على يدى وركبتى ؛ وكان أحد حراسنا (وكان كثيرون يتطوعون لصحبتنا من قرية إلى قرية) قد أقام معسكراً أثناء تسلقنا على قطعة أرض مسطحة ، فى منتصف التل ؛ وفى ذلك المساء الذى هدأت أنفاس الريح فيه ، كانت رائحة الخشب المحترق تصل إلى أنوفنا صاعدة إلينا فى رقة نفاذة. كأنها إحدى الروائح الزكية الممتازة. وكانت الأصوات ترتفع إلينا فى رقة نفاذة أيضاً ، جميلة الوقع فى وضوحها وصفائها الذى لا أهمية له ؛ وكان جيم يجلس على جذع شجرة مقتلعة وهو يدخن غليونه ؛ وكان حولنا العشب والشجيرات التى أخذت تنمو

من جديد . وكان هناك آثار لتحصينات من الطين تحت كومة من فروع الشجر المليئة بالأشواك . وقال لى جيم . بعد صمت طويل من التأمل « إن كل شىء بدأ من هنا » وعلى التل الآخر الذى كان يبعد عنا بحوالى مائتى ياردة عبر هاوية مظلمة كنت أرى صفاً من الأعمدة الخشبية العالية المسودة ،تكشف هناوهناك من خلال فتحاتها المخربة عن بقايا معسكر الشريف على الذى كان يظن أنه لا يمكن الوصول إليه .

ولكن هذا المعسكر قد استولى عليه رغماً عن ذلك : وكانت هذه هى فكرة جيم . فكان قد وضع مدفعية دورامين على قمة ذلك التل ، وكانت هذه المدفعية عبارة عن مدفعين حديديين صدئين من عيار سبعة أرطال . وكثير من المدافع النحاسية الأخرى. المصنوعة من نحاس العملة . ولكن إن كانت هـــذه المدافع النحاسية تمثل ثروة ، فإنها تستطيع إلى جانب ذلك إن عبئت ماسورتها بالبارود حتى الحافة أن ترسل طلقة ذات أثر إلى مسافـــة قريبة . وكانت المعضلة هى نقل هذه المدافع إلى قمة التل . وأرانى المكان الذى ربط إليه « الكابلات » وفسر لى كيف صنع نوعاً من الآلة الرافعة البدائية (كابستـــان) من جزع شجرة أجوف يدور حول عرق مدبب من الخشب . ورسم بمؤخرة غليونه التحصينات الترابية التى أقامها ، وكانت المائة قدم الأخيرة فى الرفع هى أصعب المراحل،وكان قد أخذ

مسئولية نجاح العملية على عاتقه مغامراً برأسه عليها . ونجح فى جعل جماعة المقاتلين يعملون بجد طول الليل. وأشعلت النيران فى فترات متقاربة كى تنير السفح. ولكنه قال : « أما هنا فكان يجب على الجماعة التى تقيم المدافع أن تعمل فى الظلام » . وكان يستطيع من القمة أن يرى الرجال تحته وهى تتحرك على سفح التل كالنمل وهو يعمل ؛ وكان هو نفسه فى تلك الليلة يداوم النزول والطلوع على التل كأنه سنجاب ، وهو يرشـــد ويشجع ويرقب على طول الخط . وأمر دورامين العجوز بأن يرفع على التل فى مقعده المريح ، فوضعوه فى المكان المسطح على سفح التل. وجلس هناك على ضوء نار من النيران المشتعلة على التل . وقال جيم ، « رجل مدهش . وزعيم قبيلة من الزعماء الحقيقيين بعينيه الصغيرتين المفترستين ، ومسدسين من الحجم الهائل من ذوات الزناد الحجرى القديم على ركبتيه . وكانتا قطعتين من الروائع مطعمتين بالأبنوس والفضة ولكل منهما زناد جميل . وكانتا من ذلك العيار الكبير الذى يشبه عيار القرابينة القديمة المعروفة باسم « بلاندريس » . وكانا هدية من شتاين مقابل ذلك الخاتم الفضى . ولعلهما كانا فى الأصل ملكا لماكنيل العجوز ، والله وحده هو الذى يعلم من أين حصل عليهما . وهناك جلس دورامين ، وهو لا يحرك يداً ولا قدما ، ووراءه لهيب خشب جاف ، وحوله كثير من الناس يندفعون وهم يصرخون ويدفعون — كأكثر ما تتصور أن يكون عليه رجل عجوز من الجد والتأثير فى النفس وبالطبع ،

ما كان سيكون أمامه فرصة للخلاص ، لو أن الشريف على كان [قد] أطلق علينا أتباعه الملاعين ليسوقوا أمامهم رجالنا ويوقعوا بهم الرعب الشديد. أليس كذلك؟ وعلى كل. فقد صعد إلى هناك ليموت إن فشلت الخطة وهذه هي الحقيقة بحق السماء ! ولقد امتلأت بالنشوة وأنا أراه جالساً هناك كالصخرة . ولكن لابد أن الشريف قد ظننا مجانين : ولم يكلف نفسه مشقة الحضور إلينا ليرى كيف كنا نسير في عملنا . والحق أن أحدا لم يصدق أننا سننجح في خطتنا : . ولا حتى الرجال الذين كانوا يشدون ويدفعون ويعرقون في ذلك العمل ، كانوا لا يعتقدون أنه من الممكن أن يتم : إني أقسم بشرفي إني لا أظن أنهم .... »

ووقف جيم منتصباً وغليونه الذي يتصاعد منه الدخان في يده والابتسامة على شفتيه ، واللمعان في عينيه اللتين تشبهان عيون الصبية الصغار : وجلست أنا على بقية شجرة مقطوعة عند قدميه وتحتنا كنا نرى الأرض الممتدة بساحاتها الشاسعة من الغابات الداكنة تحت ضوء الشمس وهي تموج كالبحر : ولمعان أنهارها المتعرجة ، وقراها التي ظهرت كالبقع في لون الرماد ، وقطع الفضاء المتفرقة وسط الغابات كجزر صغيرة من النور وسط بحر مظلم من رءوس الأشجار لا نهاية له . ولقد كان الظلام يخيم على هذه الصورة الطبيعية الرتيبة المتسعة الرقعة . وكان النور يسقط عليها كما لو كان يسقط في هاوية سحيقة : فلقد كانت هذه الأرض تفترس نور الشمس فقط في الأفق البعيد على طول الساحل : كان البحر ناعماً لامعاً في غمامته الشاحبة

يبدو وكأنه يرتفع إلى السماء فى هيئة حائط من الصلب :

وهناك كنت معه ، على قمة تله التاريخى العالى ، فى ضوء الشمس . فخيل إلى أنه عملاق يسيطر على الغابة ، تلك المملكة المعتمة ، وعلى الجنس الإنسانى القديم . فقد كان كتمثال أقيم على قاعدته ليمثل فى شبابه الباقى القوة ، وربما الفضائل ، للشعوب التى لن تشيخ أبداً ، والتى خرجت لتوها من الظلام ... وإنى لا أدرى لماذا كان جيم يظهر أمامى دائما فى صورة الرمز . ولعل هـذا هو السبب الحقيقى لاهتمامى بمصيره : ثم إنني لا أدرى إن كان من الإنصاف له أن يتذكر المرء ذلك الحادث الذى غير اتجاه حياته . ولكنني كنت فى تلك اللحظة أتذكر ذلك الحادث بوضوح . وكنت أراه كالظل فى الشمس .

الفصل السابع والعشرون

وكانت الأسطورة قد أضفت على جيم قوى خارقة من نسيج المعجزات . فكان يقال : « صحيح أنه كان هناك حبال كثيرة أعدت بمهارة . وكان هناك أيضاً آلة غريبة يديرها كثير من الرجال ، وأن كل مدفع كان يصعد فى بطء ممزقاً الشجيرات التي تعترض طريقه كأنه خنزير برى يشق لنفسه طريقاً بين شجيرات الغابة القصيرة ، ولكن . » وهنا كان العقلاء منهم والشيوخ ذوو الحكمة يهزون رءوسهم « لابد أنه كانت هناك قوة سحرية تلعب دورها فى ذلك العمل : إنه لاشك فى ذلك . إذ ماذا يمكن للحبال وأذرع الرجال أن تفعل ؟ إن هناك روحاً متمردة فى كيان الأشياء ، ولابد من التغلب على هـذه الروح بالسحر والتعاويذ القوية » . وهذا هو ما قاله لى سورا العجوز - وهو أحد رؤساء الأسر المحترمين فى باتوزان - حين جمعتنا الصدف ذات أمسية فى حديث هادئ . وعلى أية حال كان « سورا » هذا من السحرة المحترمين أيضاً . وكان يحضر بذور الأرز وحصاده لأميال عديدة حول باتوزان ؛ كى يخضع تلك الروح العنيدة فى كيان الأشياء . وكان يعتقد أن هذه المهمة من أصعب المهام : ولربما كان على حق فلقد تكون هذه الروح فى كيان الأشياء أصعب مراساً من أرواح الآدميين . . أما

القوم البسطاء الذين كانوا يعيشون فى القرى القريبة فقد كانوا يعتقدون وكانوا يقولون . (وكأنه شيء طبيعى جـداً) إن جيم كان يحمل المدافع إلى التل على ظهره ، اثنين منهما فى كل مرة .

وكان ذلك يجعل جيم يضرب الأرض بقدميه فى ضيق ويقول فى ضحكة صغيرة تدل على شعوره بالعجز « وماذا تستطيع أن تفعل بهؤلاء الشحاذين الحمقى؟ إنهم يجلسون جانباً كبيراً من الليل ليتحدثوا بهذا الكلام الفارغ . وكلما كانت الكذبة كبيرة ، زاد حبهم لها على مايظهر » . وكنت تستطيع أن ترى أثر نفوذ البيئة عليه ، فى ذلك الضيق الذى كان يشعر به ، فلقد كان ذلك جزءاً من وقوعه فى الأسر ولقد ضحكت مما كان يبديه من الجد فى إنكاره لهذه الوقائع . فقلت له : « ياصديقى العزيز ، هل تعتقد أننى أصدق ذلك؟» فنظر إلى فى دهشة كبيرة وقال « كلا .. إنني لا أظن ذلك » . ثم انفجر ضاحكاً ، ثم صاح قائلا ، « ومهما يكن من شيء ، فإن المدافع كانت فى أماكنها . وانطلقت جميعها فى وقت واحد عند شروق الشمس . وكان يجب أن ترى الشظايا وهى تطير عندئذ ؟ » وكان يجلس إلى جانبه دين واريس يصغى بابتسامة هادئة على شفتيه ، فأسبل أجفانه ، وحرك قدميه قليلا . ويظهر أن نجاح جيم فى إقامة المدافع فى مواضعها كان قد أضفى على قومه شعوراً من الثقة بأنفسهم جعله يجرؤ على ترك المدافع لقيادة كهلين من البوجيز ، سبق لهم القتال فى بعض المعارك القديمة فى زمانهم ، وذهب هو لينضم إلى دين واريس وجماعته التى أعدت الهجوم حيث

كانوا مختبئين فى التجويف الذى كان بين التلـين . وفى الساعات الأولى ، بدأ هؤلاء الرجال زحفهم ، وحين وصلوا إلى ثلثي المسافة من قمة التل إلآخر رقدوا فى العشب المبتل، ينتظرون طلوع الشمس التى كانت ساعة الصفر المتفق عليها . وحدثنى جيم عن انفعاله، وما كان يشعر به من العذاب ونفـــاد الصبر ، وهو يرقب مجىء الفجر السريع. وكيف أنه قد أحس ـ وهو يتصبب عرقاً مما بذل من جهد فى العمل وفى التسلق ـ بالندى البارد تسرى برودته فى جسده إلى عظامه . وكيف أنه كان يخشى أن تصيبه رعشة تجعله يهتز كورقة الشجر قبل أن يحل وقت الهجوم . وقال لى « إنها كانت أبطأ نصف ساعة فى حياتى » ... وتدريجيا ظهر منظر المعسكر فوقه على صفحة السماء . وكان الرجال المنتشرون فى أنحاء المنحدر حتى السفح يجلسون القرفصاء مختفين على الأحجار السوداء بين الشجيرات المشبعة بماء الندى . وكان دين واريس يرقد مسطحاً على الأرض إلى جانبه . وقال جيم وهو يضع يده برفق على كتف صديقه ، « ونظر أحدنا إلى الآخر وابتسم لى إبتسامة مليئة بالود والسرور، ولكننى لم أستطع أن أحرك شفتى خوفاً من أن تصيبنى نوبة من الرعشة. وصدقنى إن ذلك صحيح . فلقد كنت أتصبب عرقاً حين التجأنا إلى الشجيرات انتظاراً للفجر . وعلى هذا يمكنك أن تتصور ... »

وإنى لأعتقد أنه لم يكن يخشى ، أو يشك فى النتيجة. فكل ما كان يتملك عليه تفكيره حينئذ، هو خوفه ألا يستطيع أن يمنع هذه الرعشة .

أما النتيجة فلم تكن تقلق باله،لأنه كان قد عقد العزم على أنه لا بد له من الوصول إلى قمة ذلك التل والبقاء هناك على الرغم من كل ما يمكن أن يحدث . فلقد قطع وراءه كل طريق للرجعة . لأن هؤلاء الناس كانوا يضعون ثقتهم المطلقة فيه .. فيه دون غيره . فى مجرد كلمته.

وإنى لأتذكر كيف توقف جيم عن الكلام ، عند هذه النقطة ، وهو يحدجنى بنظرة ثابتة . ثم استأنف حديثه قائلا : « وعلى حد علمى فإنهم لم يجدوا سبباً للندم على ذلك إلى الآن » . إنهم لم يندموا على ذلك إلى تلك اللحظة، وهو يرجو الله ألا يندموا على ذلك أبداً . ولكنهم إلى جانب ذلك — للحظ العاثر — كانوا قد اعتادوا الآن أن يطلبوا منه كلمته فى أى شىء ، وفى كل شأن من شئونهم : وإنى كنت لا أستطيع أن أتصور ذلك. فمثلا منذ أيام قليلة حضر إليه أحد الحمقى الذى لم يقع نظره عليه فى حياته من قبل من قريته البعيدة ليعلم إن كان يستطيع أن يطلق زوجته .. وهذه هى الحقيقة . وهو يقسم على ذلك . هـــذا هو نوع الأشياء ... وإنه لم يكن يصدق ذلك . وهل أستطيع أنا تصديق ذلك ؟وجلس الرجل فى الشرفة وهو يمضغ بندق البيتل،ويتنهد ، ويبصق فى كل مكان لفترة تزيد على الساعة ، وقد تجهم وجهه كأنه حانوتى،قبل أن يفصح عن ذلك اللغز الذى أتى من أجله . وذلك من الأشياء التي هى أقل إثارة للضحك مما يظهر على السطح ، وماذا كان يستطيع المرء أن يقول ؟ فسأله إن كانت

زوجة طيبة ؟ فقال نعم ، إنها زوجة طيبة وإن كانت سنها متقدمة بعض الشيء. ثم أخذ يقص عليه قصة طويلة لها علاقة ببعض الأوانى النحاسية . ولقد عاشا معا خمسة عشر أو عشرين عاماً فهو لا يتذكر ولكنه كان زمنا طويلا ، طويلا جداً على كل حال : وكان لا بد له من ضربها من أجل شرفه. وفجأة وبعد أن تقدمت بها السن ذهبت إلى بيت ابن أخيها وأقرضت زوجته ثلاث أوان نحاسية . وبدأت تشتمه كل يوم بصوت عال . مما جعل أعداءه يسخرون منه ، وجعل وجهه يسود. أما الأوانى فقد فقدت . وكان الرجل فى غاية الغضب بسبب ذلك . ولما كان من المستحيل أن يصل المرء إلى قرار المشكلة من ذلك الحديث ، فقد أمره جيم بالذهاب إلى بيته ، ووعده بالحضور إلى هناك بنفسه ليجد حلا لذلك : إنه سهل عليك أن تضحك ؛ ولكنها كانت مشكلة من أعقد المشكلات وأبعثها على الضيق.. فلقد قضيت يوماً كاملا خلال الغابة ، لكى أصل إلى هناك، وقضيت يوما آخر وأنا ألاطف كثيرا من القرويين الحمقى كى يرجعوا إلى لب المسألة . ولقد كانت هذه المسألة مليئة بالاحتمالات الدموية فلقد اتخذ كل أحمق فى القرية جانب إحدى الأسرتين المتعارضتين ، واستعد نصف سكان القرية لمهاجمة النصف الآخر بأى شيء فى حوزتهم ، ولم تعد المسألة هزلا ... وذلك بدلا من الانتباه إلى رعاية زراعتهم . فأحضرت إليه أوانيه الملعونة بالطبع — وأحللت السلام بينهم : ولم تحتج المسألة إلى مشقة كبيرة لإنهائها » : بالطبع لا ،

فقد كان يستطيع أن يحسم أعنف الخلافات فى البلاد بحركة من أصبعه الصغيرة . وكانت المشقة فقط هى فى الوصول إلى جانب الصدق فى هذه القضايا . فلم يكن متأكداً من أنه قد عدل بينهم جميعاً. وكان ذلك يؤرقه . ثم الكلام !.. فبحق السماء ، إنه كان لا يعرف لما يقولون رأساً أو ذنباً . وكان أسهل عليه من الاستماع إليهم أن يقتحم أى معسكر قديم حتى ولو كان سوره يرتفع إلى عشرين قدماً . نعم .. إن مثل هذا العمل يبدو له كلعب الأطفال، إن قارنه بالعمل الآخر . ثم إنه أيضاً لا يستغرق ذلك الوقت الطويل الذى يستغرقه العمل الآخر . نعم ، لقد كان موقفاً يوجب الضحك فى مجموعه — فلقد كان ذلك الرجل الأحمق فى عمر جده . ولكن، من ناحية أخرى، لم يكن الأمر هزلا. وكانت كلمته تحسم كل شىء منذ أن وجه ضربته القاضية إلى الشريف على . ثم قال جيم للمرة الثانية « إنها مسئولية كبيرة . وإذا تركنا الهزل جانباً ، فإن هـذه المسألة ما كانت تتغير لو كان سببها هو فقد ثلاثة أرواح بدلا من ثلاث أوان نحاسية لا قيمة لها .... »

وهكذا صور الأثر النفسانى لانتصاره فى الحرب . ولقد كان فى حقيقة الأمر أثراً عظيماً. فقاده من الحرب إلى السلام ، ومن خلال الموت إلى صميم حياة الناس الداخلية . ولكن ظلام الأرض ، الذى كان ينتشر تحت ضوء الشمس احتفظ بمظهره من

تلك الراحة ، وذلك الاسترخاء الذى لا يمكن اختراقه . ولكن وقع صوته المعبأ بالصحة والشباب (وكان من الغريب ألا يظهر عليه أى علامة مما يتركه الزمن فى مروره على بنى الإنسان) كان يطفو فى خفة ، ثم يختفى فوق وجه الغابات الذى لا يتغير ، وكأنه صوت المدافع الكبيرة فى بكور ذلك الصباح البارد المندى ، حين لم يكن يقلق باله شىء آخر على سطح الأرض غير التحكم فى تلك الرعشة التى كادت تنتاب جسده . فحين ظهرت أول أشعة للشمس ، على قمم هذه الأشجار التى لا تتحرك ، اهتزت قمة أحد هذين التلين ، بالطلقات الثقيلة، ولفت نفسها فى سحب من الدخان، بينما انفجرت الأخرى فى ضوضاء مذهلة من الصراخ وصيحات الحرب وزمجرة الغضب ، والدهشة وخيبة الأمل . وكان جيم ودين واريس هما أول من وصل إلى المعسكر . وكانت القصة الشائعة بين أهل البلاد تقول إن جيم بلمسة من أصبعه أسقط البوابة على الأرض . وكان جيم بالطبع ينكر بشدة هذا العمل الخارق . وكان يصمم على أن يشرح لك ، أن كل تحصينات المعسكر كانت من النوع الضعيف . « وكان الشريف على يعول فقط على موقعه الذى لا يمكن الوصول إليه » . وعلى كل حال ، فقد دك كل شىء فى ذلك المعسكر دكاً وكان مجرد تماسكه فى هيئته الأولى معجزة من المعجزات . ولكنه كان قد وضع كتفه إلى البوابة كالأحمق، وإذا به يسقط معها على الأرض ورجلاه فوق رأسه . وقال إنه لولا وجود دين واريس ، لاستطاع أحد الأوغاد فى ذلك

المعسكر ، وكان لهوجه مغطى بالوشم وآثار الجدرى، أن يسمره بحريته فى قطعة من الخشب كإحدى خنافس شتاين . ويبدو أن ثالث الرجال الذى وصل إلى المعسكر كان تامب إيتام . وهو خادم جيم الخاص وكان أحد الرجال الملايو الذين حضروا من الشمال ؛ وكان من الغرباء الذين دخلوا باتوزان فى جولة من جولاتهم ، فأبقاه الراجا ألانج قوة وقسراً ، كمجدف لأحد القوارب الحكومية. ولكنه هرب حين سنحت له أول فرصة حيث وجد ملجأ غير أمين (ولكن دون أن يجد إلا القليل جداً من الطعام) بين جماعة البوجيز : وعلى هذا فقد التحق بخدمة جيم . وكان شديد السواد ، ولهوجه مسطح وعينان كبيرتان مليئتان بالصفرة . وكان هناك شىء مبالغ فيه يكاد يتسم بالتعصب فى تفانيه فى الإخلاص لسيده « اللورد الأبيض » فكان لا يفترق عنه وكأنه ظله المتجهم . وكان يمشى فى عقبى سيده فى المناسبات الرسمية، ويده على قبضة خنجره يمنع الناس من الاقتراب منه بنظراته الحادة الثاقبة التي ترقبهم : وكان جيم قد جعله رئيساً على بيته ومن فيه : فكانت باتوزان كلها تحترمه وتخطب وده كرجل ذى سلطة فى البلاد . وكان قد اكتسب شهرة كبيرة فى المعركة التى اقتحم فيها معسكر الشريف بما أبداه حينئذ من الوحشية المدروسة فى القتال: وقال لى جيم إن فرقة الهجوم كانت قد حضرت فى سرعة خاطفة ، حتى إنه رغماً عن الفزع الذى كان يسود المعسكر وحاميته ؛ « فإن قتالا بالأيدى قد نشب داخل المعسكر واستمر أواره لمدة

خمس دقائق حتى خطر لحمار آدمى أن يشعل النار فى الأكواخ المصنوعة من العشب اليابس وفروع الأشجار فاضطررنا جميعاً أن نهرب من المكان خوفاً على أرواحنا » ؟

ويبدو أن الهزيمة التى لحقت بالشريف على كانت هزيمة ساحقة، وتلقى دوراموين أنباء المعركة بنفرة ارتياح عميقة من منخريه ، وهو جالس بلا حراك على مقعده فى جانب التل ، ودخان المدافع ينتشر ببطء فوق رأسه الكبير . وحين علم أن ولده كان بخير ، وكان الآن يتزعم مطاردة العدو بذل - دون أن يصدر عنه صوت آخر - جهداً كبيراً لكى ينهض . فأسرع إليه تابعاه ، وخطا بضع خطوات فى وقار جم بمعونتهما إلى بقعة ظليلة . حيث رقد لينام ، تغطى جسده ملاءة بيضاء من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه . وفى باتوزان أخذ إظهار السكان لشعورهم ، مظهر الحمى . وقال لى جيم إنه حين أدار ظهره الى المعسكر بجمراته ورماده الأسود، وجثثه التى لم يتم احتراقها كان يرى من فوق التل بين فتحات البيوت ، وعلى ضفتى النهر جموعاً من الناس ، تظهر بين حين وآخر وهى مندفعة ، ثم لا تلبث أن تختفى بعد لحظة . وكانت تصل إلى أذنه بصعوبة من أسفل التل ضوضاء الطبول ودقات الدفوف . وكانت الصرخات المحمومة للجماعات تصل إليه على شكل زئير خافت متقطع . ورأى أعلاماً كثيرة بين الأسقف السمراء المتلاصقة ، ترفرف كأنها طيور اختلفت ألوانها ،

فكان فيها الأبيض والأحمر والأصفر . فهمست إليه ، وقد أحسست بنفس الشعور الذى كان يجتاحه : « لابد أنك تمتعت بهذا المنظر »

فصاح بصوت عال ، وهو يفتح ذراعيه كأنه يضرب بهما الهواء : « إنه كان منظراً ... رائعاً !... رائعاً ! » ولقد أدهشتنى تلك الحركة المفاجئة من يديه ، كما لو كان قد كشف بها عن أسرار صدره إلى ضوء الشمس ، إلى الغابات الحالمة ، إلى بحر الصلب السائل. وتحتنا كانت المدينة ترقد فى منحنياتها الهادئة على ضفاف مجرى للمياه ، خيل إلى أن تياره قد استسلم للنوم . ثم كرر كلمة ، « رائعاً ! » للمرة الثالثة وكان يهمس بها فى هذه المرة لنفسه فقط .

رائعاً ! وأى شك فى أنه كان رائعاً . رائعاً ، كان طابع النجاح على كلماته ، ورائعاً كانت الأرض بحق الفتح تحت نعال قدميه ، ورائعاً كانت ثقة الرجال العمياء فيه ، ورائعاً كانت ثقته فى نفسه التى انتزعها من النار ، ورائعاً كان شعوره بالوحدة فيما وصل إليه من مجد ... وكل ذلك كما حذرتكم من قبل تنتقص الرواية من قدره : فإنى لا أستطيع بمجرد الكلمات أن أنقل إليكم أثر هذه العزلة الكاملة الشديدة التى كان فيها . إنى أعلم بالطبع ، أنه كان بكل معنى من المعانى الوحيد من جنسه فى هذه الأنحاء. ولكن خصائص طبيعته التى لم يكن يستطيع أحد التنبؤ بوجودها قد وصلت ما بينه وبين البيئة التى كانت تحيط به حتى بدت عزلته وكأنها أثر لما كان يتمتع به من سلطة وقوة ليس إلا : فلقد رفعت وحدته من قدره وأعلت من مكانته. فلم يكن هناك شىء

على مدى البصر ، يمكن أن يتمارن به ، وكأنه كان أحد أولئك الرجال الذين يعتبرون من الفلتات،ولا يقاسون بالمقارنة ولكن بمدى العظمة التي وصلت إليها شهرتهم فقط . وأنتم تتذكرون أن شهرته كانت من العظمة بحيث لم يكن المرء يسمع باسم غير اسمه على مدى رحلة أيام فى كل اتجاه .فقد كان لابد لك من اختراق المياه الضحلة والعميقة فى القوارب ، وأن تشق طريقك الطويل المجهد فى مسارب الغابة لأيام كثيرة ، حتى تصل إلى مكان، لاتسمع فيه عنه. ولم يكن صوت شهرته ، هو الطبول التي تقرعها تلك الآلهة ذات السمعة السيئة التى نعرفها جميعاً : لم يكن ذلك الصوت العالى الملىء بالضجيج، ولم يكن الصوت الخشن الذى لاحياء فيه، ولكنه كان صوتاً صيغت نبراته من طبيعة ذلك الهدوء ، وذلك الإعتام، الذى يخيم على هذه الأرض التي لاماضى لها،حيث كانت كلمته هى الحقيقة الوحيدة التي يسجلها كل يوم يمر . كان له نصيب من طبيعة ذلك السكون الذى كان يصحبك خلاله إلى أعماق مجهولة ، وتحس به دائماً إلى جانبك نفاذا ، قادراً على الوصول إلى مدى بعيد ممتزجاً بشيء من العجب والغموض على شفاه الهامسين من الرجال .

الفصل الثامن والعشرون

وهرب الشريف على من باتوزان ، بعد هزيمته ، دون أن يقف وقفة أخرى للقتال ، وحين زحف القرويون البائسون المطاردين ، راجعين من الغابة إلى ديارهم التى شملها الخراب : كان جيم هو الذى عين رؤساءهم ، مستنيراً برأى دين واريس . وبذلك كان قد أصبح الحاكم الفعلى للبلاد . أما عن توكو ألانج العجوز ، فإن رعبه فى أول الامر كان قد جاوز كل حد . وقيل إنه عندما سمع بأخبار الهجوم الناجح على التل ، رمى بنفسه على خشب أرضية الحجرة التي يستعملها لاستقبالاته الرسمية ، ووجهه إلى أسفل ، وظل على هذا الوضع لا يبدى حراكاً ليلة كاملة ونهاراً بطوله ، وهو يخرج أصواتاً مكبوتة مفزعة إلى حد لم يجسر أحد معه على الاقتراب من جسده الممدد ، إلى مسافة أقرب من طول الحرية ، فلقد صور لنفسه حينئذ أنه قد تم طرده من باتوزان فى ذلة واحتقار ليتجول وحيداً ، مجرداً من ممتلكاته ، وأفيونه ونسائه ، وأتباعه ، وأصبح هدفاً سهلا لأول قادم يريد الفتك به . فبعد الشريف على كان لابد أن يأتى دوره . ومن ذا الذى كان يستطيع أن يقف فى وجه هجوم يقوده ذلك الشيطان ؟ وفى الواقع أنه كان مديناً بحياته ، وبكل ما كان يتمتع به من سلطة

حين زيارتى إلى ما كان يعتقد جيم أنه العدل. أما البوجيز فقد كانوا يتحرقون شوقاً إلى الأخذ بأثآرهم القديمة منه. وأما دورامين العجوز الذى كان يعرف كيف يخفى مشاعره، فقد كان صدره يجيش بالأمل فى أنه سيرى ابنه حاكماً على باتوزان متى آن الأوان. وفى لقاء من لقاءاتنا أتاح لى عن قصد أن ألقى نظرة على هـذه الأطماع الخفية. ولم يكن هناك أجمل من طريقته الوقورة الحذرة وهو يقترب من هذا الموضوع ... وكانت ضخامة جسمه غير العادية، والنظرات المحكمة المستطلعة التى تمرق من عينيه الصغيرتين المليئتين بالكبرياء تذكر المرء فى إلحاح بصورة فيل ماكر عجوز. وكان صدره العريض يرتفع وينخفض فى بطء وقوة ورتابة كأنه موج بحر هادىء. وقال لى إنه هو أيضاً كان يثق فى حكمة لورد جيم ثقة لا حد لها. وأنه يتمنى فقط أن يحصل على وعد وأن كلمة واحدة ستكفيه. وكان السكون الذى يتخلل حديثه وهو يتنفس والقصف الخفيض فى صوته، يذكر بالجهود الأخيرة لعاصفة من الرعد أوشكت أن تنتهى ..

واجتهدت أن أرجىء الكلام فى هـذا الموضوع ولكن ذلك كان صعباً لأنه لم يكن هناك شك فى أن جيم كان صاحب السلطة. وفى نطاق نشاطه الجديد، كان الإنسان لا يستطيع أن يفكر فى شىء لا يملك جيم التحكم فيه: منحاً أو منعاً. ولكن ذلك - وأنا أكرر ذلك هنا - لم يكن شيئاً بالنسبة إلى تلك الفكرة التى خطرت لى ؛ وأنا أصطنع الانتباه إلى كلام دورامين ، وهى أن جيم ظهر وكأنه اقترب آخر الأمر جداً من

لتحكم فى مصيره . وكان دورامين قلقاً على مستقبل البلاد . ولقد فاجأنى بالاتجاه الذى أعطاه لمناقشتنا حيث قال إن الأرض تمكث حيث وضعها الله،أما الرجال البيض فهم يحضرون إلينا ثم بعد فترة يذهبون ... يذهبون بعيداً ، دون أن يدرى أولئك الذين يتركونهم وراءهم متى يرجعون . إنهم يذهبون إلى أوطانهم . وإلى ذويهم ولا بد لهذا الرجل الأبيض أيضاً أن يذهب ... ولا أدرى ما الذى دفعني إلى التورط عندهذه النقطة بإبداء معارضتي لذلك حين قلت لدورامين بشدة . « كلا ... كلا » . ولقد ظهرلى مدى ما كان لزلة اللسان هذه من أثر حين أدار دورامين وجهه بأكمله إلى . وكان تعبيره الذى رسمته التجعدات العميقة الخشنة ثابتاً لا يتغير كأنه قناع أسمر كبير الحجم .وقال وقد بدت عليه أمارات التفكير ، إن هذه أخبار طيبة حقاً . ولكنه يريد أن يعرف السبب فى أن جيم لن يذهب .

وكانت زوجته الضئيلة الحجم التي تشبه الساحرات و"لؤها عاطفة الأمومة تجلس إلى جانبي الآخر ، وقد غطت رأسها ووضعت قدميها تحتها ، وهى تنظر خلال الفتحة الكبيرة فى الحائط . وكان كل ما أستطيع أن أراه منها هو خصلة شعر أشهب اللون ، ضلت طريقها . وعظمة خدها المرتفعة ، ثم حركة فكيها المدبب وهى تمضغ شيئاً .ودون أن ترفع عينيها عن منظر الغابات التي كانت تمتد حتى التلال سألتني فى صوت حنون ما الذى جعل جيم وهو فى هذا الشباب الغض يترك وطنه ، ويقطع كل هذه المسافات فى أسفاره ، ليحضر

إلى هنا ، معرضاً نفسه لكل تلك الأخطار ؟ أليس له بيت هناك ؟ أليس له أقارب فى بلاده، أليس له أم عجوز ، ستظل دائماً تذكر صورة وجهه ؟ ...

ووجدت نفسى غير مستعد مطلقاً لهذه الأسئلة : فلم أستطع إلا أن أهمس ببعض الكلمات وأن أهز رأسى فى غموض . وإننى لأتذكر بوضوح كيف أنى بعد ذلك كنت جديراً بالرثاء ، وأنا أحاول أن أخرج نفسى من هذه الورطة . وعلى أية حال ، فلقد أمسكت هذه السيدة التى كانت من نسل النبلاء من قبيلة الناخوضا بعد هذه اللحظة، عن الكلام . أما دورامين ، فقد بدا عليه عدم الرضى ، ويظهر أنى كنت قد قدمت له موضوعاً للتأمل والتفكير . ومن الغريب بما فيه الكفاية ، أننى جابهت نفس السؤال ونفس الصعوبة فى الجواب عن السبب فى مصير جيم ، فى نفس مساء ذلك اليوم (الذى كان آخر أيامى فى باتوزان) وهذا يجعلنى أصل إلى موضوع حبه .

ولعلكم تظنون أنه يمكنكم أن تصوروا قصة حبه لأنفسكم ، فقد سمعنا الكثير من أمثال هذه القصص. وغالبيتنا يعتقد أن ماسمعناه ليس قصص حب على الإطلاق. فالجانب الأكبر منها هو فى تقديرنا من قصص الفرص : أحداث تتعلق بالهيام أو عاطفة الجنس المشبوبة ، وذلك فى القصص الجيدة منها : أو ربما كانت عن الوقائع التى تحدث للشباب ، وما يلقاه فى طريقه من إغراء . وهى قصص مصيرها النسيان فى آخر الأمر ، حتى وإن مرت بالتجارب، التى تمس قلوب

أبطالها بالمشاعر الرقيقة الصادقة وبالشكوى والندم : وهو رأى غالباً مايكون صواباً ، ولعله ينطبق على هذه الحالة أيضاً... ولكننى لاأدرى . فإننى لا أجد روايتى لهذه القصة من السهولة على ما يجب أن تكون ، إن كان رأينا فيها هو ذلك الرأى السائد الذى ذكرته آنفاً . ففى الظاهر ، هى قصة فيها شبه كبير بغيرها من القصص : أما بالنسبة إلى فإنى أجد فى خلفيتها صورة امرأة حزينة : هى ظل من الظلال لحكمة قاسية، مدفون فى قبر معزول ـ تنتظر فى أسى وعجز ، وشفاه مضمومة . وكان ذلك القبر حين رأيته فى الصباح المبكر فى أثناء نزهة لى على الأقدام ، كومة سمراء ، غير منتظمة الشكل من التراب ، يحيط به إطار أنيق من كتل الأصداف البيضاء فى قاعدته . وكل ذلك داخل سور مستدير من فروع الأشجار الصغيرة المشطورة التى لم تشذب . وكان هناك حبل من أوراق الأشجار والأزهار ، على رءوس هذه القوائم المدببة حول السور : وكانت الأزهار نضرة .

وعلى هذا ، فسواء أكان هذا الشبح هو وليد خيالى أم لا ، فإننى أستطيع أن أشير هنا إلى تلك الحقيقة التى لها مابعدها ، وهى وجود ذلك القبر الذى لم تسدل عليه ذيول النسيان . وحين أضيف إلى ذلك ، أن جيم قد أسهم بعمل يديه فى إقامة ذلك السور الريفى البسيط المظهر ، فإنكم ستدركون ما يميز تلك القصة عن غيرها ، وسترون فيها الجانب الإنسانى الذى يتصل بشخصيته الأصيلة . ففى تبنيه لذكرى شخص آخر ، وحبه له شيء يدل على ما تتميز به طبيعته من الجد ،

فلقد كان له ضمير . وكان ضميره من النوع الرومانسى ... ولم يكن لزوجة ذلك الرجل البغيض كورنيليوس طوال حياتها رفيق ولا صديق، ولا أحد تثق به غير ابنتها . أما كيف حدث أن تزوجت هذه المرأة المسكينة من ذلك البرتغالى الفظيع الذى جاء من ملقا، بعد أن تركها لوالد ابنتها. وأما كيف تمت هذه التفرقة بينها وبين الرجل الآخر، وهل كان السبب هو الموت ، وهو سبب رحيم فى بعض الأحيان ، أم كان السبب هو قسوة العرف السائد ... فذلك ما لا أعرفه . ومن القليل الذى جاء على لسان شتاين عن هـــذه القصة (وكان شتاين يعرف قصصاً كثيرة) تأكدت أن هذه المرأة لم تكن بالمرأة العادية ، وكان أبوها رجلا من البيض ، من كبار الموظفين ، ذوى الكفاءات الممتازة ، الذين كانوا لا يملكون تلك القدرات الصغيرة التى تبعث على الملل ، والتى لا بد من وجودها للاحتفاظ بالنجاح . وعلى ذلك كانت تنتهى حياتهم العملية محفوفة بالشبهات. وأظنها أيضاً، كانت تفتقر إلى تلك القدرات الصغيرة . وعلى ذلك فقد أنهت حياتها فى باتوزان . وذلك هو مصيرنا المشترك... إذ أين الرجل، وأعني بذلك، الرجل الحقيقى الذى يستطيع أن يشعر ويميز، الذى لا يتذكر ، ولو فى شىء من الغموض ، أن شيئاً أو إنساناً أعز عليه من حياته قد تخلى عنه فى الوقت الذى كان يظن فيه أنه كان يملكه ملكية كاملة؟ ... وهذا المصير المشترك يهدد النساء بقسوة تزيد عن قسوته مع الرجال : فهو لا يعاقبهن كسيد ، ولكنه يعذبهن عذاباً طويلا كما لو كان يريد بذلك أن يرضى حقداً خفياً لا سبيل إلى تهدئته : فإن المرء ليظن أن هذا المصير ،

فى الأرض ينتقم لنفسه من هؤلاء المخلوقات التى تجرؤ على الارتفاع عن تلك القيود وذلك الكبت الذى تمليه الحيطة على الإنسان . لأن النساء فقط هن اللائى يستطعن فى بعض الأحيان أن يدخلن فى حبهن عنصراً لا يظهر منه إلا الشيء اليسير، الذى يكفى لإثارة الرعب فى الإنسان — أن يدخلن فيه لمسة علوية ترتفع بنا عن الأرض . وإنى لأتساءل فى دهشة — كيف ينظر هؤلاء النساء إلى الدنيا — وهل يردن فيها الشكل والمضمون اللذين نراهما ، والهواء الذى نتنفسه ! إنى أتخيل فى بعض الأحيان، أنهن ينظرن إلى الدنيا كمكان مليء بالسمو والأشياء العلوية التى لا يقبلها العقـــل ، ويزدحم بالشعور المحموم لنفوسهن المغامرة ، وينيره المجد الذى ينبثق من اضطلاعهن بكل المخاطرات الممكنة، ثم بما يقدمن عليه من زهد وتضحية . ولكنى على كل حال أعتقد أنه لا يوجد فى الدنيا إلا عدد قليل من النساء . وإنى لأقول ذلك مع علمى بالطبع بالجموع التى لا يحصيها العد من بنى الإنسان ، وبمساواة الجنسين فيما يتعلق بالعدد . ولكنى متأكد أن الابنة من النساء وأن الأم كانت كذلك أيضاً، وأنها لم تكن تقل عنها شيئاً فى هذا المضمار . وإنى لا أستطيع أن أمنـــع نفسى من تصوير هاتين الاثنتين ، المرأة الشابة مع طفلتها فى أول الأمر ، ثم المرأة العجوز مع ابنتها الصغيرة بعد ذلك ، وهما فى تلك الرتابة الفظيعة والمرور السريع للزمن ؛ والوحدة ، وحاجز الغابة ، والاضطراب الذى يحيط بحياتهما ، والمعنى الحزين فى كل كلمة من كلماتهما ؛ ولا بد أنه

كان بينهما بعض الأسرار؟ وفى ظني : أن هذه الأسرار كانت أقل انتماء إلى الوقائع منها إلى الشعور العميق فى دخائل النفس ، كالندم، والخوف ، والتحذير دون شك ، التحذير الذى لم تفهمه الفتاة حتى ماتت أمها ، ودخل جيم إلى حياتها . ثم إنها كانت تفهم الكثير، لا كل شيء ؛ ولكنها كانت تفهم الخوف جيدا على ما يظهر . وكان جيم يناديها باسم معناه الحجر الثمين: كان يناديها باسم « جوهرة » ، أليس اسماً جميلا؟ ولكنه كان كفئا لكل شيء ، كان كفئاً لحظه كما لابد أنه كان كفئاً لسوء حظه : فلقد سماها « جــوهرة » ، ولكنه كان ينطق بهذا الاسم كما لو كان ينطق باسم « جين » مثلا بلهجة توحى بالحياة الزوجية، والبيت ، والسلام . وسمعت هذا الاسم لأول مرة بعد أن وصلت إلى فناء بيته بعشر دقائق حين مرق يصعد الدرج بعد أن كاد يخلع ذراعى وهو يهزه . وأخذ يحدث أصواتاً كالتى يحدثها الصبية حين يكونون فى حالة فرح وسرور ، عند الباب تحت السقف البارز . وأخذ يصيح ؛ « جوهرة ! جوهرة ! أسرعى ! لقد حضر إلينا صديق » وفجأة حدق فى ، فى ضوء الشرفة الخافت: وقال متعلثما ؛ « أتدرى ، من هذه؟ ، دون تزويق فى الكلام ، لا أعرف كيف أقول لك كم أنا مدين لها ، وعلى هذا أنت تفهم ... أنى ... » ثم قطع عليه هــذه الهمسات المضطربة السريعة حركة رشيقة لطيف أبيض داخل البيت ، ثم صيحة خافتة . ثم ظهر من الظلمة الداخلية ، وجه يشبه وجوه الأطفال ، وإن كانت تظهر عليه دلائل القوة . وكانت له

قسمات رقيقة ، ونظرة منتبهة عميقة ، وكأنه طائر خرج من تجاويف عشه . ولقد أثار الاسم دهشتي بالطبع، ولكنه لم يكن إلا بعد فترة من هذه الأحداث ، إذ خطر لى إذ أربط بينه وبين إشاعة عجيبة سمعتها خلال رحلتي، في بلدة صغيرة على الساحل تبعد حوالي مائتين وثلاثين ميلا جنوب نهر باتوزان . فقد كان قارب شتاين الذى قمت فيه برحلتي قد توقف في ذلك المكان ، لينقل بعض المنتجات . وحين نزلت إلى الشاطيء ، وجدت لدهشتي الشديدة، أن تلك البلدة التعسة كانت تستطيع أن تفخر على غيرها من البلدان المماثلة ، بوجود مندوب مفوض مساعد للحكومة من الدرجة الثالثة فيها. وكان رجلا من سلالة مخلوطة ، ضخم الجسم سميناً يغطيه الشحم ، ويرمش بعينيه ، وله شفتان بارزتان تلمعان. ووجدته يرقد ممدداً ظهره على كرسي من الخيزران وقد فتح ملابسه بشكل مقزز . وكانت هناك ورقة خضراء كبيرة لبعض أنواع النبات فوق رأسه المتصبب بالعرق ، وأخرى من نفس النوع في يده يستعملها في كسل كمروحة ... وقال لى: « أذاهب أنت إلى باتوزان ؟ نعم ، إنى أعرف شركة شتاين التجارية » . ثم سألنى إن كان لدى تصريح . وقال إن هذا ليس من شأنه ، وإن الحالة هناك الآن ليست على غاية من السوء . ومضى في حديثه في تكاسل على هذا النمط ، ثم قال : « إنى سمعت أن أحد الأوغاد البيض ، قد دخل إلى هناك... ماذا ؟ ماذا تقول؟ من أصحابك ؟... إذن ، فهو صحيح أن هناك أحد هؤلاء الملاعين : ترى ما الذى أتى به

إلى هناك ؟ وقد استطاع أن يدخل إلى البلاد ، أليس كذلك ؟ إنني لم أكن متأكداً من ذلك حتى الآن . فباتوزان حيث يذبحون الناس، ليست من الأماكن التي تعنينا » . ثم قطع حديثه ليجأر بالشكوى، فقال ، «أف ! يالله ! هذه الحرارة ! هذه الحرارة ! حسن إذن ! ربما كان هناك بعض الصدق فى ذلك أيضاً . . . و . . . . » وأقفل إحدى عينيه اللتين كانتا تبدوان وكأنهما من زجاج (ولكن جفنها كان لايزال يهتز) ونظر إلى بالأخرى نظرة خبيثة . وقال فى شيء من الغموض ، « انتبه إلى . . إنه حصل على شيء ثمين حقاً . وليس على قطعة من الزجاج الأخضر . أتفهمنى ؟ فإننى موظف حكومى ، أخبر هذا الوغد بذلك . ماذا؟أتقول إنه صديق لك ؟» .. واستمر فى هذا الحديث وهو يتمرغ بهدوء على مقعده الطويل،وقال : «حسن! فهذا هو ما كنت أريده. وإنى لمسرور بهذه المناسبةالتى تعطينى الفرصة لألمح لك بما أريد ، وأظنك أنت أيضاً تطمع فى نصيب من هذه الصفقة . لاتقاطعنى . فيجب أن تخبره بأننى قد سمعت بالقصة ، ولكنى لم أكتب تقريراً إلى حكومتي عنها . لم أكتب حتى الآن . أتفهمني ؟ وما الداعى لكتابة مثل هذا التقرير؟ أخبره أن يحضر إلى إن كانوا سيدعونه يخرج من هذه البلاد حياً . وإنه ليجدر به أن يحتاط لنفسه . وإنى أعده من الآن أني لن أوجه إليه أية أسئلة . سيتم كل شيء فى هدوء : أتفهمنى ؟ وأنت أيضاً ... سأعطيك شيئاً من عندى . سمسرة بسيطة نظير تعبك . لاتقاطعنى . فأنا موظف

حكومى .. ولن أكتب تقريراً وهذه هى طريقة رجال الأعمال . أتفهمنى ؟ فإنى أعرف بعض الناس الذين هم على استعداد لشراء أى شيء ذى قيمة ، وهم يستطيعون أن يعطوه من المال أكثر مما وقعت عينا ذلك الوغد عليه طول حياته . فإنى أعرف ذلك الطراز من الرجال : وحدجنى بنظرة ثابتة،وعيناه مفتوحتان بينما كنت أقف فوق رأسه وقد عقدت لسانى الدهشة ، وأنا أسائل نفسى أكان مجنونا أم مخموراً . وأخذ يتصبب عرقاً وهو ينفخ ويئن أنيناً ضعيفاً ، ويهرش جسده فى هدوء يبعث على الاشمئزاز ؛ حتى إنى لم أحتمل النظر إليه فترة تكفى للتأكد من حالته . وفى اليوم التالى حين كنت أتحدث مصادفةمع الرجال الذين ينتمون إلى الحاشية الوطنيةالصغيرة فى ذلك المكان اكتشفت أن هناك قصة تنتقل فى بطء على طول الساحل عن رجل أبيض غامض فى باتوزان ؛ كان قد حصل على جوهرة ذات جمال فريد ، هى عبارة عن زمردة ذات حجم هائل ؛ وقيمة لاتقدر بثمن. والزمرد هو أحب الأحجار الثمينة وأقربها إلى قلوب أهل الشرق ، وأقواها تأثيراً فى خيالهم .وسمعت أن الرجل الأبيض كان قد حصل على هذه الزمردة بسبب قوته الخارقة للعادة من جانب، وبسبب مكره وحيلته من جانب آخر،من حاكم لأحد البلاد البعيدة، التى هرب منها بعد ذلك توا ، ووصل إلى باتوزان ، فى حالة يرثى لها من التعب والإرهاق،ولكنه أوقع فى سكانها الرعب بوحشيته البالغة،

التى لم يستطع شيء على ما يظهر أن يخفف من حدتها . وكان أغلب من رووا لى هـــذه القصة يعتقدون أنها كانت على الأرجح من الجواهر التى تجلب سوء الحظ ، كتلك الجوهرة الشهيرة التى كان يملكها سلطان « سوكادنا » مثلا ، والتى جلبت الحروب والمصائب الكثيرة على تلك البلاد فى العصور الغابرة . وقالوا إنها ربمـــا كانت نفس الجوهرة . فمن يعلم ؟ ... والحقيقة أن قصة الزمردة الكبيرة الحجم ، هى قصة قديمة ، قدم وصول أول رجل أبيض إلى هذا الأرخبيل : والاعتقاد فى مثل هذه راسخ إلى حد أن الحكومة الهولندية كانت قد أجرت تحقيقاً عن مدى الصدق فى قصة من هذه القصص منذ أربعين سنة . وشرح لى الرجل العجوز الذى كنت قد سمعت منه معظم هـــذه القصة الخرافية عن جيم ، وكان يعمل كاتباً بشكل من الأشكال عند الراجا الصغير التعس لهذا المكان ، وهو يتجه إلى بعينيه اللتين كادتا أن تكونا عمياوين (وكان يجلس على أرضية القمرة إظهاراً لاحترامه) ، أن مثل هذه الجوهرة تكون أكثر صوناً إن أخفتها إمرأة بين أجزاء جسدها . ولكن ليست كل امرأة هى التى تصلح لذلك . فيجب أن تكون إمرأة شابة ، وتنهد بعمق وهو يقول ذلك ، وألا تكون من النوع الذى يحركه إغراء الحب ... وهنا هز رأسه علامة الشك فى وجود مثل هذه المرأة ... ولكن يبدو أن هذه المرأة التى تتحقق فيها هذه الشروط كانت موجودة فعلا : فلقد سمعت عن فتاة طويلة القامة — كان الرجل الأبيض

يعاملها باحترام وحنو كبير . وكانت لاتخرج أبداً من بيتها دون حراسة . وكان الناس يقولون إنهم كانوا يرونهما معاً كل يوم تقريباً وهما يمشيان جنباً إلى جنب أمام الناس ، وذراعه فى ذارعها، وهى تلتصق به هكذا فى وضع غاية فى الغرابة . وقال الرجل : « ربما كانت هذه أكذوبة. لأنه من الغريب حقاً أن تجد إنساناً يفعل ذلك، ولكن من جهةأخرى ، فليس هناكشك فىأن هذهالمرأة كانت تخفى جوهرة الرجل الأبيض فى جزء من جسدها » :

الفصل التاسع والعشرون

وكانت هـــذه هي النظرية التي اخترعها هؤلاء القوم بخصوص نزهات جيم مع زوجته في المساء . وكنت ثالثهما في أكثر من مناسبة من هذه المناسبات ، التي كنت أفكر فيها دائماً بشيء من الغضب في كورنيليوس . الذي كان يجتهد أن ينمي عنده الشعور بأنه قد اعتدى على ماله من حقوق الأبوة القانونية وهو يخفي نفسه عن الأنظار بدافع من الخوف في الأنحاء المجاورة،ويلوى فكه كما لو كان يوشك دائماً أن يصر على أسنانه من الحقد والغيظ . ولكن هل لاحظتم كيف تذبل وتموت أكاذيب مدنيتنا النفعية الشاحبة على بعد ثلاثمائة ميل من نهاية أسلاك البرق وسفن البريد . ويحل مكانها محاولات من نتاج الخيال ، تتسم بعدم النفعية ، وأحياناً بالسحر ، وأحياناً أخرى بالصدق الخفي العميق الذى يجده الإنسان في أعمال الفن؟ وكانت الرواية الخيالية قد اختصت جيم بنفسها ، وتلك هى الحقيقة الوحيدة في هذه القصة ،التى لم يكن في جوانبها الأخرى أى أثر للصدق ، لأن جيم لم يكن يخفي جوهرته ؛ بل على العكس كان فخوراً بها غاية الفخر .

وإنني لأتذكر الآن ، أننى أستطيع أن أقول إننى لم أر منها إلا القليل . فالذى أستطيع أن أتذكره جيداً منها هو شحوب بشرتها التي

كانت كلها بلون الزيتون . ولمعان شعرها الأسود الأزرق الشديد وهو يسقط كثيفاً من تحت طاقية صغيرة قرمزية اللون كانت تضعها على مؤخرة رأسها الجميل ، المتناسق الشكل . وكان فى حركاتها انطلاق وثقة ، وكان الخجل يكسو وجهها حمرة داكنة . وحين كنت أجلس مع جيم لنتحدث ، كانت تدخل إلى الغرفة ثم تغادرها ، وهى تلقى علينا بنظراتها السريعة ، وتخلف وراءها فى عبورها أثراً من الرشاقة والسحر ، وإيحاء واضحاً بالسهر على راحتنا . وكان سلوكها خليطاً غريباً من الخجل والجرأة . فكانت تتبع كل ابتسامة جميلة لها سريعاً بنظرة من القلق الصامت المكبوت ، كما لو كانت تلك الابتسامة قد أجبرت على الهرب أمام تذكرها لبعض الخطر المقيم . وكانت تجلس معنا أحياناً وقد ظهرت على خدها الناعم « غمازات » من عمل أصابع يدها الصغيرة ، لتستمع إلى حديثنا . وكانت عيناها الصافيتان الكبيرتان ، تسمران نظراتهما على شفاهنا كما لو كان لكل كلمة تنطق بها شكل منظور . وكانت أمها قد علمتها القراءة والكتابة . وكانت قد تعلمت من جيم قدراً لا يستهان به من الإنجليزية . وكانت تتحدثها بطريقة محببة إلى النفس ، وتثير الضحك ، بما كان فيها من تقليد لنبرات صوته القصيرة المقطوعة التي يتحدث بها الفتيان عادة ، وكان حنوها يرفرف فوق رأسه بجناحيه دائماً كالطائر . وكانت تعيش بكل ما فيها من التفكير فيه إلى حد أنها كانت قد اكتسبت شيئاً من مظهره الخارجى ، شيئاً كان يذكرك به فى حركتها ، فى طريقة مد ذراعيها ، أو

بإدارة رأسها ، أو توجيه نظراتها. وكان لحبها الذى يسهر عليه ويرقبه، تأثير حاد ، تكاد أن تدركه الحواس : فكان يبدو وكأنه جزء من مادة الفضاء ، كان يبدو وكأنه يحيط به كشذى من نوع خاص ، كان يبدو وكأنه يسكن فى ضوء الشمس كنغمة عاطفية مرتعشة مكبوتة ؛ ولعلكم تظنون أننى خيالى أيضاً ، ولكن ذلك غير صحيح : فإنى أروى لكم فقط دون أن أجرى وراء العاطفة، انطباعاتى عن شىء من طبيعة الشباب ، وعن قصة خيالية غريبة مليئة بالقلق ، التقيت بها مصادفة فى طريقى. وأخذت أرقب باهتمام كيف كان يتصرف معه القدر أو.. الحظ السعيد . إنها كانت تحبه وتغار عليه ، ولكن ، لماذا كانت هذه الغيرة ؟ ، ومما ؟ . . . ذلك ما لم أستطع أن أعرفه : إن الأرض والناس ، والغابات ، كانت كلها من حلفائها ، يحرسونه فى وفاق ويسهرون عليه فى صورة من العزلة والغموض ، والملكية التى لا يمكن زعزعتها . ولم يكن هناك استئناف لذلك الحكم الذى صدر عليه ؛ فلقد كان أسيراً لنفس هذه الحرية وهذه السلطة اللتين كان يتمتع بهما : وكانت هى — رغما عن استعدادها لأن تجعل من رأسها مكاناً لاراحة قدميه — ترقب فتوحاتها واستيلائها على قلبه بعين لا تنام ، كما لو كان من الصعب الاحتفاظ به : وكان تامب إيتام نفسه ، وهو يمشى فى رحلاتنا وراء عقبي سيده الأبيض رامياً برأسه إلى الوراء ، وقد ظهرت عليه القسوة ، وأثقل نفسه بالأسلحة ، كأنه إنكشارى بالخنجر والبلطة والحربة التى كان يحملها إلى جانب بندقية جيم ، حتى تام إيتامب هذا ، كان يضفى على نفسه صورة الحارس الذى لا يقبل

مساومة فى عمله ، وكأنه سجان متفان سيء الطبع، على استعداد دائم لإفتداء أسيره بحياته . وفى المساء كنا إذا تقدم بنا الليل ونحن لا نزال فى جلستنا نراه كالطيف صامتاً غير واضح المعالم ، وهو يروح ويجيء تحت الشرفة ، ودون أن تسمع لأقدامه وقعاً . أو إن تصادف ان رفعت رأسي ، فإنى كنت أراه أحياناً بشيء من الصعوبة ، وهو يقف منتصب القامة مشدود العضلات فى الظلال ... وكان يختفى عادة بعد فترة من الزمن دون أن يحدث صوتاً . ولكننا حين ننهض كنا نراه يقفز إلى جانبنا كما لو كان قد خرج من الأرض مستعداً لتلقى ما قد يريد جيم أن يصدره إليه من الأوامر . ثم إنى أعتقد أيضاً أن الفتاة كانت لا تذهب إلى النوم أبداً قبل أن نفترق للذهاب إلى الفراش . ولقد رأيت جيم وزوجته أكثر من مرة ، من خلال نافذتى يخرجان معاً إلى الشرفة بهدوء مستندين إلى حاجزها الخشن ، وكأنهما طيفان أبيضان ملتصقان وذراعه حول وسطها ورأسها على كتفه . وكانت همساتهما تصل إلى أذنى رقيقة نفاذة فى نغمة هادئة حزينة ، وسط سكون الليل كأنها مناجاة للنفس تصدر عن شخص واحد فى نغمتين مختلفتين . وبعد ذلك حين كنت أتقلب فى فراشي تحت الكلة (الناموسية) كنت أسمع طقطقة خفيفة وتنفساً خافتاً ، وكحة مكتومة . وكنت أعرف حينئذ أن تامب إيتام كان لا يزال ساهراً يترقب . ومع أنه كان له بيت فى محيط بيت جيم (وكان ذلك منحة له من سيده الأبيض) وكان له زوجة . ورزقه الله أخيراً بطفل منها . فإنى أعتقد فى مدة إقامتى على الأقل أنه كان ينام دائماً فى الشرفة . وكان من أصعب الأشياء أن تحمل هذا

التابع الصارم الخاص على الكلام . وحتى فى إجاباته على جيم كان لا يستعمل إلا جملا قصيرة مقتضبة . وكأنما كان ينطق بها على كره منه : فكأنما كان يريد أن يفهم الناس أن الكلام ليس شأناً من شئونه. أطول حديث سمعته يتطوع به كان فى صباح أحد الأيام ، حين مد يده فجأة مشيراً إلى فناء الدار ، حيث كان كورنيليوس ، ثم قال « هذا هو الناصرى » ولا أظن أنه كان يخاطبنى مع أننى كنت أقف إلى جانبه . ولكنى أظن أن هدفه كان أن يوقظ غضب الكون. ثم أتبع ذلك ببعض عبارات تشير إلى الكلاب ورائحة اللحم المشوى، ولقد أدهشنى ما وجدته فى هذه العبارات من مطابقة لمقتضى الحال. وكان الفناء مساحة كبيرة مربعة من الأرض كأنها قطعة من لهيب مشتعل لضوء الشمس ، فى حمام من النور الساطع . وكان كورنيليوس يزحف عبره ظاهراً للعيان ، ومع ذلك كان فى مظهره ما يوحى بالتلصص ، بشىء ما يتصل بظلام الليل ، والخفية والتسلل. وكانت هيئته تذكر المرء بكل شىء بغيض . فكانت مشيته البطيئة التى يبدو أنه يبذل فيها جهداً كبيراً تشبه زحف الخنافس التى تشمئز من منظرها الأعين ، فكانت ساقاه فقط هما اللتان تتحركان بنشاط كبير مقزز بينما بقية جسده تنزلق ككل ، دون أن يتحرك فيه شىء آخر. ولربما كان كورنيليوس يقصد إلى المكان الذى يريده فى خط مستقيم ، ولكن سيره إليه وأحد اكتفيه يتقدم الآخر كان يبدو منحرفاً : وكثيراً ما كان يرى وهو يدور حول الأكواخ فى بطء ، وكأنه كلب يتتبع الأثر : فيمر أمام الشرفة وهو يسترق النظر إليها ،

ثم يختفى دون عجلة فى ناصية من النواصى خلف أحد الأكواخ. وكونه كان له حرية المكان كان يدل على عدم حرص جيم الذي كان يجاوز الحد فى بعض الأحيان ، أو إن لم يكن ذلك ، على احتقارة الشديد، لأن كورنيليوس كان قد لعب دوراً يجعله محلا للشك (وذلك إذا بالغنا فى حسن الظن) فى فترة معينة ، كان من الممكن أن تودى أحداثها بحياة جيم . وكان من نتيجة أحداث هذه الفترة آخر الأمر أن أعلت من شأن جيم ورفعت من مكانته . ولكن كل شيء كان يتحدث عن مجد جيم . وكان لمن سخرية حظه السعيد أنه ، وهو الذى كان فى زمن من الأزمان أحرص على حياته مما يجب، كان يبدو وكأن على حياته طلسما أو حجابا أو تعويذة تحميها من كل سوء .

ويجب أن تعلموا أنه كان قد غادر بيت دورامين بعد وصو بفترة قصيرة — وكانت الفترة أقصر مما يجب ، لأنه كان بذ يعرض حياته للخطر . وكان ذلك بالطبع ، قبل نشوب الحرب بز طويل . ولكنه كان مدفوعاً إلى ذلك بشعوره بالواجب . فقد قال إنه كان لا بد له من العناية بتجارة شتاين . ولهذا الغرض ودون أى اعتبار لما كانت تتعرض له سلامته من الأخطار ، عبر النهر وأقام مع كورنيليوس فى مسكنه . أما كيف استطاع كورنيليوس أن يعيش خلال تلك الفترة المضطربة فى باتوزان ، فذلك ما لا أعرف شيئاً عنه وإن كان بصفته وكيلا لشتاين قد حصل على بعض الرعاية من دورامين . ثم لا بد أنه بطريقة أو بأخرى قد استطاع أن يجد له منفذاً يخرج منه من تلك الأحداث المميتة . وإن كنت لا أشك لحظة

أن سلوكه أياً كانت الطريقة التي اضطر إلى أتباعها كان مدموغاً بتلك الذلة التي يبدو أنها كانت طابع الرجل، وخاصيته المميزة. نعم: كانت الذلة عنصر شخصيته المميزة؛ فلقد كان ذليلا فى ظاهره وفى أساسه الباطن، كما كان غيره من الرجال يمتازون بمظهر كريم يتسم بعزة النفس والوقار الذى يبعث على الاحترام. إن الذلة كانت العنصر فى طبيعته الذى كان يثبت وجوده فى كل أفعاله وعواطفه وانفعالاته. فلقد كان الذل فى غضبه، وكان الذل فى ابتسامته، وكان الذل فى حزنه: وكانت مجاملاته وثوراته تتساوى فيما كانت تتسم به من طابع الذل أيضاً. وانى لواثق أن حبه كان لا بد أن يكون أشد عواطفه اتساماً بطابع الذل. ولكن هل يمكن أن يتصور المرء حشرة كريهة تحب؟ وكان الغرض الذى يوحى به أيضاً ذليلا، بحيث يبدو أى شخص آخر ممن تشمئز منهم النفوس فى بساطة، إلى جانبه وكأنه شخص نبيل. ومكانه فى صورة هذه القصة لا يقع فى مقدمتها ولا فى خلفيتها. ولكننا نراه يتسكع قريباً من إطارها فى غموضه وقذارته، يحاول أن يلوث العبير العطر الذى ينبعث مما فيها من شباب ومن براءة.

ولكن موقفه على كل حال كان لا يمكن أن يكون إلا موقفاً تعساً للغاية: ولكنه ربما وجد فيه رغماً عن ذاك بعض المزايا. فقد قال لى جيم، إنه استقبله فى أول الأمر بعرض ذليل من المحبة والترحيب الشديد: وقد قال جيم فى اشمئزاز: «إن الرجل على ما يظهر كان لا يطيق

نفسه لما احتواه من شعور الفرح والسرور . وكان يطير إلى فى كل صباح ليهز يدى كلتيهما، عليه اللعنة ! ولكنى ما كنت أستطيع أبداً أن أعلم أنه سيحضر لى طعام الإفطار أم لا . وكنت أعتبر نفسي محظوظاً إن حصلت على ثلاث وجبات فى مدى يومين . وكان فى الوقت نفسه يجعلني أوقع على إيصال بعشرة دولارات كل أسبوع ، وكان يقول إنه متأكد أن مسترشتاين كان لا يعنى أن أمكث عنده وأحصل على طعامى دون مقابل . حسن : فلقد منع عني الطعام ، أو كاد. ولقد أرجع سبب ذلك إلى حالة البلاد غير المستقرة . ومثل أمامى يريد أن يمزق شعره وجاء يطلب العفو منى عشرين مرة كل يوم ؛ وعلى ذلك فقد رجوته فى آخر الأمر ألا يدع ذلك يقلق باله . وقد جعلنى ذلك أشعر بالغثيان. فلقد سقط نصف بيته، وصارت هيئه المكان كئيبة بحزم العشب اليابس الخارجة منه ، وأركان الحصر الممزقة وقد صارت معلقة يلعب بها الهواء على كل حائط ، بعد أن انفكت حبكتها. ولقد بذل جهده كى يحملني على تصديق ادعاءه بأن مستر شتاين كان مديناً له بالخسارة التي نتجت من تجارة الثلاث سنوات الماضية ؛ ولكن دفاتر حساباته كانت كلها ممزقة ، وكان بعضها مفقوداً . ولقد حاول أن يلمح بأن ذلك كان نتيجة تصرف زوجته . حقا إنه كان وغداً ! لا يملك الإنسان إلا أن يشمئز منه ! وفى آخر الأمر حرمت عليه أن يذكر اسم زوجته على الإطلاق . لأن ذلك كان يبعث « جوهرة » على البكاء . ولم أستطع أن أكتشف مصير البضائع التى

كانت فى عهدته . فلم يكن فى المخازن غير الفئران ، التى كانت تمرح بين أكوام الورق الأسمر والخيش القديم . وكان قد أكد لى الكثيرون أنه كان يحتفظ بكثير من المال مدفوناً فى بقعة ما . ولكنى بالطبع لم أستطع أن أحمله على الاعتراف بشىء من هذا ... وكانت معيشتى فى ذلك البيت ، هى أتعس أيامى فى الحياة . لقد كنت أريد أن أؤدى واجبي نحو شتاين ، ولكن فى الوقت نفسه كانت لدى مسائل أخرى يجب أن أفكر فيها . فحين هربت إلى دورامين ، كان الرعب الذى أصاب تونكو ألانج العجوز قد جعله يرد إلى جميع حاجياتى . ولقد حدث ذلك بطريقة ملتوية ، وبغموض لا حد له عن طريق رجل صيني من أصحاب الدكاكين هنا . ولكنى حالما تركت حى البوجيز وذهبت لأعيش مع كورنيليوس بدأ الحديث علانية عن نيات الراجا بتدبير قتلى قبل مضي وقت طويل ... ولم أستطع أن أرى ما كان يمكن أن يمنعه من تنفيذ ذلك ، إن كانت نيته قد صحت فعلا عليه . وكان سوأ ما فى الأمر أننى كنت لا أستطيع منع نفسي من الشعور بأننى كنت لا أفعل شيئاً يستحق الذكر ، من أجل شتاين ، أو من أجلى . يالله ! لقد كان شيئاً لا يحتمل بكل دقيقة من كل تلك الستة الأسابيع التى قضيتها هناك » .

الفصل الثلاثون

وقال لى أيضاً ، إنه لا يعلم ما الذى جعله يصبر على البقاء هناك ، طول هذه الفترة . ولكننا نستطيع أن ندرك الدافع له على هذا. فلقد كان قلبه يذوب شفقة على تلك الفتاة التى لم تكن تملك وسيلة الدفاع عن نفسها ، إزاء ذلك « الوغد الدنىء ، الجبان ! » ويظهر أن كورنيليوس كان يحيل حياتها جحيماً. وكان يعاملها معاملة غاية فى السوء ، لا يقف فيها إلا عند حد استعمال الأيدى،وأظن أن ذلك كان لأنه لم يكن يملك الشجاعة الكافية لذلك . فكان يصمم على أن تناديه « أبى » ، « وبلهجة الاحترام أيضاً » . فلقد كان يصيح بها وهو يهز قبضته الصغيرة الصفراء فى وجهها قائلا « إنني رجل محترم ، ولكن من تكونين أنت ؟ خبرينى ، من أنت؟ هل دار بخلدك أنني سأنشىء طفلة لرجل آخر ، ثم لا أعامل منها بالاحترام ؟ إنك يجب أن تكونى سعيدة بوجودك معى . هيا . قولى نعم يا أبى .. لا ؟ ..إذن فانتظرى هنيهة . ثم بعد ذلك يبدأ فى كيل الشتائم وإلصاق التهم بأمها المتوفاة حتى تترك له الفتاة المكان ويداها على رأسها . وكان يتبعها ، وهى تجرى داخلة وخارجة من البيت وحوله ، وبين الأكواخ ، إلى أن يرغمها على الدخول فى ركن من الأركان ، حيث كانت تسقط على ركبتيها ، وهى تسد أذنيها بيديها . ثم كان يقف خلفها على بعد قريب

منها وهو يكيل التهم القذرة إلى ظهرها ، لمدة نصف ساعة فى كل مرة . فيقول لها : « إن أمك كانت شيطانة خائنة ....، وأنت أيضاً شيطانة . » وذلك ما كان يختم به انفجاره . ثم كان يلتقط قطعة من الأرض اليابسة ، أو ملء يده من الطين (وكان هناك كثير من الطين فى ذلك البيت) ويقذف بها فى شعرها . ولكنها كانت فى بعض الأحيان تقف أمامه فى سكون وهى تنظر إليه باحتقار شديد ، ووجهها معتم مقطب . ولا تنطق إلا بكلمة أو كلمتين بين حين وآخر كانت تجعل الرجل الذى أمامها يقفز ويلتوى من اللدغة التى أصابته منها . وقال لى جيم إن وقع هذه المصادمات كان فظيعاً عليه. والحق أنه كان شيئاً غريباً أن يرى الإنسان ذلك فى مكان بعيد عن المدنية. فإن عدم وجود نهاية أو حد لمثل هذا الفن الرفيع فى استعمال القسوة، هو شيء مفزع حين يفكر المرء فيه. وكان كورنيليوس المحترم (وكان رجال الملايو يطلقون عليه اسم « إنشي نيلوس » وهم يرسمون على وجوهم تعبيراً يحتمل أكثر من تفسير) رجلا يشعر شعوراً حاداً بخيبة الأمل . فلست أدرى ، ماكان يتوقعه من جزاء على إقدامه على هذا الزواج . ولكنه كان من الواضح أن إطلاق يده فى السرقة والتبديد والاستيلاء لنفسه ، مدى سنين طويلة ، وبأية طريقة كان يجدها مناسبة له على بضائع شـــركة شتاين للتجارة (وكان شتاين يرسل إمداداته من البضائع دون توقف مادام فى إمكانه أن يحمل ربابنة سفنه على أخذها إلى هناك) لم تكن تعويضاً كافياً فى نظره عن

التضحية باسمه الكريم : ولقد كان يلذ لجيم كثيراً لو أنه ضرب كورنيليوس ضرباً مبرحاً يجعله على وشك الموت . ولكنه من جهة أخرى ، كان يجد فى هذه المصادمات التى تحدث بينه وبين الفتاة شيئاً مؤلماً وكريهاً ، إلى الحد الذى كان يوحى إليه بالابتعاد إلى مكان لاتصل إليه فيه أصواتهما حتى لايؤذى شعور الفتاة . وكانت هذه المصادمات تترك الفتاة فى حالة سيئة من الانفعال ، وغير قادرة على النطق وهى تمسك بصدرها بين حين وآخر ، قد ظهرت علامات اليأس والتحجر على وجهها . وكان جيم حينئذ يجلس إلى جانبها ويقول لها فى لهجة خالية من السعادة : « تعالى الآن . ماهى الفائدة من ذلك . إنك يجب أن تأكلى شيئاً » . أو كان يحاول أن يظهر عطفه عليها بطريقة أو بأخرى . وكان كورنيليوس يتسلل من خلال الأبواب ، وعبر الشرفة ، ثم يرجع ثانية ، وهو صامت كالسمكة ، يرسل نظراته الخفية الشريرة ، التى توحى بعدم ثقته ... وقال جيم للفتاة مرة « إنى أستطيع أن أوقف لعبته هـــذه . وما عليك إلا أن تقولى ذلك » : « وهل تعلم بماذا أجابت؟ وقال لى جيم فى لهجة مؤثرة إنها قالت إنها لو لم تكن متأكدة من أن كورنيليوس نفسه كان فى شدة التعاسة ، لاستطاعت أن تجد الشجاعة لقتله بيديها .

فقال جيم فى شيء من الاشمئزاز: «تصور ذلك؟ تصور أن هذه الفتاة المسكينة ، التى لم تزل طفلة ، وقد اضطرتها ظروفها المحزنة أن تتفوه بمثل هذا الكلام : لقد بدا لى أن من المستحيل إنقاذها ، لا من ذلك

الوغد اللئيم فقط ؛ بل من نفسها أيضا ! ثم أكد لى أن شعوره نحوها لم يكن هو الشفقة عليها فقط ، ولكنه كان أكثر من ذلك . إنه كان يشعر بشيء من عذاب الضمير ، فى ذلك البيت ، الذى كان يعتقد أن فى مغـــادرته له نوعاً من الهرب ، والتخلى عن مسئولياته ، يتسم بالدناءة . حقاً إنه قد فهم أخيراً ألا فائدة من الاستمرار فى إقامته هناك . فلا أمل فى حصوله على الحسابات ، ولا فى الوصول إلى الحقائق فى أى شأن من الشئون . ولكنه استمر فى إقامته رغماً عن ذلك ، حتي كاد أن يدفع بكورنيليوس - لا أقول إلى الجنون - بل إلى مايشبه الشجاعة . وفى نفس الوقت أحس بالأخطار من كل نوع وهى تتجمع حوله فى الخفاء . وكان دورامين قد أرسل له مرتين أحد خدمه الموثوق بهم ، ليخبره فى جد بأنه إن لم يعبر النهر ثانية ، ويرجع ليعيش بين البوجيز كما كان يفعل من قبل ، فإنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً من أجل سلامته . وكان هناك أناس كثيرون يطرقون بابه ، وغالباً مايكون ذلك فى سكون الليل ليخبروه عن المؤامرات التي تحاك لقتله : ليخبروه أنه سيموت مسموماً ، أو من طعنة خنجر وهو يستحم ، أو أن تدبيراً قد تم لإطلاق الرصاص عليه من قارب فى النهر . وكان كل من يتطوع بإحضار مثل هذه الأخبار إليه ، يؤكد له أنه صديقه الحميم . وقال لى جيم ، إن مثل هذه الأخبار كانت تكفى لأن تفسد على المرء حياته ، وتقض مضجعه إلى الأبد . وأنه كان يعتقد أن شيئاً من هذا كان ممكن الحدوث ؛ بل إن حدوثه كان مرجحاً . ولكنه

هذه التحذيرات الكاذبة جعلته يفكر فقط فى أن هناك مؤامرات كثيرة تدبر فى الظلام ، من جهات كثيرة . ولم يكن هناك شيء أشد تأثيراً من ذلك فى إتلاف الأعصاب ، مهما كانت قوية . وأخيراً حضر إليه كورنيليوس بنفسه ذات ليلة ، وهو يصطنع جواً من التهويل والخفية ، وأخذ يحدثه فى لهجة ملؤها الملق عن خطة صغيرة لا تكلفه إلا مائة دولار أو حتي ثمانين فقط يستطيع بها كورنيليوس أن يحصل على رجل موثوق به ليهرب جيم عن طريق النهر ، ويوصله سالماً إلى الساحل. وقال له إنه لم تعد هناك طريقة أخرى إن كان جيم يحرص على حياته مقدار خردلة . وماذا تساوى ثمانون دولاراً ؟ إنه مبلغ تافه . بينما هو كورنيليوس الذى كان سيستمر فى إقامته من ذلك المكان ، كان سيعرض نفسه للموت كبرهان على إخلاصه لصديق مستر شتاين الشاب . وقال لى جيم إن الحركات المضحكة الذليلة التي كان يقوم بها كان من الصعب احتمالها . فلقد كان يشد شعره، ويضرب بيديه على صدره ، ويهز نفسه إلى الأمام وإلى الخلف ، ويداه ضاغطتان على معدته، ووصل به الحال إلى أنه قد تصنع البكاء أيضاً ، وأخيراً قال له بصوت مبحوح : « إن دمك على رأسك » . ثم اندفع خارجاً من الغرفة . وإن المرء ليتساءل عن مدى ما كان فى تمثيلية كورنيليوس هذه من الصدق. وقد اعترف لى جيم أنه لم يستطع أن ينام ولو للحظة بعد أن تركه ذلك الرجل : فرقد على ظهره على الحصير الرقيقة ، التى فرشت على أرضية البامبو فى الحجرة .

وأخذ ينصت إلى صوت اهتزاز القش الممزق من سطح البيت، ويقتل الوقت بمحاولته عد عروق الخشب العارية فيه . ورأى نجماً يلمع فجأة خلال ثغرة فى السقف . وكان ذهنه حينئذ فى حالة من الغوضى ولكنه رغماً عن ذلك أمكنه فى تلك الليلة بالذات أن يكمل خطته للتغلب على الشريف على . وكان مشغولا بهذه الخطة طوال الوقت مكرساً لها كل اللحظات التى كان يستطيع أن يوفرها من ذلك التحقيق الذى لاجدوى فيه عن شئون شتين . ولكنه قال ، إن الفكرة قد خطرت له فى تلك اللحظة فجأة . وكان يستطيع بعين الخيال أن يرى المدافع منصوبة على قمة التل . وأحس بأن حرارة جسده قد زادت ، وأن موجة من الشعور الجياش قد اجتاحته ، وهو راقد هناك، وأن النوم قد صار الآن أبعد مايكون عنه . فقفز لتوه ، وخرج إلى الشرفة عارى القدمين . وأثناء مشيه فى صمت ، وقع نظره على الفتاة وهى مستندة إلى الحائط دون حراك، وكأنها ترقب شيئاً . ولم يعجب فى حالة الاضطراب التي كان عليها إذ ذاك من رؤية الفتاة ، ساهرة حتى هذه الساعة المتأخرة ، ولا حتي من سماعها وهى تسأله فى همس قلق عن المكان الذى يمكن أن يكون فيه كورنيليوس . ولقد أجابها ببساطة أنه لايعلم . فأنت الفتاة أنيناً خفيفاً ؛ وحدقت فى الفضاء الذي أمامها . وكان كل شيء هادئاً . أما هو ؛ فكانت تلك الفكرة الجديدة تملك عليه حواسه ، وكان ممتلئاً بها إلى حد لم يستطع أن

يمنع نفسه معه ، من إخبار الفتاة فوراً بكل شيء عنها . فأصغت إليه وصفقت له بيديها فى خفة ، وهمست له بإعجابها فى عذوبة . ولكن من الواضح أنها كانت تنظر إلى ما حولها فى انتباه وترقب ، طول الوقت . ويظهر أنه كان يتخذ منها حفيظة ومستودعاً لأسراره دائماً وأنها كانت بدورها دون شك تستطيع ، أن تعطيه كثيراً من المعلومات والآراء الصائبة ، عن شئون باتوزان . ولقد أكد لى أكثر من مرة ، أنه قد انتفع كثيراً من نصائحها . وعلى أية حال فعندما كان يحاول أن يشرح لها خطته بالتفصيل فى نفس التو واللحظة ، فقد ضغطت الفتاة على ذراعه مرة واحدة ، ثم اختفت من جانبه ؛ ثم ظهر كورنيليوس من مكان ما . وحين رأى جيم تحرك حركة جانبية سريعة ، كما لو كان شخص قد أطلق عليه النار ، ووقف بعد ذلك دون حراك فى الظلام حيث الظلال . ثم تقدم آخر الأمر إلى الأمام فى حرص ، وكأنه قطة حذرة . وقال فى صوت مهزوز : « إنه كان هناك بعض الصيادين ومعهم شيء من السمك يريدون بيعه . أتفهمنى؟؟؟ ولابد أن الساعة كانت قد بلغت حوالى الثانية صباحاً وهو وقت مناسب لبيع السمك! ؟

وأياً كان الأمر فإن جيم ترك الحديث يمر دون أن يفكر فيه على الإطلاق : فلقد كان عقله مشغولا بغير ذلك من المسائل ، ثم إنه لم يكن قد رأى أو سمع شيئاً : فاكتفى بقوله « أوه ! » فى غير انتباه : ثم

شرب بعض الماء من إبريق كان هناك ، وترك كورنيليوس فريسة لانفعال لا يمكن تفسيره جعله يحتضن حاجز الشرفة الذى أكلته الديدان بكلتا يديه ، كما لو كانت ساقاه قد أصبحتا عاجزتين عن حمله ثم رجع ثانية إلى غرفته ، ورقد على حصيرته يفكر . وبعد قليل سمع وقع أقدام تمشي على حذر ، ثم توقف ، ثم سمع صوتاً مهتزاً خلال الحائط يسأله : « هل أنت نائم ؟ » فأجابه بنبرات قوية . « كلا ! ماذا تريد ؟ » . وبعد ذلك سمع حركة سريعة فى الخارج ، أعقبها سكون كما لو كان صاحب الصوت الهامس قد أصابه الفزع . فتضايق جيم من هذه المناورات إلى حد جعله يخرج من الغرفة فى حدة وغضب . وإذا بكورنيليوس يخرج من فمه ولولة خافتة ، ويهرب عبر الشرفة إلى أن يصل إلى الدرج حيث يتعلق بحاجزه المكسور . فناداه جيم وهو حائر فى تفسير هذه التصرفات ، وسأله عما يعنى بذلك بحق الشيطان . فقال له كورنيليوس ، وهو ينطق كلماته بصعوبة كرجل يعانى من نوبة باردة للحمى : « هل فكرت فيما قلت لك ؟ » فصاح فيه جيم بغضب : « لا ! لم أفكر فى ذلك ، ولن أفكر فيه إنني أنوى أن أعيش هنـا فى باتوزان . » فأجابه كورنيليوس ، وهو لا يزال يرتعش بشدة ، وفى صوت يكاد أن يختنق ، إنك س . . س . . ستموت . . هنا » وكانت التمثيلية كلها بعيدة عن كل عقل ومنطق ومثيرة أيضاً إلى حد أن جيم لم يعرف هل يجب عليه أن يغضب أو يضحك . فنادى على كورنيليوس من بعيد وهو لا يكاد يحتمل أكثر

من ذلك وإن كان مستعداً فى الوقت ذاته أن يضحك قائلا : « ليس قبل أن أراك فى قبرك ؛ وإنى أراهنك على ذلك » . ثم أستمر فى صياحه ، (وكانت مشاعره ثائرة بسبب فكرته الجديدة . . . كما تعلمون) وهو نصف جاد ليقول ؛ « إن شيئاً أو أحداً لن يستطيع أن يمسني بسوء ! فافعل أقصي ماتستطيعه ، عليك اللعنة ! » ولقد بدا له كورنيليوس فى تلك اللحظة وهو قابع كالظل على مسافة بعيدة منه وكأنما قد جمع فى شخصه جميع المضايقات ؛ والمصاعب والمكاره التي وجدها جيم فى طريقه . فأطلق جيم لغضبه العنان وكانت أعصابه فى غاية التوتر فى الأيام الأخيرة ، فنعته بكل النعوت الجميلة ؛ فقال إنه محتال ؛ كذاب ؛ دنيء ؛ لئيم . والحق أنه استمر فى هذا السباب إلى آخر الشوط . ولقد اعترف لى بأنه جاوز فى ذلك كل الحدود ؛ وخرج عن طوره ؛ وتحدى باتوزان بكل من فيها بأن تخيفه وتدفعه إلى الهرب منها . وأعلن أنه سيجعلهم جميعاً خاضعين له - واستمر فى حديثه بهذا الأسلوب الملىء بالتهديد والوعيد ، والفخر والاستعلاء . وقال لى ، إن كلماته كانت نموذجاً فى التباهى بالعظمة الجوفاء ، وكانت مثيرة للضحك . وكان مجرد تذكره لهذه المناسبة يجعل الدم يصعد إلى أذنيه ، ويقول إنه لابد أنه كان قد فقد صوابه حينئذ . وأومأت الفتاة التي كانت تجلس معنا وهو يقص على قصته ؛ برأسها الصغير نحوى إيماءة سريعة ، وقطبت وجهها قليلا ، وقالت فيما يشبه جلد الأطفال : « لقد سمعته . » فضحك جيم واحمر وجهه . وقال لى

حيم إن الذى أوقفه فى آخر الأمر كان السكون ، كان السكون الشامل الذى كان يشبه سكون الموت لذلك الشاخص البعيد هناك الذى كان يبدو له كأنه قد أفرغ من محتوياته ، وانكفأ على جانبي الحاجز فى جمود يذكرك بعالم الموتى . وقال إنه استرد حواســه ، وتوقف فجأة عن الكلام وهو يتعجب كثيراً من نفسه ، وأخذ يرقب ما أمامه لحظة . فلم ير حركة ولا سمع صوتاً . وقال لى : « إنه خيل إلى أنه لابد أن يكون الرجل قد مات أثناء إحداثى لهذه الضجة . »

وقال إنه كان يشعر بالخجل من نفسه إلى الحد الذى جعله يدخل إلى حجرته فى عجلة دون أن ينطق بكلمة أخرى ، ثم يرمى بنفسه على الحصيرة ثانية ، ولكن يظهر أن هذه الضجة التي أحدثها قد أفادته ، لأنه استغرق فى النوم بعد ذلك حتي الصباح ، كأنه طفل . وقال إنه لم ينم بهذا العمق منذ عدة أسابيع . ولكن الفتاة تدخلت فى الحديث ومرفقها على المائدة وخدها مستند على يدها قائلة : « أما أنا فلم أنم لقد سهرت أراقب الحالة » . .ولمعت عيناها الواسعتان ببريق شديد، وهما تدوران قليلافى محجريهما،ثم ثبتتهما على وجهى فى انتباه زائد .

الفصل الحادي والثلاثون

ويمكنكم أن تتصوراو مدى الاهتمام الذى كنت أصغى به إلى هذا الحديث . فكل هـذه التفاصيل كانت ذات أثر كبير على أحداث الأربع والعشرين ساعـــة التي تلتها . ففى صباح اليوم التالى لم يشر كورنيليوس إلى أحداث الليلة السابقة. وحين كان جيم يركب القارب الذى سيأخذه إلى معسكر دورامين، ظهر كورنيليوس ؛ وهو يسترق خطاه كالعادة ، وقال فى لهجة كئيبة غير مهذبة : « أظنك سترجع ثانية إلى بيتى الحقير . » فأومأ جيم برأسه دون أن يلتفت إليه. فتمتم الآخر فى لهجة مريرة قائلا : « إنك لاشك تجـــد كثيراً من المرح والسرور فى هذا البيت »... وقضى جيم النهار فى بيت السيدة العجوز من قبيلة الناخوضا ، وهو يؤكد ضرورة القيام بعمل حاسم ، لكبار رجال جماعة البوجيز ، الذين استدعوا للبحث معه فى ذلك الأمر الخطير. وتذكر فى سرور ما كان عليه من فصاحة وقوة فى الإقناع ، فى هذه المناسبة . وقال : « إنني حاولت أن أبعث شيئاً من الشجاعة والإقدام فى قلوبهم بكل ماكان لدى من قوة. » وكانت آخر غزوات الشريف قد نجحت فى الوصول إلى على مشارف القرية. وقد استطاع حينئذ أن يحمل معه بعض نسائهم إلى معسكره . وكان بعض رسل

الشريف على قد جاءوا فى اليوم السابق إلى ميدان السوق فى القرية ، وأخذوا يذرعون المكان فى كبرياء وهم فى عباءاتهم البيضاء ، ويتفاخرون بصداقة الراجا لسيدهم . ووقف أحدهم فى ظل شجرة مستنداً على ماسورة بندقيته، يحض الناس على الصلاة والتوبة ، وينصحهم بقتل جميع الغرباء فى محيطهم الذين كان بعضهم على حد قوله من الكفار ، وكان البعض الآخر أسوأ من هؤلاء، لأنهم كانوا من أتباع الشيطان المتنكرين فى مظهر المسلمين . وقيل إن الكثيرين من أتباع الراجا بين من كانوا يستمعون له قد أظهروا استحسانهم لكلماته . وكان الرعب الذى أصاب عامة الناس من هذه الكلمات رعباً شديداً ... وقبل غروب الشمس ، عبر جيم النهر مرة أخرى ، وهو فى غاية السرور من نتيجة عمله فى ذلك اليوم .

وحيث إنه كان قد نجح فى جعل البوجيز مرتبطين معه ارتباطاً لا انفصام له فى هذا العمل ، وإنه قد أخذ مسئولية نجاحه فى تنفيذ خطته على عاتقه وحده ، فقد ملأ ذلك قلبه بالفرح إلى الحد الذى جعله يحاول أن يكون لطيفاً مع كورنيليوس . ولكن تجاوب كورنيليوس معه جاوز فى مرحه حد المعقول . وقال جيم إنه كان يكلف نفسه مالا يطيق ، وهو يستمع إلى ذلك الصوت المبحوح المقزز فى ضحكاته المفتعلة ، ويراه وهو يتلوى ويرمش بعينيه . ثم يمسك بذقنه فجأة ، ويميل بصدره على المائدة فى نظرة ساهمة . ولم تظهر فتاة فى ذلك المساء ، وذهب جيم إلى غرفته مبكراً للنوم . وحين

نهض متمنياً له ليلة سعيدة ، فتمز كورنيليوس مسقطاً مقعــده على الأرض ، ثم اختفى عن الأنظار منحنياً على الأرض وكأنه يريد أن يلتقط شيئاً سقط منه . ووصــل صوته وهو يرد التحية إلى جيم من تحت المائدة . ودهش جيم وهو يراه يخرج من هناك وقد تدلى فكه الأسفل وجحظت عيناه فى غباوة ورعب . ثم أمسك بحافة المائدة . فسأله جيم ، « ماذا بك ؟ هل أنت مريض ؟ » فقال الآخر ، « نعم ، نعم ، نعم . أحس بمغص شديد فى معدتى » . وفى رأى جيم أنه كان يقول الصدق . وإن صح ذلك إذا أخذنا فى اعتبارنا العمل الذى كان مقدماً عليـــه فإنه يعتبر علامة على أنه لم يبلغ النهاية فى طريق الإجرام ، ولعله من الممكن أن نضيف ذلك إلى جانب حسناته .

ومهما يكن من أمر ذلك ، فإن نوم جيم كان مضطرباً بسبب حلم عن السماء ، سمع فيه صوتاً عالياً له رنين كالنحاس ينادى عليه : « استيقظ ! استيقظ ! » وكان الصوت عالياً إلى حد أنه رغماً عن رغبته الشديدة فى الاستمرار فى النوم قد استيقظ فعلا . وسقط على عينيه وهج شديد من لهب أحمر كان يهتز مضطرباً فى الهواء . والتفت سحب كثيفة من الدخان حول رأس طيف ، أو مخلوق غير أرضى . يتشح باللون الأبيض ، وتظهر على وجهه علامات الصرامة والقلق الشديد . وبعد ثانية أو أكثر ، تعرف فى ذلك الطيف على الفتاة . وكانت ترفع يدها فوق رأسها وهى تمسك بأحد المشاعل . وتكرر فى لهجة رتيبة مثابرة قلقة كلمة « انهض ! انهض ! انهض ! » .

فقفز واقفاً على قدميه فى لهفة . ووضعت الفتاة فى عجلة مسدساً فى يده . وكان مسدسه الذى كان يعلقه فى مسمار على الحائط ولكنه كان محشواً فى هذه المرة . فقبض على المسدس فى سكون ، وهو لايزال مشدوهاً ، لايستطيع فتح عينيه تماماً فى نور المشعل . وكان يسائل نفسه فى دهشة ماذا كانت الفتاة تريده أن يفعل من أجلها .

فسألته فى سرعة وصوت خافت جداً : « هل تستطيع أن تجابه أربعة رجال بهذا المسدس ؟» وضحك جيم وهو يقص على ذلك الجزء من ذكرياته . عن كلماته المؤدبة حينئذ والتى كانت تنم عن رغبته الشديدة فى القيام بأى عمل تطلبه منه الفتاة . ويظهر أنه كان قد استغل هذا الموقف، بطريقة درامية . فقال لها : بالتأكيد . بالطبع . بالتأكيد : مرينى » . ويظهر أنه لم يكن قد استيقظ تماماً حتي تلك اللحظة . وأنه قد خطر له وهو فى هـــذه الحالة أن يكون مهذباً جداً ، فى هذه الظروف الغريبة. وأن يبدى استعداده الخاص لخدمتها دون قيد ولا شرط . فخرجت من الغرفة وهو يتبعها . وفى الممر ، تسببا فى إيقاظ امرأة عجوز قبيحة الشكل ، اعتادت أن تقوم بطهى ما قد يتصادف وجوده من طعام فى المنزل . وإن كانت على حالة من العجز كادت لا تستطيع معها أن تفهم لغة الآدميين . فنهضت المرأة ، وأخذت تحجل وراءهما وهى تدمدم بكلام غير مفهوم يخرج من فمها الخالى من الأسنان . وفى الشرفة لمس مرفق جيم فراشاً معلقاً

(عنجريب) مصنوعاً من قماش الشراع و كان من عادة كورنيليوس أن ينام عليه . فاهتز قليلا ولكن الفراش كان خالياً .

وكان مقر الشركة فى باتوزان كغيره من مقار « شركة شتاين للتجارة » يتكون فى الأصل من أربع بنايات . وكان اثنان منهما قد استحالا الآن إلى مجرد رمز، فلم يبق منهما إلا كومتان من العصى وخشب البامبو المحطم . والقش العطن ، وأربعة عروق من الخشب فى الأركان تميل فى حزن ، كل منها بزاوية تختلف عن الزاوية التى يميل بها الآخر — فوق كل كومة . أما المخزن الكبير ، فكان لا يزال قائماً فى مواجهة بيت وكيل الشركة . وكان كوخاً مستطيلا ، مصنوع من الطين والصلصال . وكان له باب كبير عند أحد طرفيه ، مصنوعاً من الخشب المتين . كان لا يزال قائما على مفصلاته . وكان هناك فتحة مربعة فى أحد جدرانه الجانبية يمكن أن تسميها نافذة عليها ثلاثة قضبان ... وقبل أن يهبطا الدرجات القليلة للشرفة ، أدارت الفتاة رأسها من فوق كتفها ، وقالت بسرعة : « إنهم كانوا سيهاجمونك الليلة وأنت نائم » .

وقال لى جيم إنه قد أحس حينئذ بأنه قد خدع . فقد خيل إليه بأنها هى الحكاية القديمة . وكان قد تعب من سماع أخبار هذه المحاولات لقتله ، وشبع من تحذيره بشأنها ، وأصبح مشمئزاً من كل ذلك . وأكد لى أنه أحس بالغضب من الفتاة لخداعها له . فلقد تبعها

وهو يظن أنها هى التي كانت تطلب معونته. أما الآن فقد كاد تفكيره أن يملى عليه بأن يرجع من حيث أتى. وهو ساخط مشمئز... ولقد علق على ذلك بعمق فى قوله: « هل تعلم. أننى أظن أننى لم أكن مالكاً تماماً لقواى العقلية لمدى بضعة أسابيع متصلة من تلك الفترة؟ » ولكنني لم أتمالك نفسى عن معارضته فى ذلك. فقلت له: « كلا! إنني أعتقد أنك كنت مالكاً تماماً لقواك العقلية ».

ولكنها كانت تتحرك بسرعة، فى فناء المقر، وكان هو يتبعها، وكانت كل أسواره قد تخربت منذ زمان طويل. وكان جاموس الجيران فى الصباح يعبر أرضه الفضاء دون عجلة وهو ينفر من منخريه نفراً عميقاً. وكانت الغابة نفسها قد بدأت تغزوه. ووقف جيم والفتاة هناك، وسط العشب النامى، وكان النور الذى يقفان فيه، يصنع سواداً حالكاً حوله. وفوق رأسيهما فقط، كان لمعان النجوم التى لا اعداد لها: وقال لى جيم إنها كانت ليلة جميلة — فيها برودة محببة. ونسمات رقيقة تهب من النهر. ويظهر أنه قد لاحظ جمال الليلة الذى كان يشترك معهما فى صداقتهما ويجب ألا تنسوا أننى أروى لكم الآن قصة حب. إذن فلقد كانت ليلة جميلة تعانقهما فيها النسمات الرقيقة. وكان لهب المشعل يهب بين حين وآخر محدثاً صوتاً كالذى يحدثه العلم وهو يرفرف فى الهواء. وكان ذلك هو الصوت الوحيد الذى يسمعانه لفترة من الزمان..... وهمست الفتاة فى أذنه

قائلة : « إنهم فى ذروة المخزن ينتظرون الإشارة » . فسألها . « ومن سيعطيهم هذه الإشارة ؟ » فهزت المشعل الذى ارتفع لديه بعد أن أحدث سيلا من الشرر. واستمرت الفتاة فى همسها وهى تقول: «إن ما أخرهم عن الهجوم عليك هو ماكنت تشعر به من الاضطراب فى نومك . فإنى كنت أراقبك أيضاً ». فقال فى تعجب،وهو يمد رقبته ليرى ما حوله ، « أنت ! » وأجابته فى غضب يائس ، « أتظن أنى كنت أراقبك الليلة فقط ! » .

وقال لى جيم أنه حين سمعها تقول ذلك ، شعر كأن ضربة قلم أصابته فى صدره . فالتقط أنفاسه بصعوبة وظن أنه كان وحشاً فظيعاً وشعر بضميره يؤنبه . وبأن شعوراً رقيقا يمس شغاف قلبه ، وشعر بالسعادة والنشوة الغامرة أيضاً . ودعنى أذكركم ثانية بأن هذه هى قصة حب . إنكم تستطيعون أن تروا ذلك فيما تتميز به من سذاجة باهاء ، سذاجة لا من النوع المنفر ، بل من النوع العلوى الذى يتجلى فى تلك التصرفات فى ذلك الموقف فى ضوء المشعل وكأنهما قد حضرا إلى ذلك المكان خصيصاً ليدلى كل منهما بما عنده كدرس فى الأخلاق تصدبه أولئك القتلة المختفون عن الأنظار . ولو كان أنصار الشريف على يملكون ذرة من الشجاعة — على حد قول جيم — لكانت تلك هى لحظتهم للهجوم . وكان قلبه يدق لا بسبب الخوف ، ولكن يظهر أنه سمع صوت العشب وهو يتحرك . فقفز برشاقة بعيداً عن الضوء . ورأى شيئاً أسمر غير واضح يتحرك بسرعة بعيدة

عن الأنظار . فنادى عليه بصوت قوى : « كورنيليوس ! كورنيليوس ! » وتلا ذلك سكون عميق ، وكأن صوته لم يصل إلى بعد عشرين قدماً ، وجاءت الفتاة ثانية إلى جانبه . وقالت له : « اهرب ! » . ثم رأى المرأة العجوز تقترب منهما ، بقامتها المشوهة وقفزاتها القصيرة الكسيحة ، وهى تحوم عند حافة الضوء . وقد سمعاها وهى تهمهم وتئن فى تنهيدة خفيفة . وكررت الفتاة كلمتها فى اضطراب وهى تقول : « اهرب ! فإنهم خائفون الآن فى هذا الضوء ، وهذه الأصوات ؛ إنهم يعلمون أنك مستيقظ الآن ، ويعلمون أنك ضخم ، قوى ، شجاع . . . » فبدأ يقول : « إذا كنت كل هذا . . . » ولكنها قاطعته قائلة : « نعم — هذا يسرى على الليلة فقط ! ولكن ماذا سيحدث فى ليلة الغد ؟ والليلة التى تليها ؟ وكل الليالى التى تلى ذلك ، والتى لا حصر لها ؟ هل سأستطيع أن أكون هناك دائماً لأسهر عليك ؟ » وكان فى صوتها جهشة بالبكاء ، أثرت فى نفسه تأثيراً يصعب على الكلمات أن تصفه .

وقال لى إنه لم ينتبه قط مثل هذا الشعور بالحقارة والعجز : أما عن الشجاعة ، فما كان جدواها ؟ فلقد شعر بحالة من العجز التام حتى إنه لم ير فى الهرب نفسه أية فائدة . ومع أنها استمرت تهمس فى أذنه بإلحاح محموم وهى تقول : « اذهب إلى دورامين . اذهب إلى دورامين . » ، فلقد علم ألا ملاذ له فى وحدته التى كانت تضاعف شعوره بالخطر مائة مرة إلا فى كنفها . وقال لى : « إننى اعتقدت أننى إن تركتها فإن ذلك سيكون بالنسبة إلى هو نهاية كل شىء »

ولكن لأنه لم يكن فى استطاعتهما أن يظلا واقفين إلى الأبد وسط هذا الفناء، فقد خطر له أن يذهب ليلقى نظرة على ما كان فى داخل المخزن . وتركها تتبعه دون أن يخطر له أن يثنيها عن ذلك، وكأنما كانا قد اتحدا اتحادا لا انفصام له . وهمهم من خلال أسنانه قائلا : « تقولين إنني لا أخاف شيئاً : أليس كذلك ؟» فشدته من ذراعه لتوقف من اندفاعه ، وقالت له : « قف هنا ، حتى تسمع صوتى » . ثم جرت والمشعل فى يدها حول ناصية المبنى . ووقف هو بمفرده فى الظلام ، ووجهه إلى الباب ، ولكنه لم يسمع صوتاً . ولا حتى صوت الهواء حين يدخل إلى صدر إنسان من الجانب الآخر للبناء . وجأرت العجوز الشمطاء من خلفه بالشكوى فى صوت حزين متقبض للنفس ، ثم سمع صوتاً حاداً يكاد يكون صراخاً ينبعث من الفتاة، وهى تقول : « الآن ! ادفع الباب ! » فدفعه بكل قوته ، وانفتح الباب فى طقطقة وصرير مزعجين ، كاشفاً لدهشته الشديدة عن داخل المخزن الذى كان يشبه السجن فى انخفاض سقفه ، والذى كان يضيئه وهج مهتز تحيط به هالة من الدخان النرى نحو وسط الحجرة حيث كان هناك صندوق كبير فارغ ، وكومة من القش . والخرق البالية ، أرادت أن تطير بسبب تيار الدخان المسلط عليها ، ولكنها لم تستطع إلا القيام بحركة ضعيفة ؛ لم ترفعها عن الأرض . وكانت الفتاة قد أدخلت المشعل من خلال قضبان النافذة . ورأى ذراعها العارية الملفوفة ممدودة ، مشدودة العضلات ، هى تمسك بالمشعل فى ثبات كأنه حلقة

من حديد . وكان هناك كومة مخروطية الشكل من الحصير القديم في أحد الأركان البعيدة ، يكاد يصل ارتفاعها إلى السقف — وذلك كل ما كان هناك .

وقال لى إنه أحس بخيبة أمل شديدة لذلك. فإن شجاعته كانت تعرضت لتجارب شديدة بسبب تلك التحذيرات . وكان محاطاً منذ أسابيع طويلة بتلك التلميحات والإشاعات عن المخاطر التى تحيق به إلى حد جعله يتحرق شوقاً إلى الحقيقة التى تريحه من ذلك الشك، إلى شيء مجسد يستطيع أن يلقاه وأن يتصرف إزاءه. وقال لى : «إن وجود مثل ذلك كان سيصفى الهواء لمدة ساعتين على الأقل. ولعلك تفهم ما أقصد بذلك : ياللسماء ! لقد كنت أعيش أياماً كثيرة ، وكأن حجراً ثقيلا يجثم على صدرى » . وأعتقد الآن أنه أخيراً سيجد ذلك الشيء، ولكنه لم يجد شيئاً! ولم يكن هناك أثر، ولا علامة لإنسان . وكان قد رفع سلاحه حين انفتح الباب فجأة . ولكن ذراعه الآن سقطت إلى جانبه . وكانت الفتاة فى الخارج . تصيح فى صوت تامح فى نبراته القلق والعذاب . وهى تقول له : «أطلق النار ! دافع عن نفسك». وكانت وهى فى الظلام، وذراعها ممدودة حتى الكتف خلال فتحة النافذة الصغيرة لا تستطيع أن ترى ما يجرى فى الداخل ولا تستطيع أن تسحب المشعل لتجرى حول المخزن إلى حيث كان. فصاح جيم بها فى احتقار قائلا ، « إنه لا يوجد أحد هنا ! » ولكن شعوره المفاجىء بالانفجار فى الضحك إظهاراً لسخريته وضيقه

شديد ،مات واختفى دون أن يحدث صوتاً،وذلك لأنه في الوقت
لذى كان يدير ظهره فيه إلى لباب كان قدأدرك أنه يتبادل النظرات
ع زوج من الأعين ، في كرمة الحصير . ورأى لمعاناً يتحرك في
اض هذين العينين فصاح في غضب ،مشوب ببعض الشك « اخرج
ن هناك ! » فرأى رأساً ذا وجه أسود ، رأساً من غير جسد يتشكل
ى تلك الكومة القذرة ، رأساً منفصلا بطريقة عجيبة ينظر إليه في
:هم وتقطيب وثبات . وفي اللحظة التي تلت ذلك ، رأى الكومة
ها تتحرك . ويخرج منها رجل على عجل وهو ينفر نفرة خنيفة من
خريه ، ويقفز في اتجاه جيم . وكان الحصير خلفه يقفز ويطير
لى صورة ما ، وكانت ذراعه اليمنى مرفوعة ومثنية عند المرفق .
قد تدلى من قبضته سلاح خنجر على مسافة قريبة فوق رأسه.وكان
ماش الذى يلفه في حبكة شديدة حول فخذيه يبدو ناصع البياض
لى جسمه البرنزى . وكان جسده العارى يلمع كما لو كان مبتلا .

وكان جيم يلحظ كل ذلك . وقال لى ، إنه كان يشعر في هذه
حظة براحة تامة،وبنشوة شديدة لأنه سينتقم أخيراً لنفسه. وعلى
د قوله فلقد تريث عن قصد في إطلاق الرصاص لفترة لا تزيد
ن عشر الثانية، لفترة استطاع الرجل أن يخطو فيها ثلاث خطوات،
ترة لا يكاد الإنسان يحس بها. تريث في إطلاق الرصاص لفرحة
ن سيحس بها وهو يقول لنفسه : « هذا رجل ميت ! » . وكان في

غاية الوثوق والاطمئنان إلى النتيجة ، إلى أنه «رجل ميت ، على أية حال » فراقب منخريه ، اللذين اتسعا ، وراقب عينيــه الكبيرتين ، وراقب سكون وجهه بما ارتسم عليه من تصميم ورغبة حادة ، ثم طلق الرصاص .

وكان الانفجار الذى حدث فى ذلك المكان المحدود شديداً إلى الحد الذى يكاد أن يفقد المرء صوابه . فخطا خطوة إلى الوراء ، ورأى الرجل وهو يحرك رأسه إلى أعلى ، ويرمى بذراعيه إلى الأمام ويسقط خنجره ، وتأكد بعد ذلك أنه قد أصابه فى فمه متجهاً قليلا إلى أعلى بحيث خرجت الرصاصة من الجانب العلوى فى مؤخرة الجمجمة . وبالتدهور الذاتى لاندفاع الرجل ، فقد استمر فى اتجاهه وقد تشوه وجهه فجأة ، وفمه مفتوح ، ويداه أمامه تتحسسان شيئاً يمكن أن تمسكا به كما يفعــل الأعمى ، ثم انكفأ على جبهته بعنف شديد على مسافة قريبة جـداً من أصابع قدمى جيم الحافيتين ، وقال جيم إنه لم يفته شيء من هـذه التفاصيل ، وإنه وجد نفسه هادئاً ، راضياً ، دون حقد ، ودون ندم ، كما لو كان موت ذلك الرجل قد كفر عن كل شيء . وكان المكان قد أخذ يمتلىء بالدخان الأسود من المشعل ، الذى كان يحترق فيه اللهب الثابت ، فى لون الدم الأحمر ، دون أن يهتز . ومشى إلى داخل المخزن فى ثقة وخطا فوق جثة الميت ، وصوب مسدسه إلى رجل آخر كان جسمه العارى فى خطوطه العريضة غير الواضحة يقف فى الطرف الآخر من الحجرة ، وعندما

كان على وشك أن يشد الزناد، رمى الرجل بعنف حربة قصيرة ثقيلة كانت في يده. وجلس القرفصاء في ذلة على عجزيه وظهره إلى الحائط ويداه المتشابكتان بين ساقيه. فسأله جيم: « هل تريد حياتك ؟ » ولكن الآخر لم يفه ببنت شفة. فسأله جيم ثانية: « كم منكم هنا ؟» فقال الرجل بصوت غاية في النعومة، وعيناه مصوبتان إلى ماسورة المسدس: « اثنان آخران أيها اللورد ». وطبقاً لما قال الرجل زحف رجلان من تحت الحصير، وأيديهم الفارغة أمامهم في صورة واضحة قصدوا بها أن يرى الناظر إليها أنها لا تخفى شيئاً.

الفصل الثانى والثلاثون

وأخذ جيم لنفسه موقعاً يستطيع فيه التحكم فى الرجال الآخرين ، وساقهم أمامه جماعة إلى الباب . وكان المشعل طيلة هذا الوقت فى قبضة تلك اليد الصغيرة فى وضع رأسي ، ودون أن ترتعش تلك اليد ولو مرة واحدة . وأصدر لهم أمره قائلا : « شبكوا أذرعتكم » ففعلوا ذلك . ثم قال لهم « إن أول رجل يسحب ذراعه أو يدير رأسه هو رجل ميت : إلى الأمام سر ! » فأخذوا يسيرون معاً ، وهم مشدودو العضلات . وتبعهم والفتاة إلى جانبه فى رداء أبيض طويل ، وشعرها الأسود المرسل يصل إلى وسطها ، وهى تحمل المشعل . وكانت تسير وهى منتصبة القامة فى حركة متمايلة ، وقد بدت وكأنها تتحرك إلى الأمام دون أن تمس الأرض ، فكان الصوت الوحيد الذى يسمع لها هو صوت العشب الذى كان يشبه صوت الحرير ، على جسم غانية وهو ينطوى وينفرد فى الهواء ، تبعاً لخطواتها . وصاح جيم « قف ! »

وكان شاطىء النهر شديد الانحدار . وكان الهواء النقى يهب صاعداً من النهر : وقد سقط الضوء على حافة المياه الداكنة ، ذات السطح الأملس ، الذى كان يعلوه الزبد دون أن ترى فيه موجة

صغيرة واحدة . وكنت ترى إلى اليمين وإلى اليسار ، أشكال البيوت وهي تلتصق بعضها البعض تحت الخطوط العريضة الحادة لسقوفها. وقال جيم للرجال: « بلغوا تحياتي إلى الشريف علي إلى حين حضوري إليه بنفسي » فلم تتحرك رأس من الرؤوس الثلاثة . ثم قال جيم بعد ذلك بصوت كالرعد « اقفزوا ! : » فبدت القفزات الثلاثة وكأنها قفزة واحدة؛ وطار رذاذ الماء فوق رؤوسهم وظهرت رؤوسهم السوداء في حركة غير إرادية ثم اختفت ثانية. ولكن كان تحت الماء حركة كبيرة، ناتجة عن تحريك الأيدي والأرجل وطرد الهواء، ثم ضعفت هذه الحركة لأنهم كانوا يغوصون بكل ما فيهم من قوة تحت الماء، خوفاً من طلقة أخيرة يطلقها جيم للوداع. والتفت جيم إلى الفتاة التي كانت ترقب كل ذلك في سكون وانتباه . ولقد خيل إليه في هذه اللحظة أن قلبه قد نما فجأة حتى صار أكبر مما يمكن أن يحتويه صدره، وأنه قد وصل إلى حلقه وكاد يخنقه. ولعل ذلك على الأرجح كان هو السبب الذي جعله غير قادر على الكلام لفترة طويلة. وحين تلاقت نظرة الفتاة مع نظرته، قذفت بالمشعل المحترق إلى النهر بقوة مستمدة من تحريك ذراعها الممدودة في دائرة واسعة . فطار ذلك الوهج الناري القوي مسافة طويلة في ظلام الليل ثم اختفى في الماء مصحوباً بصوت كريه كفحيح الأفعى؛ واحتواهما سكون الليل، وسقطت عليهما أشعة النجوم الهادئة برفق، ودون منافس .

ولم يخبرني جيم ماذا قال عندما استرد صوته . ولكني لا أظن أنه

كان على جانب كبير من الفصاحة . وكان العالم ساكناً ، والليل يتنفس عليهما، وكانت واحدة من تلك الليالى ، التي يظهر أنها خلقت للحب والحنان: وهناك لحظات نشعر فيها وكأن أرواحنا قد تحررت من غلافها الأسود، واستحالت إلى ضوء وحرارة ، يفيضان بحساسية طويلة تجعل بعض الصمت أبلغ من الكلام . أما عن الفتاة ، فقد قال ، « إنها بكت قليلا : إنه الانفعال . إنك تفهم بالطبع — أو رد الفعل . ولا بد أنها كانت فى غاية التعب ، وكل هذه الأشياء ، و . . . و . . . يااللعنة! إنها كانت مغرمة بى. ألا ترى ذلك . . . وأنا أيضاً . . . ولم أكن أعرف ذلك بالطبع . . . لم تكن الفكرة قد خطرت لى أبداً . . . »

وكان جيم وهو يقص على ذلك قد نهض من مكانه، وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً ، فى شيء من الاضطراب . وقال لى « إنى . . . إنى أحبها حباً كبيراً ، حبا لا أستطيع التعبير عنه. وكيف يمكنني أن أعبر عنه ؟ إنك تنظر إلى أعمالك نظرة أخرى إذا علمت ، وخاصة إذا كان هناك مايذكرك بهذا كل يوم، إن وجودك ضرورى ، ضرورى جداً لشخص آخر . إن هناك ما يشعرنى بذلك كل يوم، وهو شيء جميل . . . ولكن حاول أن تتصور كيف كانت حياتها. إن ذلك شيء مخيف : أليس كذلك ؟ ثم وأنا أجدها هناك على هذه الحالة — كما لو كان المرء يذهب فى نزهة قصيرة ، ثم يجد فجأة شخصاً مشرفاً على الغرق ، فى مكان مظلم مهجور. ياللسماء ! إن المرء لا يجد وقتاً يضيعه

حينئذ : ثم إنها أمانة فى عنقى أيضاً ... وإنى لأعتقد بإننى كفء لهذه الأمانة ... »

ولا بد أن أخبركم أن الفتاة كانت قد تركتنا لأنفسنا قبل ذلك ببعض الوقت ثم ضرب بيده على صدره ، وقال : «نعم ؛ إننى أشعر بذلك وأعتقد أنني كفء لحظى السعيد . » وكانت عنده تلك الملكة فى اكتشاف معنى خاص لكل ما يحدث له . فكانت هذه هى نظرته إلى قصة حبه ، وكانت نظرة شاعرية تتسم بالجد ؛ وكانت أيضاً صادقة حيث إن اعتقاده فى حبه كان يتميز بتلك الجدية التي لا يمكن للشباب إن يتخلى عنها . وكان قد قال لى فى مناسبة أخرى بعد ذلك «لقد مضى على عامان هنا ، وإنى أعطيك كلمتى ، إننى لا أستطيع الآن أن أتصور ، أن أعيش فى مكان آخر . فلقد أصبح مجرد تفكيرى فى العالم الخارجى كافياً لبعث الرعب فى نفسى . لأنى كما يجب أن تعلم لم أنس السبب الذى أتيت هنا من أجله . ليس بعد . » وقال كلماته الأخيرة ، وعيناه فى الأرض ، يرقب حذاءه وهو يسحق قطعة يابسة من الطين سحقاً تاما (وكنا نتجول حينئذ على شاطىء النهر) :

وكنت أتجنب النظر إليه حينئذ ، ولكنى أظن أنني سمعته يتنهد وسرنا فى صمت لبعض الوقت . ثم بدأ حديثه من جديد قائلا : « إنى أقسم لك بكل ما هو عزيز ومقدس : أقسم لك بنفسى وضميرى : إنه لو استطاع الإنسان أن ينسى ذلك ؛ لكان من حقى أن أنساه

وأن أطرده عن دائرة تفكيرى طرداً : وأسأل أى إنسان هنا ... »
وهنا تغير صوته ، وصار هادئاً ، تلمح فيه نغمة الحنين : وقال :
« أليس عجيباً أن هؤلاء الناس جميعاً ، هؤلاء الناس الذين هم على استعداد تام لعمل أى شىء من أجلى ، ليس فى قدرتهم أن يفهموا ؟ وإن كنت لا تصدقني فإنى لا أستطيع دعوتهم لإثبات ذلك ، فذلك يبدو صعباً على . إنني غبي . أليس كذلك ؟ فما الذى أطمع فيه فوق ذلك ؟ إنك لو سألتهم من هو الشجاع ، من هو الصادق ، من هو العادل » من هو الذى يثقون به إلى حد بذل حياتهم له ؟ لأجابوك إنه لورد جيم ... ورغم عن ذلك فإنهم لن يستطيعوا أبداً أن يعلموا الحقيقة ... » .

وكان هذا هو ما قاله لى ، فى آخر أيامى معه . ولم أدع كلمة واحدة ، ولا همسة من كلامه تفوتنى . وكان شعورى حينئـــذ أنه كان سيقول شيئاً أكثر من ذلك ، ولكنه لم يقترب — فى حقيقة الأمر — من جذور المسألة . وكانت الشمس التي يجعل توهجها المركز من الأرض جزيئاً صغيراً من التراب المضطرب ، قد غابت وراء الغابة . وكان الضوء غير المباشر المنعكس على سماء غائمة وهو يسقط على أرض لا ظلال فيها ولا أضواء متوهجة ، يعطيك شعوراً كاذباً بالعظمة الهادية المتأملة ... ولا أدرى لماذا ، وأنا أصغى إليه كنت ألحظ بوضوح الإظلام التدريجى للنهر والهواء فى زحف الليل البطىء ، فى سكونه وقوته التي لا تقاوم ؛ إلى جميع الأشياء المرئية ماحياً خطوطها العريضة

دافناً أشكالها فى أعماقه كأنه جبل منهار ذير منظور من التراب الأسود يسقط عايها .

ثم بدأ ثانية بلا مقدمات، وقال : « بحق السماء ! إن هناك أياماً يجد الإنسان فيها نفسه يتحدث بكلام لا معنى له ولا طعم على الإطلاق ؛ ولكنى أعلم أنني أستطيع أن أتحدث إليك بـكل ما فى قابي . إنى أتحدث الآن ، بإنني قد انتهيت منه . من ذلك الشيء الذى يقبع دائماً هناك فى مؤخرة رأسى . . النسيان . . . على اللعنه إن كنت أدرى ، إني أستطيع أن أفكر فيه الآن بشيء من الهدوء . ولكنى أسائل نفسي : ماذا كانت دلالته ؟ ماذا أثبت ؟ . لا شيء . . . . أظن أنك لا تعتقد ذلك . . » فهمست إليه بنعيي لذلك، واحتجاجى عليه .

فقال : « إن هذا لا يهم . فإني راضى عن نفسى ... أو أكاد . إن كل ما أحتاجه لاستعادة الثقة بنفسى ، هو أن أنظر إن وجه أول رجل أصادفه فى طريقى . إنهم لا يستطيعون أن يدركوا ما يجرى فى داخل نفسى . ولكن ماذا يهم ذلك ؟ هيا اعترف :. بأن نتيجة أعمالى لم تكن سئية ».

فقلت له ؛ « كلا لم تكن سيئة » فقال ، « ولكنك رغم هذا لن تكون سعيداً بصحبتي على ظهر سفينتك ؟ » فصحت فيه : « عليك

اللعنة ! كف عن هذا الكلام ». فقال هو يطل على من قامته الطويلة في هدوء ، « أرأيت ؟ ولكن حاول أن تقول لهم ذلك هنا ؛ فإنهم سيظنون أنك أبله وكاذب ، أو أسوء من ذلك . وعلى هذا فإنى أستطيع أن أواجه ذلك الشيء. إننى فعلت شيئاً أو شيئين من أجلهم هنا ؛ ولكن هذا هو ما فعلوه من أجلى : »

فقلت له : « ياصديق العزيز ، إنك ستكون دائماً بالنسبة إليهم لغزاً غامضاً ليس له حل » . ثم سكتنا :

فقال دون أن يرفع رأسه ، « لغز ؟ حسن إذن دعنى أمكث هنا دائما ».

وبعد ما غربت الشمس ، زحف الظلام علينا وكأنه محمول على هبة من النسيم . ولمحت فى وسط الطريق المسور ؛ ظل تامب إيتام ، وهو يقف بجسده النحيل البارز العظام . فى موقف المترقب ، وقد ظهر لى من بعيد وكأنه ليس له إلا رجل واحدة . ثم رأيت فى نور الغسق شيئاً أبيض يتحرك جيئة وذهاباً وراء العمد التي تسند السقف. وحالما ذهب جيم ؛ وتامب إيتام في عقبيه ليقوم بدورته المسائية . ذهبت وحيداً الى البيت ؛ إذا بالفتاة التى كان من الواضح أنها تنتظر هذه الفرصة ، تقطع على الطريق ؛

ومن الصعب على أن أخبركم عما كانت تريد أن تنتزعه منى ؛ ومن الواضح أنها كانت تريد شيئاً بسيطاً ؛ أبسط المستحيلات فى

الدنيا كالوصف الكامل لشكل سحابة مثلا ! لأنه ليس لذلك الشيء اسم. وكان الظلام مخيماً تحت السقف البارز، فلم أرى منها سوى أبعاد ثوبها الفضفاض ؛ ووجهها البيضاوي الشاحب الصغير، ولألاء أسنانها البيضاء ، وعينيها السوداوين الواسعتين وهما متجهتان إلى . وقد خيل إلى أنهما تتحركان حركة ضعيفة ؛ من نوع الحركة التي يمكن أن تتصور أنك قد رأيتها حين تحدق في قاع بئر عميقة جداً . ثم تسأل نفسك حينذاك : ما الذي يتحرك هناك ؟ أهو جني أعمى ، أم شعاع فقد طريقه من فضاء الكون ؟ وخطر لي — ولا تضحكوا مني — أنه بما أن جميع الأشياء تختلف بعضها عن بعض ، فإنها كانت أكثر استغلاقا في سرها — وهي على ماهي عليه من جهل الطفولة — من أبي الهول . . . وهو يوحي بألغاز من النوع الذي يتداوله الأطفال . . . لمن يمرون عليه . فلقد حملت إلى باتوزان قبل أن تتفتح عيناها . ثم ترعرعت هناك ، دون أن ترى شيئاً ، أو تعرف شيئاً ؛ أو تتصور شيئاً . وإني لأسائل نفسي إن كانت تثق تمام الوثوق بأن هناك بلداً آخر في الوجود . وإني لأتصور الصورة التي كانت في ذهنها عن العالم الخارجي ، الذي كانت لا تعرف من سكانه غير امرأة غدرتها ورجلا شريراً مهرجاً . ثم إن حبيبها قد أتى لها من هناك أيضاً . وقد حبته الطبيعة بفتنة لا تقاوم ، ولكن ماذا سيكون مصيرها، إذا قدر له أن يرجع ثانية إلى تلك الأنحاء التي لا تستطيع أن تتصورها ؛ والتي يظهر أنها تسترجع بنيها دائماً ؟ لقد حذرتها أمها من ذلك قبل أن تموت ودموعها جارية على وجنتيها .

وكانت قد أمسكت بذراعى بقوة ، ولكنى حين توقفت ، سحبت يدها فى سرعة . فلقد كانت جريئة وكانت فى الوقت نفسه هائبة . وكانت لا تخاف شيئاً ، ولكن كان يخفف من حدة جرأتها عدم وثوقها العميق وشدة الغرابة . كانت كرجل شجاع يتحسس طريقه فى الظلام . وعلى حسب تصورها ، فقد كنت أنتمى إلى ذلك العالم المجهول الذى يمكن أن يستدعى جيم إليه فى أية لحظة من اللحظات بما له من حقوق عليه . كنت فى تصورها أعلم سر ذلك العالم المجهول ، وأعلم نياته . كنت حفيظاً على لغزه الذى يهددها : ولربما كنت مسلحاً بقوته أيضاً : إنى أعتقد أنها كانت تظن أنى بكلمة منى كنت أستطيع أن أنتزع جيم من بين ذراعيها . وإنى لأعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الفتاة كان يستبد بها العذاب من الخوف الذى كان ينتابهافى أثناء محادثاتى الطويلة مع جيم .. وكان عذابا حقيقياً يصح أن يدفعها عجزها عن احتماله ، إلى تدبير خطة لقتلى ، لو كان لها من وحشيةالطباع مايتكافأ مع هول الموقف الذى خلقته من أوهامها . وهذا هو انطباعى ، وهو كل ما أستطيع أن أقدمه لكم . ولقد كان الموقف يتضح تدريجياً أمام عيني . وعندما أخذت الصورة تتشكل أمامى وتكشف عن تفاصيلها شيئاً فشيئاً ، فقد اجتاحني شعور جارف من الدهشة ، المشوبة بعدم التصديق . ولقد نجحت فى حملى على تصديقها ، ولكنى لا أجد من الكلمات التي تدل على شيء ما يستطيع أن يصف الأثر الذى أحدثه همسها العنيف المندفع ؛ ونبراتها العذبة

المنفعلة ، وسكونها المفاجىء الذى انقطعت فيه أنفاسها ، والحركات الرشيقة بذراعيها البيضاوين وهما تمتدان فى سرعة . . . وسقط ذراعاها إلى جانبها، وتمايلت كالشبح ، وكأنها شجرة نحيلة فى مهب الريح . وفقد وجهها البيضاوى الشاحب حيويته، وأصبح من المستحيل على أن أميز قسماته ،ولا أن أصل إلى أعماق سواد عينيها.ثم ظهر كمان واسعان فى الظلام ؛ كأن طائراً يفرد جناحيه . ثم وقفت صامتة تمسك رأسها بيديها .

الفصل الثالث والثلاثون

« ولقد تأثرت تأثيراً عميقاً : من شبابها ، ومن جمالها الجذاب بما فيه من سحر البساطة ، والحيوية الشديدة الرقيقة لزهرة برية . وقد كان لرجائها الحار وعجزها نفس الأثر العميق فى نفسى الذى كان لخوفها الطبيعى غير المعقول فيها :

فلقد كانت تخاف المجهول كما نفعل جميعاً . ولكن جهلها بذلك المجهول صنع منه عالماً واسعاً ، لا نهاية له . وكنت أمثل ذلك المجهول بما يحتويه ، فكنت أمثل نفسى ، وكنت أمثلكم ، وكنت أمثل ذلك العالم الذى لم يكن يهتم بجيم ولم يكن يحتاج إليه على الإطلاق . وكنت مستعداً للتحدث باسم هذا العالم المزدحم بالناس ، وبكل ما فيه من عدم اكتراث ، لولا أن جيم أيضاً كان ينتمى إلى ذلك العالم المجهول الغامض الذى خلقته مخاوفها . وأياً كان استعدادى لتمثيل ذلك العالم أمامها والتحدث نيابة عنه إليها فإننى لم أكن أمثل جيم . ولم أكن أريد التحدث نيابة عنه : وهذا ما جعلنى أتردد . . . ولكنى سمعت منها تنهيدة تدل على عذابها اليائس ، جعلتنى أفتح شفتى . وبدأت حديثى بقولى : إننى على الأقل قد حضرت إلى هنا دون أن تكون عندى النية على الإطلاق فى انتزاع جيم منها .

فقالت « لماذا جئت إذن ؟ » وبعد حركة بسيطة عادت إلى جمودها

وكأنها تمثال من الرخام ، فى سكون الليل . فأردت أن أشرح لها سبب حضورى باختصار ، وقلت إن ذلك كان بسبب الصداقة والعمل ، وإنه إن جاز لى أن أبدى رأياً فى هذا الموضوع فإنى أريده أن يبقى هنا إلى جانبها .. فهمهمت قائلة : «إن من عادتهم دائماً أن يتركونا » وكأن نفساً من تلك الحكمة الحزينة فى ذلك القبر ، الذى كان يغطيه إخلاص إبنتها وحبها بالأزهار ، قد مر علينا مروراً عابراً فى هيئة تنهيدة ضعيفة ... وقلت لها ، إنه لا يوجد شىء يمكن أن يفرق بينها وبين جيم .

وفعلا هذا هو اعتقادى الراسخ الآن . وكان هذا هو اعتقادى الراسخ أيضاً فى تلك اللحظة . فذلك هو الشىء الوحيد الذى كان يمكن استنتاجه من حقائق القضية . ولم يزد ذلك الاعتقاد رسوخاً عندى ، حين همست إلى وكأنها تتحدث إلى نفسها قائلة : « لقد أقسم لى على ذلك . » فسألتها ، « هل طلبت ذلك منه . ؟ »

فخطت خطوة نحوى ، وقالت « كلا . أبداً » إن كل ما طلبته منه هو أن يغادر البلاد . وكان ذلك فى تلك الليلة على شاطىء النهر ؛ بعد أن قتل الرجل ؛ وبعد أن قذفت بالمشعل فى الماء . لأنه كان ينظر إليها بطريقة غريبة . وكان الضوء أشد مما يجب وقد زال الخطر ولكن لفترة قصيرة فقط ؛ فقط . فقال حينئذ إنه لن يتركها لكورنيليوس لكنها ألحت عليه . كانت تريد أن يتركها ؟ فقال إنه لا يستطيع ؛ إن ذلك مستحيل . وكان يرتعش وهو يقول ذلك . وقد شعرت به

وهو يرتعش . . . ولا أن أظن المرء يحتاج إلى كثير من الخيال كي يتصور المنظر ، بل كي يسمع همسهما . . أو يكاد . وكانت خائفة من أجله أيضاً . وأعتقد أنها فى تلك اللحظة كانت لا تنظر إليه إلا كفريسة محتومة المصير لأخطار كانت تفهمها أكثر مما يفهمها هو . ومع أنه - بوجوده فقط - كان قد استولى على قلبها وملأ عليها خواطرها وسيطر على مشاعرها ، فإنها رغماً عن ذلك ، لم تكن تثق بنجاحه : ومن الواضح أنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك أحد يثق بنجاحه . والحق أنه لم تكن أمامه فرصة تستحق الذكر للنجاح . وإنى لأعلم أن ذلك كان رأى كورنيليوس فيه فقد أعترف لى بذلك وهو يحاول تبرير الدور المريب الذى لعبه فى مؤامرة الشريف على للتخلص من الكافر . حتى الشريف على نفسه كما يبدو واضحاً الآن لم يكن يكن للرجل الأبيض سوى الاحتقار . فإنى أعتقد أن ما حمله على التفكير فى قتل جيم كان سببه البواعث الدينية فقط . كان عملا لم يقصد به غير وجه الله (وعلى هذا كان سيجازى عليه الجزاء الأوفى) أما فيما عدا ذلك ؛ فقد كانت حياته أو موته أمراً غير ذى موضوع . ولقد وافق كورنيليوس على الشق الأخير من هذا الرأى ، فقال لى بحقارة فى المناسبة الوحيدة التى استطاع أن ينفرد فيها بى ، : « أيها السيد العظيم ، إن كان لى أن أعلم ؟ من كان ذلك الرجل ؟ وماذا كان يمكنه أنى يفعل ليحظى بثقة الناس ؟ وماذا كان يعنى مستر شتاين بإرساله ذلك الفتى الصغير ليتحدث إلى خادمه القديم حديث الكبير إلى الصغير ؟ إنني كنت مستعداً لإنقاذه نظير ثمانين دولاراً فقط . فلماذا لم يذهب ذلك الأحمق ؟

هل كان يريدنى أن أعرض نفسى لضربة خنجر من أجل رجل غريب ؟ وهكذا كان يكشف عن روحه الحقيرة أمامى ، وقد ثنى جسده اينسجم فى الحقارة مع روحه ، ويداه تحومان حول ركبتي وكأنه كان يريد أن يحتضن ساقى . وقال : « ثم ماذا تساوى هذه الثمانون دولاراً ؟ إنه مبلغ تافه تعطيه إلى رجل عجوز عاجز عن الدفاع عن نفسه ومررت حياته تلك الشيطانة التي كانت زوجة له . ثم بكى ... ولكنى أستبق الحوادث . فإنى لم أقابل كورنيليوس فى تلك الليلة ، قبل أن تصفى الفتاة حسابها معى .

لقد كانت تبدى كثيراً من الإيثار وهى تحرض جيم على أن يتركها ؛ بل على أن يترك البلاد كلها. حقيقة كان الخطر الذى يحيق به هو شغلها الشاغل قبل كل شيء حتى ولو كانت تريد أن تنقذ نفسها أيضاً ، ولو فى عقلها الباطن . ولكن ، فكروا فى التحذير الذى كان يتمثل أمامها ، فكروا فى العبرة التي كان يمكن أن تستخلص من كل لحظة من تلك الحياة التي تخلصت منها حديثاً . والتى كانت تتركز فيها كل ذكرياتها .

وقالت لى إنها ارتمت عند قدميه هناك إلى جانب النهر ، تحت ضوء النجوم الحفيظ على أسرار العباد ، والذى كان لا يظهر فيه غير الكتل الضخمة للظلال ، وفضاء واسع غير واضح المعالم ، وهو يسقط فى رعشة خفيفة على مجرى النهر الواسع فيظهر فى صورة بحر

ليس له ساحل . فرفعها إليه ،ولم تقاوم مرة أخرى ، وذلك طبيعي فلقد وجدت الأذرع القوية ، والصوت الحنون،والكتف المتين الذي تستطيع أن تسند إليه رأسها الصغير المتعب الذي يعاني من وحدته. فالحاجة والحاجة التي لا نهاية لها لهذه الأشياء ، التي يفتقر إليها قلبها المعذب وعقلها الحائر ،ثم مطالب الشباب الملحة ، ودوافع اللحظة ، كل ذلك كان يدفعها إلى الاستسلام . وماذا كان يمكن غير ذلك ؟ وإذا لم يفهم المرء ذلك فإنه لا يستطيع فهم أي شيء تحت الشمس . وعلى هذا فقد كانت راضية برفعها إليه ، وبإمساكها بين ذراعيه . وكما همس جيم إلى على عتبة داره ... بكلماته السريعة ووجهه المضطرب القلق قائلا : «أنت تعلم يا للسماء ! إن ذلك كان جداً كله . لا محل فيه للهزل ولا للعب . إنني لا أدرى شيئاً عن اللهو واللعب » . ولكنني أدرى أنه لم يكن هناك شيء على الجانب الخفيف من الحياة في هذه القصة الخيالية . فقد التقيا هناك في ظل إحدى مصائب الحياة ، كما يلتقي الفارس وحبيبته العذراء ليتبادلا عهد الوفاء بينهما على الأطلال التي يأوي إليها الجن . وكان ضوء النجوم هو الضوء المناسب لهذه القصة . وكان ضوءاً خافتاً بعيداً ، لا يستطيع أن يشكل من الظلال صوراً ، ولا أن يجعلك ترى الجانب الآخر من النهر . ولقد ألقيت نظرة على مجرى النهر في تلك الليلة ، ومن نفس المكان الذي كانا فيه فرأيته يجري في سكون وسواد حالك ، يذكرك بنهر ستيكس الذي كان يعبره شارون بموتاه في الأساطير الإغريقية ... ولقد غادرت

باتوزان فى اليوم التالى : ولكننى لن أنسى ذلك الشيء الذى كانت تريد أن تتجنبه ، حين كانت ترجوه أن يتركها قبل فوات الأوان : فلقد أخبرتني به ، حين هدأت (وقد صار اهتمامها الشديد الآن بما كانت تريد أن تعرفه أكبر من أن تضيعه باضطرابها) وفى صوت بلغ من الهدوء فى الظلام مبلغ طيفها الأبيض ، الذى لم أكن أستطيع أن أرى منه إلا نصفه : فقالت لى : « إنني لم أرد أن أموت وأنا أبكى » . . . ولقد ظننت أننى لم أسمعها جيداً .

فكررت كلماتها وراءها سائلا : « لا تريدين أن تموتى وأنت تبكين ؟ » فقالت وكأنها تكمل جملتها السابقة : « مثل أمى » ولم ألاحظ أنه قد تحرك شيء فى هيئتها البيضاء : وفسرت ذلك لى قائلة « إن أمى قد بكت بكاء مراً قبل أن تموت » وخيل إلى أن هدوءاً يصعب تصوره قد خرج من الأرض ليحيط بنا ، وقد ارتفع حولنا ونحن لا نكاد نحس به كما يرتفع فيضان الماء فى سكون الليل، مخفياً المعالم التي نعرفها لانفعالاتنا . واجتاحني خوف يشبه الخوف الذى يعترى الإنسان حين يشعر بأنه يفقد موضع قدميه فى الماء ، خوف من الأعماق المجهولة . . : ومضت فى شرحها لتقول ، إنها فى أثناء اللحظات الأخيرة ، وكانت وحيدة مع أمها اضطرت أن تترك جانب الفراش لتذهب وتضع ظهرها إلى الباب ، كى تمنع كورنيليوس من الدخول فلقد كان يريد أن يدخل ، وأخذ يدق الباب بيديه ولم يكف عن

ذلك إلا بين حين وآخر ، لفترة قصيرة فقط ، كي يصرخ فى صوت مبحوح : « افتحوا لى ! افتحوا لى! افتحوا لى! » وفى الجانب الآخر من الحجرة على بعض الحصير رقدت المرأة التي كانت فى النزاع الأخير وكانت قد عجزت عن النطق ، أو رفع ذراعها . فأدارت رأسها وأشارت بحركة ضعيفة من يدها وكأنها تقول « لا ! لا ! » وكانت الفتاة المطيعة ، وهى تضغط على الباب بكتفيها بكل ما فيها من قوة ، تنظر إلى أمها ، وختمت الفتاة حديثها قائلة : « وسقطت الدموع من عينيها ، وبعد ذلك ماتت . » ونطقت بتلك الكلمات فى رتابة لا تشوبها شبهة فى اضطراب . ولقد أحدثت تلك الطريقة ، التى ألقت بها هذه الكلمات ، فى عقلى دوياً عميقاً بما انطبع عليه من تأثير ذلك المنظر المفزع وما كان فيه من سلبية ، ومن وقوف الإنسان حياله عاجزاً لا يستطيع أن يشير بعلاج أو دواء . ولقد كانت طريقتها الرتيبة — وهى تلقى إلى بهذه الكلمات ، فى بساطة وثبات هى ، التي كان لها فى نفسي هذا الأثر العظيم ، هذا الأثر الذى لم يكن يستطيع أن يحدثه أى شيء آخر ، ولا حتى جمودها الرخامى الأبيض ، وهى تجلس أمامى ، ولا أى سيل من الكلمات البليغة التي كان يمكن أن تجرى على لسانها . فقد كان لها القوة على أن تخرجني عن فكرتى عن الوجود — وعن ذلك الملجأ الذى يصنعه كل منا لنفسه ليزحف إليه فى اللحظة التي يحس فيها بالخطر ، كالسلحفاة حين تدخل إلى قوقعتها . وللحظة خيل إلى أن الدنيا مكان حزين

تسيطر عليه الفوضى ، مع أنها فى الحقيقة — وحمداً لله على جهودنا التى لا تكل — مكان مشمس يسوده النظام ويجد فيه الإنسان كل ما يتصوره من الأشياء الصغيرة ، التى تيسر له حياته . ولكنها لم تكن إلا لحظة صغيرة ، استطعت أن أدخل بعدها إلى قوقعتى مباشرة ، وذلك لازم للإنسان. ألا تدركون ذلك ؟ وإن كنت قد فقدت قدرتى على النطق ، فى فوضي الأفكار السوداء ، التى خرجت بى لمدى ثانية أو ثانيتين عن حدود الرصانة والمنطق السليم . ولكن حاسة النطق لم تلبث أن عادت إلى أيضاً لأن الكلمات تنتمى أيضاً إلى صورة ذلك العالم الذى يغمره الضوء ويسوده النظام وهو العالم الذى نهرب إليه . فكنت قد استعدت قدرتى على الكلام ، قبل أن تهمس إلى فى لهجة عذبة قائلة : « لقد أقسم لى بأنه لن يتركني حين كنا نقف هناك معاً منفردين؛ لقد أقسم لى ! . . » فسألتها معاتباً لها فى إخلاص ، ومشدوهاً حقاً بعدم ثقتها : « وهل من الممكن أنك لا تصدقينه ؟ » . . . ثم لماذا كانت لا تستطيع أن تصدقه ؟ لماذا كان هذا الإلحاح فى الشك ؟ وهذا التمسك بالخوف ، كما لو كان الشك والخوف هما الضمان لحبها ؟ إنه كان شيئاً فظيعاً . لقد كان يجب عليها أن تجد فى حبها الصادق ملجأ أميناً للسلام لا تستطيع أن تنفذ إليه المخاوف والشكوك . ولكن ربما كانت تنقصها المعرفة ، أو المهارة لذلك . وكان الليل يزحف قدماً ، فوجدنا أنفسنا فى ظلام حالك ، حتي انها دون أن تاتى بحركة كانت قد اختفت تماماً من أمامى كما لو كانت شبحاً غير واضح المعالم لروح متمردة

حزينة : وفجأة سمعت همسها ثانية وهى تقول : « إن رجالا آخرين قد أقسموا على ذلك من قبل » ووصلت هذه الملاحظة إلى أذنى كأنها تعليق جاء نتيجة لتأملها العميق لبعض الأفكار المليئة بالحزن والخوف ثم أضافت فى همس أخفض من همسها الأول ـ لو كان ذلك ممكناً ـ قائلة ؛ « إن أبى قد فعل ذلك ». ثم توقفت لتسحب الى رئتيها نفساً من الهواء لاصوت له . وقالت « وأبوها أيضاً » ... وكانت هذه هى الأشياء التي تعرفها ! فقلت فى الحال : « نعم ولكنه ليس كذلك ». وخيل إلى أنها كانت لا تنوى أن تعارضنى فى هذا الرأى . ولكننى سمعت همسها الحالم ؛ وهو يسترق طريقة فى الهواء إلى أذنى وهى تقول : « ولماذا تظن أنه يختلف عنهما ؟ أهو خير منهما ؟ ... أهو .. » فقاطعتها قائلا : « أقسم لك بشرفى أننى أعتقد ذلك . » وكنا نخفض من أصواتنا إلى حد يوحى بالغموض. . . ومن بين الأكواخ التي كان يعيش فيها عمال جيم (وكان أغلبهم من العبيد الذين تحرروا من ربقة الشريف على) ارتفع صوت أحدهم بأغنية استطالت مقاطعها . . . وعبر النهر ؛ كنا نرى ناراً كبيرة تشبه الكرة المشتعلة (وكان ذلك فى معسكر دورامين على ما أظن) . وكانت هذه النار معزولة عزلا تاماً ، وسط الليل البهيم ... وهمست الفتاة : « هل هو أكثر صدقاً وإخلاصاً ؟ » فقلت لها : « نعم »

فكررت سؤالها ، « هل هو أكثر صدقاً وإخلاصاً من جميع الرجال»

فقلت لها « إن أحداً هنا لا يحلم بالشك فى كلمته ، وإن أحداً هنا لا يجرؤ على ذلك إلا أنت »

أظنها قد أتت بحركة ما عندئذ : ثم استمرت فى حديثها وقد غيرت لهجتها سائلة ؛ « أهو أشجع من جميع الرجال؟» . . . فقلت لها فى شيء من العصبية « إن الخوف لن يفرق بينه وبينك أبداً . . . » وتوقفت الأغنية فجأة على نغمه عالية، وتلا ذلك سماعنا لعدة أصوات تتحدث على مسافة بعيدة ثم سمعنا صوت جيم أيضاً ... وأدهشنى منها سكونها التام : فسألتها «، ماذا قال لك ؟ إنه لا بد أن يكون قد قال لك شيئاً ؟ » فلم تجب : فألححت عليها ثانية قائلا « خبرينى ماذا قال لك ؟ »

فصاحت بى أخيراً : « هل تظن أنني أستطيع أن أخبرك بشيء؟ أنى لى أن أعرف ؟ أنى لى أن أفهم ؟ » ثم أحسست بحركة . وأظنها كانت تضغط على يديها . ثم قالت ، « إن هناك شيئاً لا يستطيع أن ينساه » :

فقلت لها فى حزن « هذا خير لك »

فقالت وفى نبراتها من التوسل ما جعلني أحس بها كأنها دعاء أو صلاة، «ماهو ذلك الشيء ؟ماهو ذلك الشيء ؟ إنه يقول إنه كان قد أحس بالخوف مرة . ولكن كيف يمكنني أن أصدق ذلك؟ هل أنا امرأة مجنونة

حتى أصدق ذلك ؟ إنكم جميعاً تذكرون شيئاً ! وأنتم جميعاً ترجعون إلى ذلك الشيء . ما هو ذلك الشيء ؟ إنك يجب أن تخبرنى ! ما هو ذلك الشيء ؟ أهو شيء حى ؟ أهو شيء ميت ؟ إننى أكره ذلك الشيء إنه شيء قاس ! أهناك وجه أو صوت لهذه الكارثة ؟ أفيمكنه أن يرى ذلك الشيء أو يسمعه ؟ أسيمكنه أن يفعل ذلك ؟ ربما فى نومه ، حين لا يستطيع أن يرى وجهى ، فينهض بعد ذلك ويغادرنى ؟ آه ! إننى لن أغفر له ذلك أبداً . إن أمى قد غفرت : أما أنا فلا ! هل سيكون ذلك الشيء فى صورة علامة ؟ أو فى صورة نداء ؟ . . . »

وكانت تلك تجربة مثيرة بالنسبة إلى . فلقد فقدت الفتاة الثقة حتى فى بنومه . وكان يخيل إليها أننى أستطيع أن أخبرها عن السبب ! وكان مثلها فى ذلك ، مثل آدمى مسكين فتنه سحر طيف ، فحاول أن يعتصر من طيف آخر ، السر الهائل لسيطرة العالم الآخر على روح بلا جسد ، ضلت فى متاهات المشاعر المشبوبة على هذه الأرض . وأحسست بذات الأرض التى كنت أقف عليها ، وكأنها تختفى تحت قدمى . ومن الغريب أن ذلك كان فى غاية البساطة أيضاً ، ولكن إذا كانت الأرواح التى نستدعيها بمخاوفنا وقلقنا ، تستطيع أن تضمن دوام إخلاص بعضها لبعض أمامنا : نحن السحرة الذين خلفتهم هذه الأرواح وراءها . فإننى ، وحدى بين سكان هذه الأجساد من

اللحم والدم قد اعترتنى الرعشة من برودة هذا الواجب ... علامة أو نداء ! ما كان أبلغ جهلها فى هـذا التعبير . بضع كلمات ! ... كيف وصلت إليها هذه الـكلمات ، وكيف استطاعت أن تنطق بها . هذا مالا أتصوره . إن النساء يجدن وحيهن من شعورهن بالتوتر فى لحظات ، لا نحس فيها نحن الرجال بشيء سوى أنها لحظات فظيعـة ، أو لا معنى لها ولاجدوى . ولعل اكتشاف المرء لمجرد أن لها صوتاً على الإطلاق كان كافياً لأن يغشى الخوف قلبه . ولو أن حجراً مهملا فى الطريق ، كان قد صرخ من الألم لما ظهر فى هذه المعجزة شيء أشد أثراً وأدعى للرثاء من تلك الكلمات . فإن هذه الأصوات القليلة الهائمة فى الظلام ، قد صبغت حياتهما بما فيهما من فروسية بلون المأساة فى تقديرى . وكان من المستحيل على أن أجعلها تفهم . وأحسست فى سكون بضيق الشديد من عجزى ... ثم جيم أيضاً ، يا له من شيطان مسكين ! من كان سيحتاج إليه . من كان سيتذكره . إنه قد حصل على ما يريد ... وعلى الأرجح إن مجرد وجوده قد أسدلت عليه ذيول النسيان بعد مرور ذلك الوقت . لقد استطاعا أن يسيطرا على مصيرهما . ولـكنهما كانا بطلين فى مأساة .

وكان من الواضح أن جلوسها أمامى ساكنة بلا حراك كان فيه معني التوقع والانتظار ، وأن دورى كان يملى على الدفاع عن أخى الذى حضر من ذلك العـالم ذى الظلال ، التى لا ذاكرة لها ، والتي تنسى كل شيء بعد حين. وكنت أشعر شعورا عميقاً بمسئوليتي وبيأسها وحزنها . وكنت مستعدا لبذل أى شيء كى أستطيع التخفيف من آلام روحها الحساسة ، التي كانت تعذب نفسها بسبب جهلها الذى لاحيلة فيه ، والذى كان يجعلها كالطائر الصغير وهو يضرب بجناحيه الأسلاك الحديدية القاسية فى قفصه ... ... ولم يكن هناك أسهل من أن أقول ؛ « لاتفزعى ! » ولكن لم يكن هناك فى الوقت نفسه أصعب من ذلك! وانى لأتساءل كيف يمكن للإنسان أن يقتل الخوف؟ كيف يمكنك أن تطلق الرصاص على قلب شبح ؛ أو تقطع رأسه أو تخنقه من رقبته ؟ إن ذلك من الأشياء التى يمكن أن تعترضك فى أحلامك ، ثم يسرك أن تهرب منها باليقظة، وشعرك مبتل وكل طرف من أطرافك يرتعش . فالرصاصة التى ستقتل هذا الشبح لم تصنع بعد، والسلاح الذى سيقوم بهذه المهمة لم يعرف بعد ، وحتي كلمات الصدق المجنحة التي يمكن أن يكون لهـا هذا التأثير تسقط حيال هذا العمل عند قدميك وكأنها كتل من الرصاص . إنك لتحتاج فى مثل هذه المواجهة اليائسة لحربة مسحورة مسمومة، مغموسة فى كذبة بلغت من تنكرها واختفائها فى مظهر الصدق ، مبلغاً يستحيل معه وجودها على هذه الأرض . إنها مغامرة لايمكن القيام بها إلا فى عالم الأحلام...

أيها السادة !

وبدأت محاولتي فى طرد هذا الشبح بقلب ثقيل ، يملؤه نوع من الغضب الذى لم أستطع إخفاءه . ثم سمعنا صوت جيم فجأة ، وهو يرتفع بنبرات صارمة عبر الفناء ، ليوبخ أحد الخطاة من الذين كانوا يعيشون على شاطىء النهر . وقلت لها فى همس واضح إنه فى هذا العالم المجهول الذى تتصوره متحفزاً لانتزاع سعادتها منها لا يوجد شىء حى أو ميت ، ولا يوجد وجه ، ولا صوت ، ولا قوة تستطيع أن تنتزع جيم من مكانه إلى جانبها . . . وأخذت نفسا عميقاً ، وهمست هى فى عذوبة : « لقد قال لى ذلك » . فقلت لها : « لقد قال لك الصدق . » فتنهدت قائلا « نعم لا يوجد شىء يستطيع ذلك » ثم أدارت وجهها إلى ، وقالت فى همس لا يكاد يسمع ؛ وإن كان مشحونا بالعاطفة ، « لماذا حضرت إلينا من هناك . . . إنه يتحدث عنك كثيراً . وإنك تجعلنى خائفة . فهل . . . فهل تريده أن يذهب معك ؟ » وأحسست بشيء من الضراوة يزحف إلى نبراتها . فقلت لها فى مرارة . : « إننى لن أحضر إلى هنا مرة ثانية ؛ ثم إنني لا أريده . ولا أحـــد غيرى يريده . » . . . فسألت فى لهجة من الشك ؛ « لا أحد ؟ » فأكدت لها قائلا : « لا أحد » وأحسست بشعور ثائر غريب ؛ يدفعني إلى الكلام ؛ فقلت : « إنك تظنين أنه قوى ؛ وعاقل وشجاع ، وعظيم . . . فلماذا لا تعتقدين أنه مخلص أيضاً ؟ إنى سأرحل فى الغد وستكون هذه هى النهاية . فلن يقلقك بعد ذلك صوت من هناك أبداً . فهذا العالم الذى تجهلينه هو عالم أكبر من أن يفتقده . أتفهمين ذلك ؟

إنه عالم كبير جداً ؛ ثم إن قلبه فى قبضة يدك . ولا بد أنك تشعرين بذلك . لابد أنك تعلمين ذلك » فتنفست ، وكان زفيرها يابساً جامداً ، كأنها تمثال يهمس ، وقالت : « نعم ، إننى أعلم ذلك »

وأحسست بأنى لم أفعل شيئاً . ولكن ماذا كنت أريد أن أفعل؟ إنني غير متأكد الآن . ولكنني فى تلك اللحظة ، كنت أحس بحماسة دافقة ، لا أدرى تفسيراً لها ، تسرى فى كيانى ، كما لو كنت أمام واجب عظيم وضرورى يجب على أن أؤديه . ولعل تلك الحماسة كانت نتيجة لتأثير تلك اللحظة على حالتي العقلية والعاطفية . . . ومثل تلك اللحظات تمر بحياة كل فرد منا ، فيحس المرء بتأثير قوى ، يغزوه من الخارج ، ويجده تأثيراً لا يقاوم ، ولا تفسير له وكأنما كان سببه هو التحركات الغامضة للكواكب . . . . . . لقد كانت تملك قلبه كما أخبرتها . وكانت تستطيع أن تملك كل شيء آخر ، إلى جانب ذلك لو استطاعت فقط أن تصدق ذلك . وكل ما كان على أن أخبرها به ، هو أنه لا يوجد أحد فى ذلك العالم الخارجى بأكمله يمكن أن يحتاج إلى قلبه ، أو إلى عقله ، أو إلى يده . ورغماً من أن ذلك هو مصير مشترك بين غالبية الناس ، فلقد خيل إلى أنه من الفظاعة أن يقول المرء ذلك عن أى إنسان . فأصغت إلى دون أن تنطق بكلمة ، ورأيت فى صمتها هذه المرة نوعاً من الاحتجاج يمليه عليها عدم تصديقها لما أقول . وسألتها لماذا تهتم بهذا العالم الذى يقع خارج حدود الغابة ؟ إنه لن يصل إلى جيم طول حياته ـ كما أكدت لها ـ

نداء ولا علامة ، من ذلك العـالم الفسيح المجهول ، بكل جموعه العديدة التي تسكنه : وأخذتني الحماسة ، فقلت لها ، إن ذلك لن يحصل أبداً أبداً . . . . . . وإني لأتذكر الآن في دهشة تلك الضراوة التي كنت أتحدث بها . وقد تملكني الوهم حينئذ ، بأنني قد أمسكت أخيراً برقبة الشبح . والحقيقة ، أن الصورة التي خلفها وراءه ذلك المنظر الواقعي ، كانت صورة حلم كامل بتفاصيله ، وأثره المذهل . . . فلماذا كانت تخاف ؟ . إنها كانت تعرف أنه قوي ، صادق ، عاقل وشجاع . إنه كان ذلك جميعاً ، بل من المؤكد أنه كان أكثر من ذلك ، فلقد كان عظيما أيضاً — وكان لا يمكن التغلب عليه — ثم إن الدنيا لم تكن تريده ، بل كانت قد نسيته ، بل لم تكن الآن لتستطيع أن تتعرف عليه .

وتوقفت عن الكلام . وكان السكون الذي يخيم على باتوزان عميقاً ، وكان الصوت اليابس الضعيف لمجذاف صغير يرتطم بجانب قارب يسير في وسط النهر قد جعل ذلك السكون وكأنه لا نهاية له ، ثم همست قائلة : « لماذا ؟ » فجعلني ذلك أشعر بنوع من الغضب ، كالذي يحس به الإنسان في وسط المعركة ... وخيل إلي أن ذلك الشبح يحاول أن يفلت من قبضتي . ولما لم أجبها ، قالت مرة أخرى بصوت أعلى « لماذا ! ... خبرني ! » ولما كنت قد جلست حائراً رغم ذلك ، فلقد ضربت الأرض بقدمها كالطفل المدلل ، وصاحت بي ، « لماذا ! تكلم . » فسألتها في غيظ ، « أحقاً تريدين أن تعلمي ؟ »

فصاحت «نعم!» فقلت لها فى وحشية: «لأنه غير جدير بذلك»... وفى لحظة الصمت التى تلت ذلك، رأيت النــار التى على الشاطئ الآخر، وقد علا لهيبها فجأة، فوسع دائرة وهجها؛ وجعلها كالعين التى تحدق فى دهشة... ثم انكمشت النار ثانية، وأصبحت لا تزيد على نقطة حمراء فى الأفق. وعلمت إلى أى حد كان قربها منى، حين قبضت أصابعها فقط على مقدمة ذراعى. وقالت دون أن ترفع صوتها، وإن كانت قد عبأت كلماتها بشحنة قوية من الاحتقار المؤلم، ومن المرارة ومن اليأس: «هذا هو ما قاله لى بالضبط... ولكنك تكذب!»

ونطقت بالكلمتين الأخيرتين باللهجة الوطنية. فتوسلت إليها قائلا: «دعينى أكمل حديثى!» فالتقطت أنفاسها فى رعشة، وقذفت بذراعى بعيداً. فبدأت أحاول أن أفسر لها فى جدية تامة ما أريد أن أقوله. وقلت لها: «لا يوجد أحد، لا يوجد أحد على الإطلاق له هذه الجدارة»؛ ولكنى سمعت أنفاسها وهى تلهث سريعة فى البكاء؛ فأطرقت برأسى؛ وعلمت ألا جدوى من الحديث. وكان هناك وقع أقدام تقترب... فتسللت إلى غرفتى دون أن أنطق بكلمة أخرى...

الفصل الرابع والثلاثون

وأنزل مارلو ساقيه من فوق المقعد فى حركة سريعة ، ونهض واقفاً على قدميه ، وترنح قليلا ، كما لو كان قد نزل على الأرض لتوه من رحلة فى الفضاء ، ثم أسند ظهره إلى الحاجز ، وواجه مقاعد الخيزران فى صفها غير المنتظم : وبدت الأجساد الممددة عليها ، وكأنما قد أوقظت من سباتها نتيجة لحركته . واعتدل واحد أو اثنان منهم فى جلسته على مقعديهما ، كما لو كانا قد أحسا بالفزع : وهنا وهناك كان سيجار لايزال مشتعلا فى يد أحدهم . ونظر إليهم مارلو بعيني رجل عاد لتوه من حلم بعيد . وأزال أحدهم ما علق بحنجرته بكحة خفيفة . وشجعه صوت هادئ على الاستمرار بقوله دون اكتراث : « ثم ماذا ؟ »

فقال مارلو وكأنه يصحو فجأة إلى نفسه ! « لا شيء » . إنه كان قد أخبرها وهذا كل ما فى الأمر . ولكنها لم تصدقه . ولا شيء غير ذلك . أما عن نفسى ، فإنى لا أعلم إن كان من العدل واللياقة وحسن الخلق : أن أسر لذلك أو آسف ؛ فأنا لا أستطيع أن أقول ماذا كنت أصدق : والحق أني لا أعلم حتى هذه اللحظة ، ما هو الذى أصدقه ، والأرجح أني لن أعلم ذلك أبداً . ولكن المهم

ما الذى كان يصدقه ذلك الشيطان المسكين نفسه؟إن الصدق سوف يظهر ... إذا أتيحت له الفرصة : إن هناك قانوناً يحكم ذلك ولا شك ، كما أن هناك قانوناً يتحكم فى حظك حين ترمى « الزهر » : إنها ليست العدالة — خادمة الرجال — ولكنها الصدفة ؛ والمخاطرة والحظ، خليفة الزمان الصابر، هى التى تقيم الميزان بالعدل والقسطاس... فكلانا قد قال نفس الشىء . فهل كان كلاماً صادقاً ، أم كان أحدنا فقط هو الصادق ، أم كان كلانا غير صادق ؟... »

وتوقف مارلو عن الكلام ،وشبك ذراعيه على صدره ، وقال فى لهجة مغايرة : « لقد قالت الفتاة إننا كذبنا : يالها من مسكينة !! حسن : لنترك ذلك للصدفة ، التي يحالفها الزمان الذى لا يمكن الإسراع به ، والتي يعاديها الموت الذى لا يمكن أن يستأخره الإنسان. ويجب أن أقول لكم إنى كنت قد تقهقرت حينئذ، وأنا أشعر بالخوف. وقد حاولت فى مصارعتى مع الخوف أن أطرحه أرضا ،ولكنه هو الذى فعل بى هذا بالطبع . وكان كل الذى نجحت فيه ، هو أن أضيف إلى عذابها ما يوحى بوجود مؤامرة غامضة : أو نوع من الاتفاق السرى لا يمكن فهمه ؛ ولا يمكن تفسيره لإبقائها دائماً فى الظلام: ولقد جاء ذلك الشىء الذى أضفته إلى عذابها ، بطريقة سهلة ، وطبيعية ؛ ومن المستحيل تجنبها ؛ وكان ذلك نتيجة لعمله هو ونتيجة لعملها أيضاً وكأنما كنت قد أطاعت على الطريقة التى يعمل

جها القدر الذى لا مفر منه؛والذى يتخذ منا فريسته ، وأيضاً أداتمه
وكنت أشعر بشعور فظيع وأنا أفكر فى الفتاة التي تركتها واقفة
هناك بلا حراك ... وكان لوقع أقدام جيم — وهو يمر بى دون أن
يرانى — فى حذائه الطويل صوت كصوت النذير. ثم قال فى صوت عال
تلمح فيه الدهشة : «ماذا ؟ لا أضواء ! ماذا تفعلان فى الظلام أنتما
الاثنان ؟» وأظنه لمح الفتاة حينئذ فى الظلام ؛ فقال فى لهجة مرحة،
« هللو أيتها الفتاة ! » فأجابته فى الحال بشجاعة مذهلة: «هالو أيها
الفتى . »

وكانت هذه هى طريقة تحية أحدهما للآخر : وكانت طريقة
التفخيم التى تصطنعها فى صوتها العذب ، العالى النبرات نوعاً ، تجعله
جميلا محبباً إلى النفس ، وتضفى عليه شيئاً من سمات الطفولة . وكان
ذلك يدخل السرور البالغ إلى قلب جيم ، وكانت هذه آخر مرة
سمعتهما فيها يتبادلان هذه التحية التى اعتادا عليها . ولقد أحسست
حينئذ ببرودة كالصقيع تصيب قلبي . فلقد كان هناك ذلك الصوت
العذب ، العالى النبرات ، وكان ذلك المجهود الجميل ، وكان ذلك
التفخيم المصطنع ... ولكن خيل إلى ، أن ذلك كله يموت قبل
الأوان ، وأن تلك التحية الماجنة اللعوب لها فى أذني وقع الأنين .
وكنت أشعر بحيرة شديدة ، وسمعت جيم يسألها : « ماذا فعلت
هللو ! » ثم سمعته يقول بعد ذلك : « هل خرج إذن ؟ هل...

غريب . . . لأني لم ألتق به . . أين أنت يا مارلو ؟ »

فلم أجب: وما كنت أنوى الذهاب إليهما : ليس فى تلك اللحظة على أية حال . فالحقيقة أنني لم أكن أستطيع ذلك : فحين كان يناديني ، كنت فى طريقى إلى الهرب ، من باب صغير يوصل إلى الخارج عند قطعة ممتدة من الأرض التى أخليت حديثاً من الأشجار : كلا ! فلم أكن أستطيع حينئذ أن أواجههما . وأسرعت فى خطواتى ، مطأطئاً رأسي ، فى درب مطروق . وكانت الأرض ترتفع فى هذا الطريق فى بطء ، وكانت الأشجار الكبيرة فيها قد قلعت . وكانت الشجيرات القصيرة تحتها قد قطعت . وكان العشب قد أحرق ، وكان فى نيته أن يحاول أن يقيم مزرعة للبن هناك وكان التل الكبير وهو يرفع قمته المزدوجة فى سواد الفحم، تحت الضوء الأصفر الصافى للقمر المشرق، يلقى ظلاله على هذه الأرض المهيئة لهذه التجربة . وكان جيم سيحاول القيام بتجارب كثيرة . وكنت معجباً بنشاطه ، وإقدامه على المشروعات الجديدة ، واستيعابه لكل جوانب الأمور . ولم يكن شيء على الأرض يبدو لى أقل واقعية الآن من خططه ، وطاقته ، وحماسه . . . وحين رفعت عيني رأيت جزءاً من القمر ، يلمع من خلال الشجيرات فى قاع الثغرة بين قمتي التل ، وخيل إلى للحظة قصيرة أن القرص الأملس ، وهو يسقط على الأرض من مكانه فى السماء قد تدحرج إلى قاع تلك الهوة ، وكانت حركاته وهو يرتفع ، كأنما ود فعل لسقوطه ، كما تفعل الكرة ، وخلص نفسه من فروع

الأشجار المتشابكة ، ولكن أحد الأفرع العالية البارزة لإحدى الأشجار التى تنمو على سفح التل ، قد أحدثت عبر وجهه خدشاً أسود . وقد أتى أشعته المستوية بعيداً وكأنها خارجة من كهف ؛ وفى ضوئه الحزين الذى يشبه ضوء الخسوف ، بدت جزوع الأشجار المقطوعة شديدة الحلكة . وقد سقطت تلك الظلال الثقيلة على أقدامى من كل جانب ، وعلى ظلى المتحرك . وعبر طريقى ؛ سقط ظل القبر المنعزل الوحيد وقد ازدان دائماً بعقود الزهر . وفى ضوء القمر المشوب بالظلال السوداء بدت الأزهار المتشابكة فى أشكال غريبة عما تعيه ذكريات الإنسان ، وألوان لا تستطيع العين التعرف عليها ، كما لو كانت أزهاراً ذات صفات خاصة لم يجمعها آدمى ، ولم تنم فى هذه الدنيا ؛ وقد خصصت لاستعمال الموتى فقط . وكانت رائحتها القوية تعلق بالهواء الدافىء ، وتجعله كثيفاً ثقيلا كأدخنة البخور . وكانت كتل الأصداف البيضاء تضيء حول ذلك البناء الصغير الداكن اللون ، وكأنها مسبحة من الجماجم البيضاء . وكان كل شيء حولى ساكناً إلى حد أننى حين كنت أقف عن الحركة ، كان يخيل إلى أن كل صوت وكل حركة فى هذه الدنيا قد اختفت من الوجود .

وكان السلام يخيم على هذه البقعة ، كما لو كانت الأرض قبراً واحداً . ولقد وقفت هناك فترة ، أفكر فيها بوجه خاص فى الأحياء ، الذين دفنوا فى أماكن بعيدة ، لا يحس بوجودهم إنسان . ومع ذلك فقد قدر لهم أن يأخذوا نصيبهم من تعاسة البشرية — سواء أكانت

هذه التعاسة فى صورة مأساة أم مهزلة ... ... ومن يدرى ! فلربما اشتركوا أيضاً فى نضال الإنسانية النبيل . إن للإنسان قلباً يسع ما فى السموات والأرض . وإن فيه من الشجاعة ما يجعله يضطلع بحمله ؛ ولكن أنى له الشجاعة التي تجعله يلقى بهذا الحمل بعيداً عن كاهله ! .

وأظننى كنت قد استسلمت لحالة عاطفية . . فكل ما أتذكره أننى وقفت فى هذه البقعة فترة طويلة ، جعلتنى أحس بشعور شديد من الوحدة، يأخذ بزمامى إلى الحد الذى جعلنى أنسى كل ماقد رأيته وسمعته قبل ذلك بلحظة. وحتى لغة الكلام بين الناس ، خيل إلى أنها اختفت من الوجود ،ولم تعد لها حياة إلا فى ذاكرتى،وذلك لوقت قصير — كما لو كنت قد أصبحت آخر الأحياء من بنى الإنسان . وقد كان ذلك وهماً غريباً حزيناً،نبت من عقلى وهو بين النوم واليقظة ككل الأوهام ، التي لا أظن إلا أنها رؤى غير واضحة تماماً للحقائق البعيدة التي لا نستطيع الوصول إليها - والحق أن هذه البقعة المفقودة من الأرض ، كانت مكاناً منسياً ، مجهولا ، من الدنيا ... وكنت قد ألقيت نظرة تحت سطحها المحجوب عن الأبصار...وأحسست أنه بعد رحيلى عنها غداً إلى غير رجعة،أنها ستختفى من الوجود ،لتحيا فى ذاكرتى فقط؛ إلى أن يطوينى عالم النسيان ... وإنى لأحس بذلك الشعورحياً فى كيانى الآن، ولربما كان ذلك هو الحافزلى على رواية هذه القصة على مسامعكم ؛ كى أسلم إليكم — ماأستطيع أن أعبر عنه —

بذات وجودها ، بحقيقتها، بذلك الواقع الذى شف عن وجوده لى في لحظة من لحظات الأوهام .

وكان أن اقتحم على كورنيليوس هذه الوحـدة . فخرج على فجأة كالحشرة من عشب طويل ، كان ينمو فى قطعة منخفضة من من هذه الأرض. وأعتقد أن بيته كان قريباً من هذه البقعة ، وهو لا يزال فى حالة العفن التى كان فيها ، وإن كنت لم أره قط ، حيث إنى لم أسر بعيداً فى ذلك الاتجـاه . وجرى على الممر متجها إلى ، وأقدامه فى حذائه الأبيض القذر تظهر بوضوح على خلفية الأرض المظلمة . ورفع رأسه عن الأرض ، ثم بدأ ينهنه وهو ينكمش فى ذلك تحت قبعتـه الطويلة التى كانت تشبه مدخنة الموقد . وظهر جسده الضئيل اليابس ، وقد اختفت معالمه تماماً ، وابتلع فى داخل حلة سوداء من القماش الخشن . وكانت هذه هى ملابسه فى المواسم والأعياد ، وفى أيام العطلة . وذكرنى ذلك بأن هذا اليوم كان الأحد الرابع الذى قضيته فى باتوزان ، وكنت طوال مدة إقامتى فى تلك الأنحـاء ، أحس إحساساً غامضاً بأنه يريد أن يفضي إلى بما عنده ، لو أتيحت له الفرصة فى الانفراد بى . فكان يتسكع ، وعلى وجهه الأصفر الضئيل الذى لا يرتاح الإنسان إلى النظر إليه ، نظرة توسل وضراعة وتحرق ، ولكن جبنه مضافاً إلى نفورى الطبيعى من الاقتراب من شخص مقزز كهذا كان يبعده عن طريقى . وكان من

الممكن أن ينجح رغماً عن ذلك فى مقابلاتى منفردا ، لو لم يكن من عادته أن يختفى متسحباً بمجرد أن تنظر إليه : فكان يتسلل مختفية أمام نظارة رحيم الصارمة ، وأمام نظرتى أيضاً ؛ التى اجتهدت أن أودعها شيئاً من عدم الاكتراث ، وحتى أمام نظرة تامب إيتام الغاضبة المتعالية : والحق أنه كان فى حالة دائمة من ذلك التسلل والتقهقر : وفى كل مرة يرى فيها ، كان فى حركة منحرفة ؛ وهو يتلفت وراءه؛ وعلى وجهه تعبير كالذى يظهر على وجه كاب غاضب ، أو فى مظهر حزين صامت يدعو إلى الرثاء . ولكن أياً كان التعبير الذى كان يرتسم على ذلك الوجه ، فإنه كان لا يستطيع أن يخفى تلك الذلة ، التى كانت جزءاً من طبيعته ، أكثر مما تستطيع الملابس أن تخفى تشويها فظيعاً فى الجسد .

ولست أدرى إن كان السبب هو الأثر الذى مس معنوياتى ، حين حلت بى تلك الهزيمة المنكرة ، فى صراعى مع شبح الخوف منذ أقل من ساعة ؛ ولكنى تركته يلحق بى دون أن أبدى أية مقاومة ، حتى ولو من حيث الشكل ::: وهكذا حكم على القدر بأن أكون موضعاً لأسراره ، وأن أواجه بأسئلة لاجواب لها . وكانت تجربة مرهقة : ولكن الاحتقار — الاحتقار الذى لاحد له ، الذى كان يثيره فى مظهر الرجل — يسر لى احتمال هذه التجربة : ولم يكن من المعقول أن يكون لذلك الرجل أية أهمية : والحق أنى كنت

أعتقد أنه لم يكن هناك مايهم على الإطلاق منذ أن استطاع جيم وهو الشخص الوحيد الذى كان يهمنى أمره أن يسيطر على مصيره . فلقد أخبرنى جيم أنه كان راضياً عن نفسه ... أو يكاد . وذلك أكثر مما يستطيع أن يجرؤ أحـدنا على التصريح به . فأنا الذى لدى مايبرر اعتقادى باستحقاقى لذلك الرضى لا أجرؤ على مثل هـذا القول ، ولعلى لا أكون مخطئاً إذا قلت أن ذلك يسرى عليكم أيضاً ......

وتوقف مارلو عن الكلام ، كما لو كان ينتظر جواباً . ولكن أحدا لم يتكلم . فاستأنف حديثه ثانية وقال « الحق معكم . فيجب ألا تدعوا أحداً يعلم ذلك ، حيث إنه لا يمكن إنتزاع الصدق منا إلا حين تصيبنا كارثة قاسية ، فظيعة ، ... ولكن لا تنسوا أن جيم كان فردا منا . ومع ذلك فقد استطاع ان يقول إنه كان راضياً عن نفسه ...أو يكاد . تصوروا ذلك ! تصوروا أنه كاد أن يكون راضياً عن نفسه. إن المرء ليكاد أن يحسده على الكارثة التي ألمت به ... يكاد أن يكون راضياً عن نفسه ! إنه لا يمكن أن يوجد ما يهم الانسان بعد ذلك . . . ! ... إنه لا يمـكن أن يهمه بعد ذلك ، من الذى يظن به الظنون ، ومن الذى يأتمنه ، ومن الذى يحبه ، ومن الذى يكرهه ، وخاصة إذا كان الرجل الذى يكرهه هو كورنيلوس .

ثم إنه كان فى تلك الحقيقة نوع من التعرف على جيم . فأنتم تستطيعون أن تحكموا على الرجل من أعدائه ، كما تستطيعون أن تحكموا عليه من أصدقائه . وهذا العدو لجيم كان رجلا لا يستطيع أن يخجل من عداوته أى رجل شريف ، وذلك بالطبع ، دون أن يشيد بمثل هذا العدو . وكانت هذه وجهة نظر جيم ، التى كنت أشاركه فيها . وإن كان جيم ، لا يعلق أهمية

على مثل هذه العداوة طبقاً لمبدأ عام . فقد قال لى : « ياعزيزى مارلو ؛ إنني أعتقد أن شيئاً لن يمسنى مادمت أسير فى الطريق المستقيم. وذلك هو ما أعتقده حقاً . ولقد أمضيت هنا مايكفى من الوقت لكى تنظر حولك وترى الحالة بنفسك. أفلا تعتقد صراحة بأنى الآن فى مأمن ؟ - إن كل شيء يتوقف على . وبحق السماء! .. إننى أجد أن ثقتى لا حد لها . وأظن أن أسوأ ما يستطيع أن يفعله ، هو أن يقتلنى : وأنا لا أظن لحظة أنه سيقـــدم على ذلك . وإنك لتعلم أنه لا يستطيع : إنه لن يستطيع أن يقتلنى حتى ولو أعطيته بنفسى بندقية محشوة بالرصاص لهذا الغرض، ثم أدرت له ظهرى. فهو من هذا الطراز. ولكن فلنفرض أنه سيفعل ذلك ، وأنه يستطيع ذلك ؟ .. فماذا فى هذا ؟ ... إننى لم أحضر إلى هنا لكى أطير خوفاً على حياتى . أليس كذلك ؟ .. إننى قد حضرت إلى هنا لكى أضع ظهرى إلى الحائط وسأظل هنا ».

فقاطعته قائلا : « حتى تصير راضياً عن نفسك تماماً ــ أليس كذلك ؟ » .

وكنا نجلس فى تلك اللحظة تحت سقف قاربه فى المؤخرة. وكان فى القارب عشرون مجدافاً ، عشرة منها فى كل جانب ، وهى تضرب الماء معا فى نفس اللحظـــة . بينما كان تام إيتام وراء ظهورنا ، يتمايل يمنة ويسرة، وهو صامت يحدق فى مياه النهر، منتبها للاحتفاظ بالقارب الطويل فى المكان الذى كانت فيه قوة التيار على أشدها . فطأطأ جيم

رأسه ، وخيل إلى ان حديثنا الأخير كان قد انتهى إلى الأبد . وكان فى هذه اللحظة يصحبني إلى مصب النهر لو ذاعى وكانت المركب التي سأستقلها وقد غادر تنافى اليوم السابق، لتشق طريقها فى موجة الجزر، فى أثناء الليلة التي أطالت بها إقامتى عند جيم . وقد جاء ليودعنى الآن حتى ساحل البحر

وكان جيم غاضباً بعض الشيء ، لمجرد ذكرى لكورنيليوس . ولم أكن فى الحقيقة قد قلت شيئاً كثيراً . ولقد كان الرجل من حقارة الشأن ، بحيث لا يمكن أن يشكل خطراً . ولو أنه كان يفيض بالكراهية لجيم . وكان يناديني . « سيدى العظيم » بعد كل جملتين، وهو يتأوه وفمه إلى مرفقى يتبعني على طول الطريق من قبر « المرحومة زوجته » ، حتي بوابة بيت جيم . وأخذ يقول لى إنه أتعس الرجال حظاً ، وإنه فريسة ، وإنه قد سحق كما يسحق الدود. ثم أخذ يتوسل إلى أن أنظر إليه . فرفضت أن أدير رأسى إليه ، ولكنني كنت أستطيع أن أرى من طرف عيني ظله الذليل ، وهو يتبع ظلى ، بينما كان القمر وهو معلق فى السماء عن يميننا يبدو وكأن ينظر نظرة المتسلل الساخر من هذا المنظر وكان يحاول ، كما سبق لى أن قلت لكم أن يفسر الدور الذى لعبه فى تلك الليلة التي لا تنسى . إنها كانت مسألة إنتهاز الفرصة فكيف كان يعرف من ستكون له اليد العليا. و قال لى محتجاً فى أحلى ما كان يستطيع أن يخرجه من نغم ، وهو يتبعنى على بعد خطوة منى ، « لقد كنت أستطيع أن أنقذه ياسيدى العظيم : لقد كنت سأنقذه لقاء ثمانين دولارا » فقلت « إنه قد أنقذ نفسه : وقد غفر لك أيضاً » فسمعت نوعاً من الضحك المكبوت ، وأدرت رأسي

إليه ، ورأيته وكأنه يستعد فى الحال لإطلاق ساقيه للريح ، فسألته وقد توقفت عن المشى « علام تضحك ؟ » فصرخ وكأنه قد فقد كل سيطرة على شعوره قائلا : « لاتدع المظاهر تخدعك أيها السيد العظيم أتقول إنه أنقذ نفسه ؟ إنه لايدرى شيئاً أيها السيد العظيم ! لايدرى شيئاً على الإطلاق . فمن يكون ؟ ماذا يريد هنا ! هذا اللص الكبير . ماذا يريد هنا . إنه يذر الرماد فى كل العيون .. إنه يذر الرماد فى عينيك ياسيدى العظيم . . ولكنه لا يستطيع أن يذر الرماد فى عيني. إنه أحمق كبير ياسيدى العظيم ! »فضحكت منه باحتقار ، واستدرت على كعبي ، واستأنفت سيرى ثانية . فجرى إلى مرفقي ، وهو يهمس بقوة قائلا ، « إنه لا يزيد على طفل صغير هنا . إنه كالطفل الصغير، كالطفل الصغير » وبالطبع فإني لم أعره أية أهمية . ولما رأى أن الوقت ضيق ، لأننا كنا قد اقتربنا من سور البامبو ، الذى كان يلمع فوق الأرض المعتمة ، التي أخليت من الأشجار ، فقد انتقل إلى لب الموضوع الذى كان يريد أن يتحدث عنه . فبدأ بمحاولة ذليلة لإثارة رثائى . وقال إن ما أصابه من الكوارث ، قد أثر فى عقله . وإنه يأمل فى رحمتي وأن أنسي مادفعه الألم والشقاء إلى التفوه به . فهو لم يقصد شيئاً به ، ولكن السيد العظيم لا يدرى شعور الإنسان الذى تهدمت حياته ، وانهار كيانه ، وسحق سحقاً . وبعد هذه المقدمة اقترب من المسألة التي كانت تملأ عليه قلبه ، ولكنه أخذ يحوم حولها فى جبن وذلة ، وقذف بكلماته غير المفهومة حتى استعصى على

لفترة طويلة أن أعرف ما يرمى إليه . وكان يريدنى أن أشفع له عند جيم . وخيل إلى أيضاً، أنه كان هناك مسألة لها علاقة بالنقود . فسمعت الكلمات الآتية تتكرر على لسانه « معاش معقول . هدية مناسبة » ويظهر أنه كان يطالب بقيمة شيء ، واضطرد حديثه حتى قال بشيء من الحرارة إن الحياة لا تستحق أن تعاش ، إذا سلب الإنسان وجرد من كل شيء . ولم أنبس ببنت شفة بالطبع ، ولكنني لم أصم آذاني فى الوقت نفسه . وكانت خلاصة الموضوع الذى أخذ يتضح لى شيئاً فشيئاً ، أنه كان يرى نفسه مستحقاً لبعض المال ، كثمن للفتاة . فهو الذى كان قد نشأها، رغم أنها طفلة رجل آخر . وكان ذلك قد استدعى عذاباً وآلاماً ، وقد صار الآن رجلا عجوزاً وعلى ذلك فهو يستحق هدية مناسبة . . ولو كان السيد العظيم يتكرم بكلمة مناسبة من أجله . . فتوقفت عن الحركة لأنظر إليه نظرة المستطلع، وأظن أنه قد خشى أن أظنه رجلا من تهازى الفرص ؛ الذين يبالغون فى سلب ضحاياهم ، ولذلك فقد أبدى استعداده فى الحال للتخفيف من مطالبه . فقال إنه مقابل « هدية مناسبة » تقدم إليه فى الحال ، فإنه سوف يكون مستعداً أن يأخذ الفتاة تحت رعايته ، وأن يتكفل بها « دون المطالبة بأى مبلغ آخر حين يحين الوقت الذى يرحل فيه السيد الصغير إلى وطنه » . وكان وجهه الأصفر الصغير الذى يمتلأ بالتجاعيد ، وكأن أحداً قد ضغط قسماته بعضها فى بعض ، يعبر عن شح بالغ يضطرب بالقلق ؛ ويشتعل بالشوق للوصول إلى بعض

المال : وارتفع صوته المبحوح كأنين الكلاب وهو يقول محاولا كسبي إلى جانبه : « ثم تنتهى المتاعب ، وأصبح أنا ولى الأمر الطبيعى ، وكل ذلك لقاء مبلغ من المال . »

فوقفت هناك وأنا لا أملك نفسي من العجب . وكان من الواضح أنه كان قد اتخذ من مثل ذلك السعى ، حرفة تناسب طبيعته . واكتشفت فجأة ، أن فى سلوكه الذليل نوعاً من الثقة بالنفس ، كما لو كان معتادا على التعامل فى الأشياء المضمونة طول حياته . وأظنه اعتقد أنى كنت أفكر فى اقتراحه دون تحيز لأنى رأيته فجأة وهو يكاد يقطر عسلا فى حلاوته . فقال . وهو يقصد معني خاصاً من كلماته : « إن كل سيد من البيض يدبر شيئاً من المال يكفى لإعاشة من يتركهم وراءه حين يحين وقت رحيله إلى وطنه » . فقفلت البوابة الصغيرة ورائى ، وقلت له : « فى هذه الحالة ، يامستر كورنيليوس ، لن يحين ذلك الوقت أبداً » فاحتاج إلى بضع ثوانى ، كى يتفهم معني تلك الكلمات جيداً ، ثم إذا به يصيح : « ماذا ، » فقلت له ، وأنا فى جانبي من البوابة « ألم تسمعه يقول ذلك بنفسه ، إنه لن يرحل أبداً إلى وطنه » . فصرخ قائلا : « أوه إن هذا كثير » ، ووجدته قد كف بعد ذلك عن منادانى « بالسيد العظيم » . ووقف لبعض الوقت دون حراك ، ثم بدأ من جديد فى صوت خفيض ، وهو يقول ، دون أثر للذلة أو الخضوع فى لهجته « لن يرحل ، أيحضر إلى هنا من مكان لا يعرفه إلا الشيطان ، يحضر إلى هنا لسبب لا يعرفه إلا الشيطان ليسحقني بقدميه حتي

أموت . ليسحقنى هكذا ؟»(وأخذ يسحق الأرض بقدميه) ثم اختنق صوته تماماً بسبب نوبة خفيفة من السعال . وبعد ذلك أتى إلى السور وقال لى وهو يخفض من صوته كأنه يفضى إلى بسر، وفى لهجة تدعو إلى الشفقة، إنه لن يدع أحداً يسحقه بقدمه. وهمس قائلا وهو يضرب صدره: «الصبر!ـ الصبر!». وكنت قد كففت عن الضحك منه، وإذا به هو نفسه يتبرع بتقديم قهقهة عالية ، فقد سيطرته عليها ، فخرجت متفجرة من صوته المشروخ ! « ها ــ ها ــ ها » وقال « سنرى ! سنرى ! سنرى ! ماذا!؟ يسرقنى ! يسلبنى ! يسلبنى كل شىء ! كل شىء ! كل شىء ! » وسقط رأسه على إحدى كتفيه ، وشبك يديه على صدره . ولقد كان الناظر إليه يظن أنه كان يحب الفتاة ويعزها ، حباً وإعزازاً لاحد لهما؛ وأن روحه قد ذهبت شعاعاً وقلبه قد تحطم حين سلبت منه بطريقة غاية فى القسوة . . ورفع رأسه فجأة ، وانطلقت من فمه كلمات مقذعة ، فقال « إنها مثل أمها الغادرة : تماماً وتشبهها فى وجهها أيضاً. نعم فى وجهها ، كلتاهما كالشيطان!» ثم أسند جبهته إلى السور وأخذ يكيل التهديد وشتائم الكفر المقذعة، وهو فى هذا الوضع ، بلغته البرتغالية. وكان يقذف كلماته فى ضعف شديد مازجاً بها تأوهاته وأناته وهى تخرج من فمه مصحوبة بارتفاع فى كتفيه يبذل فيه جهداً كبيراً ، وكأنما قد انتابته نوبة حادة من المرض. وكانت حالته عرضاً لا يوصف لصورة كريهة من صور المساخر، فتركته وأنا أسرع الخطى؛ وحاول أن يصرخ ورائى ولعله قال شيئاً يسىء إلى جيم. ولكن صرخته لم تكن عالية ، لسبب قربنا من البيت. فكل ما سمعته بوضوح هو قوله « ليس أكبر من طفل . ليس أكبر من طفل » .

الفصل الخامس والثلاثون

ولكن فى الصباح التالى ، وقد حجب أول منحنى فى النهر منظر البيوت فى باتوزان ، واختفت عن ناظرى كل تلك المعالم بما فيها من لون ، وشكل ، ومعنى ، مرة واحدة وكأنما كانت صورة من الخيال على قطعة من القماش ، أدار لها المرء ظهره للمرة الأخيرة بعد طول النظر والتأمل . إن هذه الصورة تظل فى ذاكرة الإنسان ساكنة ، واضحة ، وقد توقفت حياتها فى موقف من المواقف تحت ضوء ثابت لا يتغير ، فكان فيها الطمع والخوف ، والكره والأمل — وكل ذلك كان قد انطبع فى مخيلتى ، بالصورة التى رأيته فيها فى قوة وشدة كما لو كان قد تسجل فى صورة تلك التعبيرات التى على الوجوه كما وعتها ذاكرتى إلى الأبد . وكنت الآن أدير ظهرى لهذه الصورة ، فى طريقى ثانية إلى الدنيا ، التى تتحرك فيها الأحداث ، ويتبدل الرجال ، وتضطرب الأضواء ، وتسرى الحياة فى مجراها الصافى دون أهمية إن سار هذا المجرى فوق الطين ، أو فوق الحجارة . فلم تكن لدى النية فى الغوص فى ذلك المجرى ، لأنه كان يقتضيني بذل كل ما أستطيع من قوة لكى أرفع رأسى فوق الماء . ولكن الأمر كان مختلفاً فيما يتعلق بهذه الأرض التي كنت أتركها ورائى ، فلم أكن أتصور أن يحدث فيها تغير ما . وكنت واثقاً أن كل من فيها سيظلون على ما هم عليه من حال . فسيظل دورامين فى نبله وعظمته وضخامته ، وزوجته الضئيلة الجسم فى شعورها الحاد

في الأمومة ومظهرها الذى يبدو كصورة الساحرات ، ينظران معاً من فتحة بيتهما على رقعة الأرض المنبسطة أمامهما ، وهما يسران مايراودهما من طموح أبوى . وسيظل توكو ألاج فى سنوات شيخوخته العجاف ، وحيرته البالغة . وسيظل دين واريس على ذكائه وشجاعته ، وثقته فى جيم ، وهو ينظر إلى الناس بتلك النظرة الثابتة ، ويعاملهم بتلك الصداقة الساخرة . وستظل الفتاة مستغرقة فى حبها وهيامها المشوبين بالخوف والريبة . وسيظل تامب إيتام سيىء الطبع عظيم الإخلاص لسيده ، وسيظل كورنيليوس مسنداً جبهته إلى السور تحت ضوء القمر . فهؤلاء يعيشون حياتهم ، كما لو كانت بإشارة من عصا ساحر ، ولكن الشخص المهم الذى يجتمع حوله كل هؤلاء ، هذا الرجل يعيش ، وأنا لا أستطيع أن أؤكد أنه سيظل على حاله كالآخرين . فعصا الساحر عاجزة عن تجميد حركته فى خيالى . . . . إنه فرد منا .

وكان جيم - كما أخبرتكم - يصطحبنى فى المرحلة الأولى من رجوعى إلى العالم الذى نبذه . وكان طريقنا فى بعض أجزائه ، يبدو وكأنه يخترق قلب البرية الموحشة التي لم تمسسها يد إنسان . وكانت المسافات الخالية الممتدة فى النهر تتلألأ تحت ضوء الشمس ، التى كانت حرارتها تقبع قريبة من الماء ، بين حاجزين عاليين من النباتات . وكان القارب وهو يندفع بعنف يشق طريقه خلال الهواء ، الذى يظهر أنه كان قد استقر كثيفاً دافئاً تحت ظلال الأشجار العالية .

وكان ظل فراقنا الوشيك ، قد باعد بيني وبين جيم إلى حد كبير

حتى أصبحنا نتحدث فى مشقة ، كما لو كنا نحاول إيصال أصواتنا الخفيضة عبر مسافات طويلة ، تزيد فى اضطراد مستمر . وكان القارب يكاد يطير بنا ، ونحن نجاس جنباً إلى جنب فى ذلك الهواء الآسن الذى اشتدت حرارته ونحن نتصبب عرقاً ، وكانت رائحة الطين والمستنقعات ، والرائحة البكر للأرض الخصبة العذراء ، تلدغ وجهنا إلى أن انحنينا فجأة فأحسسنا وكأن يداً كبيرة، على مسافة بعيدة منا ، قد رفعت أمامنا ستاراً ثقيلا ، وفتحت لنا فى عنف نافذة واسعة كبيرة . فشعرنا وكأن الحركة قد سرت فى الضوء نفسه ، وبأن السماء فوق رءوسنا قد اتسعت ، ثم وصل إلى آذننا دمدمة بعيدة ، وطوقنا إحساس بالانتعاش ملأ رئاتنا بالهواء ، وأطلق أفكارنا من عقالها ونشط دورتنا الدموية ، وزاد أيضاً من شعورنا بالندم . ثم رأينا الغابات أمامنا وهى تختفى على الزرقة المعتمة لحافة البحر .

فتنفست فى عمق، وغمرنى شعور بالمتعة من رؤية الفضاء الفسيح الذى تفتح عنه الأفق . ومن الجو المختلف الذى خيل إلى أنه ينبض بكلح الحياة ، وبنشاط عالم آخر لا غبار عليه . وأحسست بهذه السماء وهذا البحر ، وقد فتحا لى ذراعيهما ... وأحسست بأن الفتاة كانت على حق فقد كان فيهما علامة ، وكان نداء . كان فيهما شيء يتجاوب معه كيانى ، بكل خلية فيه . فتركت عيني تتجولان فى الفضاء وكأنني رجل رفعت عنه قيوده التى كان يرسف فيها ، فأخذ يتمطى عمداً أطرافه المتيبسة ، ثم أخذ يجرى ويقفز بوحى من شعوره بالفرح

بحريته المستردة . وصرخت قائلا : « إن ذلك رائع ! » ونظرت إلى الخاطئ الذي يجلس إلى جانبي . وكان يجلس ورأسه إلى صدره فقال : « نعم » ، دون أن يرفع عينيه ، كما لو كان يخشي أن يرى مكتوباً بحروف كبيرة على صفحة الأفق البعيد ، بسمائه الصافية تأنيباً له على ضميره الموكل بالخيال .

وإني لأتذكر عصر ذلك اليوم بكل تفاصيله الصغيرة. فكان نزولنا من القارب على قطعة من الشاطىء الأبيض ، كانت تعلوها صخرة مغطاة بالأشجار وتحيط النباتات المتسلقة بكل شبر فيها . وكان يمتد تحتنا مستوى البحر فى زرقته الشديدة الهادئة مرتفعاً قليلا حتي يتلاقى مع الأفق الذى يشبه خطاً أفقياً مشدوداً فى مستوى أنظارنا . وكانت هناك أمواج عظيمة تلمع تحت الضوء ، وهى تهب فى رفق على طول صفحة المياه المعتمة . وفى سرعة الريش الذى يطارده النسيم . وكانت هناك سلسلة من الجزر الكبيرة المتفرقة تواجه المصب الواسع للنهر وحتي تظهر بين المياه الشفافة التي يضرب لونها إلى الصفرة ، والتي كانت تعكس فى أمانة معالم الشاطىء . وكان هناك طائر شديد السواد ، يحوم عالياً فى ضوء الشمس الذى لا لون له ، وهو يصعد ويهبط فوق هذه البقعة بهزة رقيقة من جناحيه . وكانت هناك بضعة أكواخ مصنوعة من الحصير الواهى ، وهى مهلهلة مصطبغة بالدخان الأسود ، الناتج من الحريق ، تقبع فوق خيالها المقلوب فى مرآة الماء على عديد من الأكوام العالية من لون الأبانوس . وتحرك من بينها

هذه الأكواخ قارب صغير أسود يحمل رجلين ضئيلي الجسم من ذوى البشرة السـوداء ، كانا يبذلان جهداً جهيداً ، وهما يضربان بمجاديفهما فى تلك المياه المائلة إلى الصفرة . وظهر ذلك القارب وكأنه ينزلق فى مشقة على صفحة مرآة . وكانت تلك الكومة من الأكواخ التعسة هى قرية الصيادين ، التى كانت تفخر بوجودها تحت حماية اللورد الأبيض الخـاصة : وكان الرجلان اللذان يعبران إلينا من هناك ، هما رئيس القرية العجوز وصهره : فنزلا إلى الشاطىء ومشيا نحونا على الرمل الأبيض ، فى جسديهما النحيلين ، ولون بشرتيهما اللتين كانتا كالبن المحروق ، وكأنهما خارجتان من فرن ملىء بالدخان الأسود ، وقد ظهرت بعض بقع الرماد على جلدهما العارى عند الصدر والكتفين . وكان رأس كل منهما ملفوفاً فى خرقة قذرة وإن كانت محبوكة الأطراف فى عناية . وبدأ الرجل العجوز فى الحال يعرض شكواه على جيم ، وكان زلق اللسان ، وهو يمد ذراعيه النحيلتين تأكيداً لكلامه ، ويحدق فيه فى ثقة بعينيه العجوزتين اللتين ضعف منهما البصر : فقال إن أتباع الراجا لا يريدون أن يتركوهم وشأنهم ، فلقد حدثت بعض المشاكل بسبب عدد كبير من بيض السلاحف جمعها قومه من الجزر الصغيرة هناك ، وأشار وهو يستند على مجدافه إلى البحر بيد سمراء بادية العظام : فاستمع جيم إليه دون أن يرفع عينيه ، وقال له آخر الأمر فى رفق ، أن ينتظر قليلا : وإنه ستصيخ إليه بسمعه بعد قليل : فابتعدا فى طاعة إلى مسافة قريبة ،

وجلسا على أعقابهما ، وأمامهما مجاديفهما على الرمل : وتتبع لمعان عيونهما الفضى حركاتنا فى صبر . وكانت فسحة البحر فى مسافاته الشاسعة الممتدة أمامنا ، والسكوت الذى كان يخيم على الشاطىء الذى كان يمتد شمالا وجنوباً إلى أبعد مما يصل إليه بصرى يشكل حضرة حلاقة ترقبنا نحن أربعة الأقزام المعزولين على قطعة من الرمال اللامعة :

وقال جيم وقد ظهرت على محياه سمات التفكير ، « إن المشكلة هى أن الصيادين التعساء فى هـذه القرية كانوا يعتبرون منذ أجيال عديدة عبيداً الراجا ، ولا يستطيع ذلك الراجا العجوز أن يفهم .... :

ثم توقف عن الكلام . فقلت أنا « أن يفهم أنك غيرت كل ذلك » :

فدمدم فى صوت حزين « نعم لقد غيرت كل ذلك »

فاستمررت فى حديثي قائلا : « إذن ، فقد واتتك الفرصة التى كنت تنتظرها » :

فقال : « هل واتتنى ؟ نعم : أظن ذلك : نعم لقـد استعدت ثقتى فى نفسى واكتسبت شهرة . ومع ذلك : ، فإنى أود فى بعض الأحيان . كلا ، إنى سأحتفظ بما وصلت إليه . ولا يمكنني أن أتوقع شيئاً آخر » ثم مد يده مشيراً إلى البحر ، وقال لى . « ليس هناك على كل حال : » ثم ضرب بقدمه الرمال وقال ، « هـذه هى حدودى ، وذلك لأنه لا يكفيني أقل من هذه الحدود » :

واستمر يذرع الرمال على الشاطىء ، واستأنف حديثه، وهو يلقى نظرة جانبية طويلة على الصيادين الصبورين اللذين يجلسان القرفصاء فقال « نعم إنني غيرت كل هذا ، ولكن حاول أن تتصور ما يمكن أن يحدث لو غادرت هذا المكان » بحق السماء ! ألا يمكنك أن ترى ذلك ؟ سيكون معني ذلك أن جهنم قد أطلقت من عقالها . كلا ! فباكراً سأذهب إلى تونكوألانج الأبله العجوز ، وأخاطر مرة أخرى بشرب قهوته ، وسأثير ضجة لا نهاية لها حول هـذا البيض اللعين للسلاحف . كلا إنني لاأستطيع أن أقول كفى أبداإنني يجب أن أستمر إلى الأبد ، موقفاً نهايتي ، لـكى أشعر بوثوق بأن شيئاً لا يستطيع أن يمسني . إنني يجب أن أتمسك باعتقادهم فى كى أشعر بالأمن،وكى . . » وأخذ يبحث عن كلمة ، وكأنما كان يبحث عنها فى البحر . . . « كى أستمر على اتصال بـ . . » وانخفض صوته حينذاك إلى نوع من الهمس . قال . . . « بهؤلاء الذين ربما لن أراهم بعد ذلك أبداً . بـ — بـ لـ ، مثلا . »

فشعرت بأنه قد أخجل تواضعى كل الخجل بكلماته هذه . وقلت : « بحق السماء ، لا تفرد لى هذا المـكان العالى ، يا صديقى العزيز إنه يكفى أن تنظر إلى نفسك . »وأحسست بعرفان للجميل ، ونوع من الشعور الدافىء يجذبني لذلك الفتى الضال ، وهو يفرد لى هـذه هذه المكانة فى قلبه من بين الجموع العديدة التى لا أهمية لها،التى كنت

أحتفظ بمكانى فى صفوفها . ولـكن ما كان أقل ذلك الشيء مدعاة إلى التفاخر ! ... فأدرت وجهى المحترق بعيداً عنه ، تحت الشمس الغاربة وهى تتوهج فى ســواد قرمزى ، كقطعة مشتعلة من الفحم التقطت من النار . وقد رقدت مياه البحر الساكنة فى أبعادها المترامية وكأنها تعد نفسها لاستقبال هـذه الـكرة المشتعلة ... وحاول جيم أن يتكلم ، مرتين ـ ولـكنه كان فى كل مرة يعدل عن ذلك . ولكن يظهر أنه قد وجد أخيراً الصيغة التى يبحث عنها فقال بهدوء .

« سأكون مخلصاً ، سأكون مخلصاً . » وكرر عبارته دون أن ينظر إلى ، ولـكنه للمرة الأولى أخـذ يجول بناظريه فوق صفحة الماء . الذى تغيرت زرقته إلى لون قرمزى حزين ، تحت نيران الغروب... آه إنه كان خيالياً عتيداً ! نعم خيالياً عتيداً ! وتذكرت فى هذه اللحظة بعضاً من كلمات شتاين ... « ثم يغوص فى ذلك العنصر المهلك !... ليجرى وراء أحلامه . ثم يجرى أيضاً وراء أحلامه ! وهكذا دائماً حتي النهاية ... » نعم ، لقد كان خيالياً ، ولـكنه كان صادقاً فى الوقت نفســه . فمن يدرى ما هى التشكلات ، ما هى الرؤى ، ما هى الوجوه ... وما هو الغفران ، الذى كان يراه فى ألوان الشفق !... ثم رأينا قارباً صغيراً يترك المركب ، ويتحرك ببطء تحت الضربات المنتظمة لمجدافيه ، إلى الشاطىء الرملى ، ليأخذنى إليه . وقال جيم فجأة ، وقد خرجت كلماته من ذلك السكون العظيم : الذى كان يخيم على الأرض والسماء والبحر : والذى كان يسيطر على أفـكارى فى

تلك اللحظة حتى أنى قد شعرت بشيء من الفزع من صوته : « ثم إن هناك « جوهرة » فهمهمت قائلا ، « نعم ، هناك « جوهرة » فاستأنف حديثه قائلا : « إنني لست فى حاجة لأن أخبرك عن تأثير وجودها بالنسبة إلى . فلقد رأيت ذلك بنفسك. وإنى لأعتقد أنها بمرور الزمن سوف تفهم ...» فقاطعته قائلا . « إنى أرجو ذلك» فقال فى تفكير « إنها تثق بى أيضاً» . ثم غير لهجته قائلا : « متي سنلتقى ثانية ، يا ترى ؟ »

فأجبته ، وأنا أتجنب نظراته : « إننا لن نلتقى أبداً إلا إذا خرجت من هنا » فلم يبد عليه أنه قد دهش من ذلك . وظل ساكناً لفترة من الوقت :

ثم قال :«إذن ، فالوداع ! ولعل ذلك هو ما فيه الخير».

فتصافحنا ، ومشيت إلى القارب ؛ الذى كان يرتكز على الشاطىء وكان المركب يقف مستعدا للإبحار فى ذلك البحر القرمزى ، وقد نشر شراعه الرئيسي ، وجعل شراعه الصغير الآخر المثلث الشكل فى اتجاه الريح ، وقد اصطبغت شراعه بلون وردى كان ينعكس عليه من الماء والسماء ... وسألني جيم فى اللحظة التي كنت أرفع فيها رجلى فوق حافة القارب « هل تنوى أن تعود إلى الوطن قريباً » فقلت له « بعد حوالى عام ، إن عشت » وسمع صوت احتكاك القارب بالرمال

وصار الآن يطفو فوق الماء ، وارتفعت المجاديف وهبطت إلى الماء مرتين : وارتفع صوت جيم – على حافة الماء – وهو يقول ، «أخبرهم . . ولكنه لم يكمل جملته : فأشرت إلى الرجلين بالتوقف عن التجديف وقد أخذتني الدهشة : . . وسألته ، « أخبر من ؟ » . . . وكانت الشمس التي غمرت المياه نصفها ، فى مواجهته ؛ وكنت أستطيع أن أرى انعكاس لمعتها الحمراء فى عينيه اللتين كانتا تنظران إلى فى سكون فقال : « لا ، لا شيء » ثم أعطى إشارة خفيفة من يده للقارب لكى يستأنف حركته . ولم أنظر إلى الشاطئ بعد ذلك ، قبل أن أتسلق إلى سطح المركب :

وكانت الشمس قد غربت الآن : وظهر نور الغسق فى الشرق وأعتم الساحل ، وهو يمد جدرانه المظلمة إلى مالا نهاية وكأنها حصن الليل المكين . وظهر الأفق فى الغرب وكأنه نار كبيرة مشتعلة من اللونين الذهبي والقرمزى ، يطفو على وجهها سحاب قاتم ساكن يرسل ظله على الماء تحته : ورأيت جيم على الشاطيء ، يرقب المركب وهو يختفى ، شاقا طريقه فى البحر :

وكان الصيادان نصف العاريين قد نهضا فى اللحظة التي غادرت فيها الشاطيء ، وكانا ولا شك يصبان شكواهما من حياتهما التافهة التعسة ، التي كان يستبد بها الظلم فى آذان اللورد الأبيض : ولا شك أنه كان يصغى إليهما ، وقد تبنى هذه الشكوى : أفلم تكن جزءاً من

حظه ، ذلك الحظ الذى أتى إليه منذ سمع كلمة « اذهب » ذلك الحظ الذى أكد لى أنه كفء له تمـاماً . وكانا هما أيضاً على ما أعتقد ممن واتاهم الحظ ، وإنى لأعلم أن إصرارهما كان أيضاً كـفئاً لهذا الحظ . وكان جسداهما الأسودان قد اختفيا على خلفية الشاطىء الطويلة المظلمة ، قبل أن يختفى عن ناظرى شكل راعيهم وحاميهم . وقد كانت الملابس البيضاء تغطيه من رأسه إلى قدميه . ولقد استمر شكله واضحاً أمام بصرى فى إصرار ، وخلفه حصن الليل المكين ، وتحت قدميه البحر ، وإلى جانبه . . فرصته ، فرصته التي كان لا يزال على وجهها النقاب . . . فماذا تقولون ؟ أكان لا يزال على وجهها النقاب . . . لا أدرى . فى عيني ، كان ذلك الشكل الأبيض ، فى سكون الساحل والبحر ، يبدو وكأنه يقف فى قلب عالم واسع غامض . وكان نور الغسق يختفى فى سرعة من صفحة السماء ، فوق رأسه . وكان ذلك الشريط من الرمال قد غاص فعلا من تحت قدميه ، وكان هو لا يزيد فى حجمه عن طفل ، صار مجرد نقطة ، نقطة صغيرة بيضاء ، كان يخيل إلى أنها تجذب إليها كل ما بقى من ضوء فى هذه الدنيا التى كانت تحتويها الظلمة . . . وفجأة ضـاع من عيني فى الظلام . . .

الفصل السادس والثلاثون

وبذلك كان مارلو قد أنهى قصته ، وتفرق المستمعون إليه بعد ذلك تحت نظرته الحالمة وهو مستغرق في التفكير . فخرجوا إلى الشرفة مثنى وفرادى دون أن يضيعوا وقتاً ، أو يبدوا ملاحظة ، كما لو كان خيالهم الأخير في هذه القصة الناقصة ، وكما لو كان هذا النقص نفسه في القصة ، وكما لو كانت لهجة الراوى في ذاتها ، قد جعلت المناقشة عديمة الجدوى ، وجعلت التعليق عليها مستحيلا . وكان يبدو أن كلا منهم قد حمل انطباعه الخاص لهذه القصة معه ، وأنه قد حمله كسر من الأسرار . ولكنه كان قد قدر لرجل واحد فقط من هؤلاء المستمعين ، أن يعرف الكلمة الأخيرة من هذه القصة . فقد وصلت إليه هذه الكلمة في بيته بعد أكثر من عامين من ذلك الوقت ، في هيئة طرد سميك ، معنون بخط مارلو الذى كان يتميز بخطوطه المستقيمة وزواياه الحادة .

وفتح هذا الرجل المحظوظ الطرد ، ونظر إليه ، ثم تركه جانباً ، وذهب إلى النافذة وكان مسكنه في أعلى دور من بناية عالية . وكانت نظرته تستطيع أن تنطلق بعيداً عن ألواح الزجاج الشفافة، كما لو كان ينظر من خلال مصباح إحدى المنارات . فكان يستطيع أن يرى

الأسقف المنحدرة وهى تلمع ، والحافات المعتمة المنكسرة ، وهى تتلو بعضها بعضاً بلا نهاية ؛ وكأنها أمواج معتمة مسطحة . ومن أعماق المدينة تحت قدميه كانت تصعد إليه همهمة مستمرة غير واضحة . وكانت رءوس الأبراج المدببة فى الكنائس بعديدها ، وهى تنتشر هنا وهناك بلا نظام يحكمها ، ترتفع كالأنوار الكاشفة ، على سلسلة من الصخور المتشابكة الخطرة ، على شاطيء ضحل لامجرى له . واختلط المطر المنهمر بنور الغسق الذى أخذ فى الاختفاء ، فى مساء يوم من أيام الشتاء : وكانت الدقات المدوية من ساعة كبيرة على برج من الأبراج ، تعلن عن الوقت وهى تتدحرج فى الأثير محدثة انفجاراً صوتياً عالياً تصحبه ذبذبات حادة من مركز الصوت ... ثم أرخى ستار النافذة الثقيل . وكان ضوء مصباحه للقراءة ' ينام كأنه بركة مغطاة : وكان وقع أقدامه لا يحدث صوتاً على البساط ، وكانت أيام سعيه قد انقضت ولم يعد أمامه آفاق لا حدود لها ::: كالأمل ، ولا ساعات للغسق فى الغابات ::: لها قداسة الهيكل : وهو فى سعيه الحثيث للعثور على الأرض التي ظلت مجهولة إلى الأبد ، فوق التلال وعبر الأنهار ؛ وفيما وراء البحار . وكانت الساعة تدق ! ولكن كان كل ذلك قد مضى ! قد مضي بغير رجعة ! — غير أن الطرد المفتوح تحت ضوء المصباح ، أعاد إليه ذكرى الأصوات والرؤى ، ونكهة الماضى اللذيذة بنفس الطعم والرائحة ، وعديداً من الوجوه التي اختفت وضوضاء الأصوات الخفيضة التي ماتت على شواطيء البحار البعيدة

تحت ضوء الشمس المتجر الذى لايحمل سلوى ولا عزاء .. فتنهد الرجل وجلس ليقرأ .

فوقع نظره أولا على ثلاثة غلف منفصلة . أحدها صفحات ذات عدد لا بأس به كانت مسودة بعض الشيء مشبكة بعضها إلى بعض بالدبابيس؛ وثانيها صفحة منفردة مربعة من الورق الرمادى، وعليها بضع كلمات مكتوبة بخط لم يره قبل ذلك ، ومعها خطاب يفسرها من مارلو . ومن ذلك الخطاب سقط خطاب آخر ، اصفر من القدم وكاد يتمزق عند ثناياه . فالتقطه ، ووضعه على جانب من المنضدة ، وأخذ يقرأ رسالة مارلو . فجرى بنظره سريعاً على سطورها الأولى ، ثم كبح جماح شوقه ، وأخذ يقرأ بعد ذلك فى أناة وعناية ؛ كما يقترب المرء فى خطوات بطيئة وعيون منتبهة إلى أرض مجهولة .

« . . . ولا أظن أنك قد نسيت ، » وكان ذلك سياق الخطاب « فأنت الوحيد الذى أظهر شيئاً من الاهتمام بذلك الرجل ، الذى عاش بعد رواية قصته . وإن كنت أتذكر جيداً أنك كنت ترفض الاعتراف بأنه قد سيطر على مصيره ؛ ولقد تنبأت له بكارثة ستصيبه مما سيلحقه من السأم والاشمئزاز ، من ذلك الشرف الذى حصل عليه ، وذلك الواجب الذى كلف به نفسه ، وذلك الحب النابع من الشباب والشفقة ؛ ولقد قلت إنك تعرف جيداً « ذلك النوع من الرضي عن النفس » الذى يسببه الوهم ، وإنك تعرف أيضاً خداعه الذى لايستطيع المرء أن يتجنبه ؛ ولقد قلت أيضاً ، وأنا أتذكر ذلك جيداً « إنك حين تهب حياتك لهم (ولهم هنا تعنى كل ذوى

البشرة السمراء أو الصفراء أو السوداء من البشر) » فإن معنى ذلك أنك تبيع روحك إلى وحش ضار » ولقد كنت تعارض قائلا : « إن هذا النوع من السلوك ، يمكن أن يحتمل ، وأن يستمر ويصمد الزمن فى حالة واحدة فقط ، وهى حين يكون ذلك السلوك مؤسسا على اعتقاد راسخ بقيمة الأفكار التى ندين بها ، فيما يتعلق بمسئولية الجنس الذى ننتمى إليه ، والتى يمكن باسمها أن نرسي قواعد النظام والأخلاق للتقدم . » ولقد قلت « إننا نحتاج إلى سند من قوة هذا الاقتناع ، وراء ظهورنا، إننا نحتاج إلى الاعتقاد فى ضرورته وعدالته كى نستطيع أن نقوم بتلك التضحية الواعية العظيمة، بحياتنا . وبدون هذا الاقتناع لا تكون هذه التضحية إلا نوعاً من الهرب والنسيان ، ولن يكون طريق هذه التضحية إلا طريق الضياع ، وهلاك النفوس» وبمعنى آخر ، فإنك قد أعربت عن رأيك ، أننا إما أن نقاتل فى صفوف الجماعات ، كما يقاتل الجندى تحت علم الجيش ، وإما أن تضيع حياتنا سدى دون أن يحسب لها حساب . ومن الجائز أن تكون على صواب ! فلا شك أن ما خضته من التجارب يؤهلك للحكم على هذه الأشياء ـ وأنا أقول ذلك دون حقد — أنت الذى اقتحمت فى زمانك ، مكاناً أو مكانين بمفردك ، دون أن تطلب معونة ، ثم خرجت سالماً من هذه المغامرات بمهارتك دون أن تحرق النار جناحيك ... ولكن الذى أريد أن أؤكده لك على أية حال هو أن جيم ، من بين سكان الأرض جميعاً ، لم يتعامل مع أحد قط

إلا مع نفسه . والسؤال الآن هو إن ألم يكن فى آخر الأمر ذا عقيدة تسمو على قوانين النظام والتقدم ؟

إنني لا أريد أن أقطع برأى فى ذلك. ولعلك تستطيع أن تصدر حكمك ، بعد قراءة هذه الأوراق. وإنى لأجد كثيراً من الصدق فى التعبير السائد الذى يقول ، « مشبوه » فمن المحال أن يراه الإنسان فى وضوح. وخاصة أننا نراه للمرة الأخيرة من خلال أعين الآخرين ، ولست أتردد فى أن أحيطك علماً بكل ما أعرف بأحداث الحقبة الأخيرة ، والتى كان يقول عنها إنها قد «جاءت إليه» وإنى لأتساءل إن كانت هذه هى فرصته العظمى ، وامتحانه الأخير الذى أرضي نفسه ، والذى كنت أظن أنه كان يترقبه دائماً ، قبل أن يستطيع أن يكتب رسالته إلى العالم النقى الذى لاغبار عليه . ولعلك تتذكر أننى حين كنت أودعه لآخر مرة ، أنه سألنى إن كنت سأعود إلى الوطن قريباً . ثم صاح ورائى فجأة « أخبرهم ، » .. فانتظرت ؛ وأعترف لك ، أنني كنت متشوقاً لمعرفة ماسيقول ، وأن الأمل كان يداعبنى أيضاً . ولكني سمعته يقول ، « لا .. لاشيء . » وعلى ذلك فقد كان الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، ولم يعد مايسمع بعد ذلك . ولم تكن هناك رسالة ، إلا التى يستطيع كل منا أن يستخلصها لنفسه من لغة الحقائق التي غالباً ماتكون أكثر غموضاً من صيغ الكلام الذى قصد أن يكون له خبيء . وصحيح أنه كان قد حاول مرة أن يفضى

بما فى نفسه ، ولكن تلك المحاولة لم تنجح أيضاً كما تستطيع أن تدرك إذا ألقيت نظرة على تلك الورقة ذات الظل الرمادى فى طى هذا الخطاب . ولقد أراد أن يكتب ، ولعلك لاحظت ذلك الخط الذى ليس فيه ما يميزه عن غيره . وستجد مكتوباً فى أعلى الصفحة « الحصن . باتوزان » وأظنه قد نفذ ما كان ينويه ، بجعل بيته مكاناً حصيناً يصلح مركزاً للدفاع . وإنى أتذكر أن خطته كانت ممتازة ، تشمل خندقاً عميقاً ، وحائطاً من الطين يعلوه صف من الأخشاب المدببة ، ومدافع فى الزوايا نصبت على قواعد عالية يمكنها أن تغطى بنيرانها كل ضلع من أضلاع المربع . وكان دورامين قد وافق على أن يعطيه المدافع وعلى هذا فلقد كان يعلم كل رجل من جماعته ، أن هناك مكاناً أميناً يمكن أن يتجمع فيه كل مقاتل مخلص، عند حدوث أى خطر مفاجىء . وكل ذلك كان يشهد له بالحكمة وبعد النظر ، والثقة بالمستقبل : وكان من يسميهم « بشعبى » . وهم الأسرى الذين تحرروا من ربقة الشريف على ، قد أفرد لهم حى منفصل من باتوزان تحت أسوار الحصن يعيشون فيه فى أكواخهم ويزرعون قطع الارض الصغيرة التي لهم . أما هو فقد كان داخل الحصن، فى مكان يستعصي اقتحامه على المعتدين . وكأنه فيه وحدة جيش من المقاتلين . وكما ترى فإنه لم يكتب غير كلمتي « الحصن باتوزان » ولم يكتب التاريخ فماذا يهم العدد والاسم ليوم من سائر الأيام ؟ ثم إنه من المستحيل أن نعرف من الذى كان يريد أن يكتب إليه ، حين أمسك بالقلم

هل هو شتاين ؟ هل هو أنا ، أم هل هى الدنيا بأسرها؟ أم كان ذلك هو مجرد صيحة فزع لاهدف لها لرجل وحيد يواجه مصيره المحتوم ؟ فقد كان كل ما كتبه قبل أن يرمى القلم للمرة الأولى، هو « لقد حدث شيء مروع » . ولاحظ بقعة الحبر التى تشبه رأس السهم تحت هذه الكلمات . ولقد حاول أن يكتب مرة أخرى ، وهو يضغط على القلم ، كما لو كانت يده ثقيلة كالرصاص ، فكتب سطراً واحداً « ويجب على الآن ، حالا ... » ولكن الحبر كان قد انتشر من القلم ، وفى هذه المرة عدل نهائياً عن الكتابة . ولابد أنه قد علم أنها النهاية ، فلقد رأى أمامه هوة لا يمكن تخطيها ، ولو بالنظر أو الصوت . وإنى لأستطيع أن أفهم ذلك ، فلقد وجد نفسه مغلوباً على أمره تماماً أمام شيء لا يستطيع تفسيره ، وأمام شخصيته ، شخصيته التى منحها له مصيره الذى فعل كل مايستطيع للسيطرة عليه .

ولقد أرسلت لك خطاباً قديماً أيضاً . وهو خطاب قديم جداً . ولقد وجد ذلك الخطاب فى حقيبته محاطاً بعناية خاصة لحفظه ، وحمايته من التمزق . وكان من أبيه . وترى من تاريخه أنه كان قد استلمه قبل التحاقه بالباخرة « باتنا » ببضعة أيام . وعلى هذا فلابد أنه كان آخر خطاب تسلمه من ذويه . وقد احتفظ به طيلة هذه الأعوام . ويظهر أن القسيس العجوز الطيب كان معتزاً حقاً بابنه البحار . ولقد ألقيت عليه نظرة سريعة ، وأنا أقرأ فيه جملة هنا وجملة هناك ، فلم أر فيه شيئاً

سوى التعبير عن عطف الوالد وحنوه . فهو يقـول لولده « العزيز جيمس » ، إن آخر خطاب طويل له كان غاية فى « الأمانة والمتعة » وكان لا يريده « أن يحـكم على الرجال حكماً قاسياً أو متسرعاً » وفيه أربع صفحات كلها نصائح أخلاقية هينة ،وأخبار عن الأسرة فقال إن توم قد « انتظم فى الجيش » ، وإن زوج كارى قد مـنى « ببعض الخسائر المـالية » . ويظهر أن الرجل العجوز ، يسير فى حياته محتفظاً برصانته ، موكلا أمره إلى العناية الإلهية ، ونظام الكون المستقر ، وإن كان يحس فى الوقت نفسه بمـا حوله من الأخطار الصغيرة ومن النعم الصغيرة أيضاً . ويكاد يستطيـع المرء أن يراه فى شعره الأشهب والسكينة التى ارتسمت على وجهه ، وهو جالس فى حجرة مكتبه المريحة التي بهت لونها ، واصطفت الكتب على جوانبها والتى كان يعتبرها ملجأ أميناً لا يستطيـع أحد أن يقتحمه عليه حيث كان يفكر بضميره ، ويعيد التفكير طيلة أربعين عاماً فى آرائه الصغيرة عن الإيمان والفضيلة،وعن السلوك فى الحياة،والطريقة المثلى الوحيدة التي يقابل بها الإنسان الموت أيضاً . وحيث كان يكتب مواعظه العديدة ، وحيث كان يجلس متحدثاً إلى ولده هناك . . فى الجانب الآخر من الأرض : ولكن ،ماذا عن المسافات ! إن الفضيلة واحدة لا تختلف باختلاف المكان فى كافة أنحاء الأرض ، وليس هناك إلا عقيدة واحدة،وإلا طريقة واحدة للسلوك فى الحياة : : أو لاستقبال الموت : وهو يرجو من « عزيزه جيمس » ألا ينسى أبدا أن من ينهاه

أمام الاغراء، يكون فى نفس اللحظة قد خاطر ببيع روحه إلى الشيطان وبهلاكها الأبدى . وعلى ذلك يجب أن تعقـد العزم مهما كانت الدوافع على ألا تفعل شيئاً تعتقد أنه يحيد بك عن الطريق المستقيم »..؛ وفى الخطاب أيضاً بعض الأخبار عن كلب عزيز وعن مهر : « كنتم جميعاً تركبونه أيها الأولاد » ، قد أصيب بالعمى بسبب الشيخوخة واضطررنا لقتله رمياً بالرصاص . ويطلب الرجل العجوز أن تحل عليه بركات السماء ، ثم بعد ذلك ترسل الأم وشقيقاته بحبهن إليه..؛ كلا ، فليس هناك شيء يستحق الذكر فى ذلك الخطاب الأصفر ، الذى كاد يتمزق وهو مطوى ، وانساب بعد ذلك طائراً إلينا من بين يديه ، المعتزين به ، بعد كل هذه الأعوام . ولم يرسل الرد أبداً على هذا الخطاب . ولكن من يدرى أى حديث جرى له مع هذه الهيئات الهادئة التى لا لون لها ، من صور الرجال والنساء الذين يسكنون تلك البقعة الهادئة من الأرض ، التى كانت كالقبر فى تحررها من كل جهاد وبعدها عن كل خطر . والذين كانوا يتنفسون فى سكينة ، لا اضطراب فيها ، هواء الخلق القديم والاستقامة . ويبدو لى من المدهش أن ينتمى جيم إلى تلك البقعة ، وهو الذى « حدثت له » كل هذه الأحداث ؛ أما هم فلم يكن ليحدث لهم شيء على الإطلاق ، ولا كانت الأحداث لتنقض عليهم على حين غرة . ولا يمكن يضطروا فى يوم من الأيام أن يشتبكوا فى حرب مع المصير فجميعهم هنا ؛ فى الصورة المستمدة من الثرثرة اليسيرة للأب ، جميع هؤلاء الإخوة والأخوات ، الذين هم عظم من عظمه ، ولحم من لحمه ، وهم يحدقون بأعينهم الصافية فى فيروعى

بينما يخيل إلى أنني أراه،وقد رجع فى آخر الأمر ، ولم يعد مجرد نقطة بيضاء وسط غموض لاحد له ـ ولكن كرجل عتيد،فى صورته وأبعاده الكاملة ، وهو يقف غير ملحوظ بينهم :فى هيئاتهم التى لا يبدو عليها هم ولا شقاء : . فى مظهره الصارم الخيالى ـــ ولكنه يقـــف ساكتاً غامضاً . : مشبوهاً .

وستجد قصة الحوادث الأخيرة ، فى هـذه الصفحات القليلة المرسلة إليك طى هذا الخطاب . ولابد أنك ستعترف بغرابتها التى جاوزت أشد أحلام صباه المبكر إمعاناً فى الخيال. ومع ذلك فإنى أجد فيها لوناً من المنطق العميق المفزع. كما لو كان خيالنا فقط وهو الذى يستطيع أن يطلق علينا القوة الكاسحة لمصير لا قبل لنا برده فطيش أفكارنا يرتد رد فعله على رءوسنا ، ومن يلعب بالسيف فبالسيف يهلك . فهذه المغامرة المذهلة التى أدهش ما فيها أنها حقيقة ، هى نتيجة لم يكن فى المستطاع تجنبها فقد كان لابد من حدوث شىء من هذا القبيل . والمرء لا يتمالك نفسه من تكرير هذه الكلمات ، وهو يتعجب أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث فى وقتنا هذا. حيث إنه قد حدث فعلا فى السنة قبل الماضية،ولا يمكن لإنسان أن ينكر ما فيه من منطق :

وإنى لأكتب إليك هنا ، كما لو كنت شاهد عيان . ولقد كانت معلوماتى عن الحادث مبعثرة هنا وهناك ، ولكنى جمعت أجزاء القصة

بعضها إلى بعض: وأجد أن فى هذه الأجزاء مايكفى لكى يعطينا صورة نستطيع أن نتبعها . وإنى لأتساءل ، كيف كان جيم سيروى هذه القصة بنفسه . فلقد أفضى لى بكثير من أسراره ، إلى حد أنني فى بعض الأحيان أتخيل أنه لابد سيحضر إلى على الفور ، ويخبرنى بقصته . . فى كلماته هو التى سيختارها ، وبصوته غير المكترث الذى يفيض فى الوقت نفسه بشعوره وأحاسيسه ، وبطريقته المرتجلة التى يبدو فيها حائراً قليلا ، ومضطرباً قليلا ، ومجروحاً قليلا . وبكلمة أو عبارة بين حين وآخر تعطينا لمحة إلى أعماقه ، ولكن لاتفيدنا على الإطلاق فى معرفة حقيقته ، أو تعيين إتجاهاته .

إنه من الصعب على أن أعتقد أننى لن أراه ثانية ، ولن أسمع صوته ، أو أرى وجهه الناعم الوردى ذا الخط الأبيض الذى على جبهته ؛ والعينين الفائضتين بالشباب ، وقد أعتمتا قليلا من جراء ثورة مشاعره ، حتى تحولتا إلى ذلك اللون الأزرق العميق الذى لا يمكن النفاذ إليه :

الفصل السابع والثلاثون

وتبدأ هذه الحوادث بمغامرة خطيرة ، من رجل يدعى براون ، نجح نجاحاً تاماً فى سرقة مركب اسبانى فى خليج صغير بالقرب من زامبوانجا . وحتى استطعت أن أعثر على مكان ذلك الرجل ، كانت معلوماتى غير كاملة . ولكنى وجدته بطريقة غير متوقعة قبل بضع ساعات من إسلامه لروحه المستكبرة . ومن حسن الحظ أنه كان راغباً ، وقادرا ، على الكلام بين نوبات الربو الخانقة التى كانت تنتابه . وكان جسده المعذب يتلوى سرورا أو شماتة لمجرد تفكيره فى جيم . فقد كان يظهر سروره العظيم بأنه « قد سوى حسابه مع ذلك الشحاذ المتكبر رغماً عن كل شيء » وكان مافعله مصدر كبرياء لا حد لها فى نفسه . وكان لا بد لى أن أحتمل تلك النظرة الغائرة التى تحدقنى بها عينه الجارحة التى تغضن الجلد حولها ، إن كنت سأستقى منه هذه المعلومات ، وعلى ذلك فقد احتملت هذه النظرة ، وأنا أفكر فى شدة الشبه لبعض صور الشر بالجنون ، الذى ينبع من الأنانية الشديدة ، ويلهبه مايلقى من مقاومة ، فيمزق روح الإنسان إلى أشلاء ، ويضفى على الجسد قوة ونشاطاً حقيقيين . وتكشف هذه القصة أيضاً عن أعماق من المكر فى كورنيليوس ، لم يكن المرء ليتصور إمكان وجودها فيه ،

وأن كراهته الشديدة الذليـــلة كانت تقوده إلى الطريق الموصل إلى الانتقام ، وكأنها وحى خفى .

وقال براون لى وهو يموت : « ولقد أدركت بمجرد أن وقع نظرى عليه ، إلى أى نوع من الحمق كان ينتمى . ويقولون عنه إنه رجل بحق جهنم! لقد كان وهماً أجوف وكأنه لم يكن يستطيع أن يقول لى فى كلام صريح مباشر : « ارفع يدك عن هذه الغنائم ، فإنها ملكى ! »عليه اللعنة ! فلو قال ذلك لظهر على الأقل بمظهر الرجال ! فلتذهب روحه بسموها إلى الجحيم ! لقد كنت فى قبضة يده، ولكنه لم يكن يملك من قوى الشر فى نفسه ما يجعله يقضى على.لا ... ليس هو ! وتصور تصرفاً من هـــذا النوع ، وهو يطلق سراحى وكأننى لا أستحق حتى ركلة من أقدامه !...» وكان براون يحاول فى يأس ، أن يلتقط أنفاسه ... « إنه دعى ... وقد أطلق سراحى ... وإذن فقد نجحت فى آخر الأمر أن أقضى عليه .. » ثم أصابه الاختناق ثانية ... ثم قال : « وإنى لأنتظر أن يقضى على هذا الربو ، ولكنى أستطيع أن أموت الآن مرتاح البال . وأنت...أتسمعنى ؟ ... إننى لا أعرف اسمك . إنى كنت سأمنحك خمسة جنيهات عن طيب خاطر لو كان معى هذا المبلغ ثمناً لأخبارك وإلا فإنى لا أستحق اسم براون ... » وظهرت على فمه ابتسامة وقحة مقززة ... وأضاف « جنتلمان براون » .

قال لى كل ذلك فى لهثات عميقة،وهو يحدق فى بعينين صفراوين فى وجه طويل أسمر مليء بآثار الجروح والتجعدات ، ويكثر من تحريك يده اليسرى،وكانت له لحية بلون الملح الذى اختلط بالفلفل الأسود ، كأنها من نسيج الألياف تكاد تصل إلى حجره،وكان يغطى رجليه ببطانية قذرة ممزقة : ولقد عثرت عليه فى بانجكوك ، عن طريق شومبرج — ذلك الفندقى الذى كان يحشر أنفه فى كل شيء — والذى أرشدنى عن المكان الذى يمكن أن أجده فيه. ويظهر أن رجلا أبيض ممن ينتمون إلى فئة المشردين المتسكعين ، المشكوك فى قوائم العقاية كان يعيش بين الوطنيين مع امرأة سيامية . وقد اعتبر ذلك الرجل ، أنه شرف عظيم له ، أن يأوى فى بيته « جنتلمان براون » المشهور ،فى آخر أيام حياته.وبينما كان يتحدث إلى فى ذلك الكوخ التعس،وهو يقاتل كما كان يفعل من أجل كل دقيقة فى حياته، كانت المرأة السيامية برجليها العاريتين الضخمتين ، ووجهها الغبى الخشن القسمات تجلس فى ركن مظلم وهى تمضغ نبات « البيتل » فى برود ظاهر ، وعدم اكتراث بما يجرى حولها . وكانت تنهض بين حين وآخر لتهش على فرخة لتبعدها عن الباب . وكان الكوخ كله يهتز ، حين تمشى.وكان هناك طفل عار قبيح الشكل ، أصفر اللون،له بطن منفوخ كإله صغير الحجم من آلهة الوثنيين ، إلى جوار الأريكة ، يضع أصبعه فى فمه،وهو يتأمل فى استغراق عميق هادىء الرجل الذى يعانى سكرات الموت :

وكان يتحدث كالمحموم، ولكن ربما كانت هناك يد غير مرئية تقبض على حلقه وسط كلمة لم يكمل نطقها بعد، فإذا به يحملق فى نظرة بكماء كالشيطان الأخرس، وقد ارتسمت على وجهه صورة من الشك والعذاب. ويظهر أنه كان يخشى أن أسأم من الانتظار، وأرحل عنه. تاركاً إياه قبل أن يقص قصته، ويعبر عن سروره وشماتته. وأظن أنه قد مات فى نفس الليلة، ولكن — بعد أن قال كل ما عنده ...... ولندع براون الآن جانباً — إلى حين ..

فقبل ذلك بثمانية أشهر كنت فى سامارانج، وذهبت كعادتى لرؤية شتاين فرأيت رجلا من الملايو على الشرفة فى الجانب الذى فيه الحديقة من البيت، يحيينى فى شيء من الخجل. وتذكرت أننى كنت قد رأيته فى باتوزان فى بيت جيم، بين آخرين من رجال البوجيز الذين اعتادوا الحضور فى المساء ليتحدثوا حديثاً متقطعاً عن ذكريات الحرب، أو عن شئون الدولة. وكان جيم قد أشار إليه مرة قائلا إنه تاجر صغير محترم بين قومه، يملك قاربا صغيراً من قوارب البحار التى يصنعها سكان البلاد الوطنيون. وقال إنه قد أبرز نفسه «كمقاتل من خير المقاتلين فى المعركة التى نشبت حين اقتحام معسكر الشريف على» ولم أدهش كثيراً لرؤيتى إياه حيث إن أى تاجر من باتوزان، له الجرأة على السفر إلى سامارانج، كان من الطبيعى أن يحضر لزيارة شتاين فى بيته ... فرددت عليه التحية،

واستمررت فى طريقى . وعند باب حجرة شتاين رأيت رجلا آخر من الملايو تبينت أنه تامب إيتام .

فسألته فى الحال عما يفعل هناك . وخطر لى أن جيم ربما كان قد حضر فى زيارة لسامارانج . وأعترف بأنى كنت مسروراً ، وقد اجتاحتنى نوبة شعور جياش ، حين خطرت لى هذه الفكرة . ولكن تامب إيتام بدت عليه حيرة جعلته لا يعرف ماذا يقول . فسألته وأنا لا أطيق صبرا ، هل اللورد جيم هناك فى الداخل ؟ « فهمهم قائلا وقد أطرق برأسه لحظة ، « كلا » . ثم قال فجأة فى لهجة صارمة من الجد : « إنه رفض أن يقاتل ... إنه رفض أن يقاتل » مكرراً هذه الجملة مرتين . ولأنه بدا لى عاجزاً عن أن يضيف شيئاً آخر إلى هذه الكلمات ، فقد نحيته جانباً ، ودخلت إلى الحجرة . وكان شتاين فى قامته الطويلة التى كان فيها شيء من الانحناء يقف وحيداً فى وسط الغرفة ، بين صفوف صناديقه ذات الواجهات الزجاجية التى كانت تحتوى على فراشاته . فقال لى فى رنة حزينة وهو يحدق فى من خلال نظارته « آخ ! ... أهذا هو أنت ياصديقى ؟ » وكان يرتدى معطفاً طويلا مفتوحاً من صوف حيوان « الألباكا » ، وصل إلى ركبتيه ؛ وكان يضع على رأسه قبعة من النوع المعروف باسم « باناما » وكانت تظهر فى خديه خطوط عميقة من الغضون . فسألته فى عصبية : « ماذا هناك الآن ؟ إن تامب إيتام هنا ... » فقال ، وهو يحاول محاولة غير جدية ، لوضع شيء من الحيوية فى كلماته : « تعال لترى الفتاة .

إنها هنا . » وحاولت أن أمهله ، ولكنه أبى فى عناد رقيق ، أن يعير أسئلتي أى اهتمام . وكرر كلماته ، فى اضطراب ظاهر « إنها هنا ... إنها هنا . لقد حضروا منذ يومين ، ورجل عجوز مثلى ،وغريب عنهم كما ترى لايستطيع أن يفعل شيئاً... تعال معى ... إن القلوب الشابة لا تغفر ... »وكنت أراه فى حالة شديدة من اليأس والغم ... وهمهم قائلا ، وهو يقودنى معه حول البيت « وقوة الحياة الدافقة فيهم ، تلك القوة القاسية ... » وتبعته ، وأنا غارق فى أفكارى الحزينة وقد أخذ منى الغضب كل مأخذ . وعند باب حجرة الضيوف ! اعترض طريقى ، وقال فى لهجة الاستفهام : « إنه كان يحبها حباً شديداً ... أليس كذلك ؟ » فأومأت برأسي علامة الموافقة ؛ وأنا أشعر بخيبة أمل مريرة ، بسبب خشيتي من فتح فمى لكلام . وهمهم شتاين قائلا « إنه لأمر فى غاية الفظاعة ... إنها لاتستطيع أن تفهمنى ،فأنا رجل غريب عجوز . ولكن ربما أنت ... فهى تعرفك . تحدث معها . فنحن لانستطيع أن نترك الأمر على هذه الحال : قل لها أن تغفر له . إن الأمر كان فى غاية الفظاعة . » فقلت له ، وقد نفذ صبرى من تركى على هذه الحالة من الجهل بما حدث « لاشك فى ذلك ... ولكن هل غفرت له أنت ؟ » فنظر إلى فى غرابة وقال ، وهو يفتح لى الباب ، ويدفعنى إلى الداخل دفعاً ، « إنك ستسمع الآن ماحدث »

وأنت تعرف بيت شتاين ، وتعرف حجرتى الاستقبال فيه بمساحتيهما الكبيرتين، وخلوهما من الناس ،ومافيهما من عدم الإغراء

بالدخول إليهما ونظافتهما ثم امتلائهما بالوحدة وبالأشياء اللامعة ، التي تظهر وكأنما لم تقع عليها عين إنسان من قبل . إنهما حجرتان باردتان حتى فى أكثر الأيام حرارة . وإنك لتدخل إليهما ، وكأنما تدخل إلى مغارة نظفت بعناية ، تحت الأرض. فعبرت إحدى هاتين الحجرتين ، ورأيت الفتاة فى الأخرى تجلس أمام الطرف البعيد لمائدة كبيرة من خشب الماهوجانى، أسندت إليها رأسها، وقد غطت وجهها بذراعيها . وكانت صورتها تنعكس غير واضحة على صفحة الأرضية اللامعـــة التى نظفت بالشمع ، وكأنها صفحة ماء متجمد وكانت الستائر المصنوعة من نبات « الراتان » مسدلة . وكانت ريح قوية تهب متقطعة خلال العتمة الغريبة التى تضرب إلى الاخضرار ، بسبب مرور الضوء خلال أوراق الأشجار خارج الغرفة ، محركة ستائر النوافذ والأبواب الطويلة . وكانت هيئة الفتاة البيضاء تبدو وكأنها قــد شكلت من الثلج . وكانت البلورات المعلقة فى النجفة الكبيرة ترن فوق رأسها كقطع صغيرة لامعة من الثلج. فرفعت رأسها وهى تنظر إلى وأنا أقترب منها . وأحسست ببرد قارس يصيبنى فى قلبي ، وكأنما كانت هذه الغرف الواسعة مقاما ومقرا ليأس لا حرارة ولا دفء فيه :

فتعرفت على فى الحال ، وقالت بسرعة فى اللحظة التي توقفت فيها وأنا أنظر إليها ، « لقد تركنى ... كعادتكم دائماً حين تتركوننا

لغرض فى نفوسكم . » وكان وجهها جامداً . وقد بدت وكأن حرارة الحياة فيها قد انسحبت جميعها إلى نقطة واحدة لا يمكن الوصول إليها فى أغوار صدرها. واستأنفت حديثها ،وأشارت بيدها إشارة صغيرة متعبة ، كما لو كانت قد يئست من فهم حدث يستعصى على التفسير، « لقد كان من السهل على أن أموت معه . ولكنه لم يرض بذلك ! لقد كان شيئاً كالعمى . ومع ذلك،فقد كنت أنا التى أتحدث إليه ، وكنت أنا التي أقف أمام عينيه، وكنت أنا التى كان ينظر إليها طيلة الوقت ! آه ! إنكم جميعا قساة ، خائنون لاصدق فيكم ولا رحمة ؛ ما الذى يجعلكم على هـــذه الدرجة من الشر والسوء ؟ أم هل أنتم مجانين ؟ »

فأخذت يدها ،ولكنى أحسست بأنها خالية من الشعور ، وحين تركتها سقطت إلى الأرض معلقة من كتفها فى اســترخاء ؛ وكان عدم اكتراثها هذا ، الذى كان أفظع من الدموع والعتاب ، يبدو وكأنه يتحدى مر الزمان والسلوى والعزاء؛ وكنت أشعر أن كل ما كان يمكن أن أقوله لن يصل منها إلى موضع الألم الصامت الذى يشبه الشلل :

وكان شتاين قد قال « إنك ستسمع » ولقد سمعت فعلا . سمعت كل شيء وأنا أصغى فى دهشة وفزع، إلى نبرات صوتها المتعب الرتيب وكانت لاتعى المعنى الحقيقى لما كانت ترويه على مسامعى ؛ وكان

ما تشعر به نتيجة لما حدث لها من إساءة يملأ قلبي بالشفقة عليها »
وعليه أيضاً. ولقد وقفت مصلوباً فى مكانى ، بعد أن أتمت روايتها ؛
وظلت تحدق فى بعينين قاسيتين ، وهى مستندة إلى ذراعها . والريح
تمر فى هباتها المتقطعة ، وبللورات النجفة تداوم رنينها فى الظلمة
الضاربة إلى الاخضرار ... واستمرت تهمس إلى نفسها قائلة :
« ومع ذلك فقد كان ينظر إلى ! . وكان يستطيع أن يرى وجهى
ويسمع صوتى ، ويسمع حزنى ! وحين كنت أجلس حيث اعتدت الجلوس
عند قدميه وخدى على ركبته ، ويده فى شعرى ... كانت لعنة القسوة
والجنون مستقرة فى صدره فعلا ، تنتظر اليوم الذى تخرج فيه ...
وجاء اليوم ! ... وقبل أن تغرب الشمس لم يستطع أن يرانى مرة
أخرى . كان قد صار أعمى أصما ، لا رحمة فى قلبه . . مثلكم جميعاً ،
كان يرفض دموعى . أبداً أبداً ! ... .. لن أذرف دمعة واحدة .
لن أفعل ذلك أبداً ! لقد تركنى كما لو كنت أسوأ من الموت ... لقد
هرب منى كما لو كانت تطارده لعنة سمع بها أو رآها فى نومه . »

وكانت عيناها الثابتتان تبدوان وكأنهما تجهدان نفسيهما محدقتين
فى طيف رجل انتزع من بين ذراعيها فى حلم عنيف . ولم يظهر على
وجهها أية علامة حين انحنيت إليها . وكنت سعيداً بهربى من
حضرتها .

ورأيتها مرة أخرى فى نفس عصر ذلك اليـوم . وكنت حين

تركتها قد ذهبت للبحث عن شتاين الذى لم أستطع أن أجده داخل البيت . فأخذت أتجول فى الحدائق،تتابعنى أفكارى الحزينة فى حدائق شتاين الشهيرة ، التى كنت تستطيع أن تجد فيها كل نبات وكل شجرة تنمو فى سهول المنطقة الاستوائية .... . وتتبعت طريق الماء الجارى فى القناة المحفورة ، وجلست وقتاً طويلا على مقعد حجرى ظليل ، قريباً من البركة المصنوعة للزينة ، حيث كانت بعض الطيور المائية بأجنحتها المقصوصة تغوص فى الماء وتنثر الرذاذ حولها فى ضوضاء . وكانت فروع أشجار الجازورينا التى ورائى،تتمايل فى رفق بلا انقطاع، وتذكرنى بحفيف أشجار الشربين فى أرض الوطن .

ووجدت فى حفيف الأشجار الحزين القلق ، نغمة منسجمة مع تأملاتى . وكانت قـد قالت إن حلمها هو الذى انتزع جيم من بين ذراعيها ، ولم يكن عندى ما أقوله لها ردا على ذلك فقد بدا لى أنها لن تغفر مثل هذه الإساءة . ومع ذلك ، أليس الجنس الإنسانى نفسه يسير فى طريقه الأعمى ، مسوقاً بأحلامه عن عظمته وقوته فى مسالك الحياة المعتمة ، بما فيها من قسوة أو إخلاص بالغين ؟ .. ثم ماهو معنى البحث عن الصدق ... فى التحايل الأخير ؟

وحين نهضت للدخول إلى البيت ، لمحت معطف شتاين القديم خلال ثغرة فى أشجار الحديقة . ثم رأيته أمامى فى الحال مع الفتاة فى منعطف الطريق . وكانت يدها الصغيرة مستندة إلى ذراعه ، وكان

هو ينحنى عليها تحت الإطار العريض المسطح لقبعة باناما التى كان يرتديها فى شعره الأشهب ، وصورته الأبوية ، وفى احترام فيه طابع الفروسية القديمة والحنان الزائد . فتنحيت عن طريقهما ، ولكنهما وقفا أمامى فى مواجهتى . وكانت نظرة شتاين موجهة إلى الأرض عند قدميه ، أما الفتاة ، فكانت تحدق بنظرة حزينة فيما وراء كتفى ، بعينين سوداوين صافيتين جامدتين ؛ وهى تستند إلى ذراع شتـــاين بقامتها المنتصبة النحيلة . وهمهم شتاين بالألمانية ، ثم بالانجليزية قائلا : « إن هذا لفظيع ؛ فظيع .. فظيع .. ولا أدرى ، ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل ؟ » وكان يظهر عليه أنه يطلب منى العون ، ولكن شباب الفتاة ، وأيامها الطويلة التى كانت أمامها ، وقد بدت معلقة فوق رأسها ، مست شغاف قلبى أكثر من حالة شتاين . وفجأة حتى بعد أن تبين لى أنه لم يكن هناك جدوى فى الكلام وجدت نفسى أحاول تحقيق رغبة شتاين ، من أجلها هى . فقلت لها « إنك يجب أن تغفرى لجيم ». وقد خيل إلى أن صوتى كان مخنوقاً ، ضائعاً فى فضاء واسع أصم، لا يرجع الأصداء . وأضفت إلى قولى بعد لحظة : « إننا جميعاً فى حاجـــة إلى الغفران » فسألتنى بشفتيها فقط : « وأى ذنب جنيته أنا » ؟ فقلت لها : « إنك لم تثقى فيه قط ».

فقالت وهى تنطق كلماتها ببطء : « إنه كان كالآخرين »

فقلت محتجاً : « لا ، إنه لم يكن كالآخرين ». ولكنها استمرت

فى صوتها الرتيب ، الذى لم يكن فيه أى أثر للانفعال ، وقالت : «لقد كان مخادعاً » . وعند ذلك تدخل شتاين فجأة فى الحديث ، قائلا : « كلا . كلا . كلا .. ياطفلتى المسكينة ...» وربت على يدها التى كانت تستند إلى ذراعه فى عدم اكتراث . وقال : « كلا . كلا . لم يكن مخادعا ، بل كان صادقاً ، ومخلصاً ، وأميناً » . ثم حاول أن ينظر إلى وجهها المتحجر واستأنف حديثه قائلا ، « آخ . إنك لا تفهمين ؟ .. لماذا لا تحاولين أن تفهمى ؟ » ..

ثم قال لى : « إن هذا فظيع .. ولكنها سوف تفهم فى يوم من الأيام » . فسألته وأنا أنظر إليه نظرة صارمة : « أتستطيع أن تفسر لها ؟ » .. ولكنهما تحركا فى طريقهما .

ووقفت أرقبهما ، وكان رداؤها الطويل ينسحب على الأرض وشعرها الأسود طليقاً ينسدل وراءها . وكانت تمشى نحيلة منتصبة القامة إلى جانب الرجل الطويل الذى كان معطفه الطويل مليئاً بالتجعدات الرأسية وكان قد فقد شكله وهو معلق على كتفيه اللذين أحناهما الدهر . وهو يمشى فى خطى وئيدة . ثم اختفيا وراء تلك المجموعة من الأشجار الكثيفة (ولعلك تتذكرها) حيث كان هناك ستة عشر نوعاً من شجر البامبو أحدها إلى جانب الآخر ، تستطيع عين العالم المختص أن تميز بينها . أما أنا ، فقد سحرنى جمال ورشاقة تلك الغابة الصغيرة الغابية الرائعة ، التى كانت تتوجها أوراق الشجر

المدببة ، والريش ، والتي كانت خفتها وحيويتها ؛ وسحرها واضحة وضوح صوت تلك الحياة المترفة ، التي لا ينغصها منغص . وإني لأتذكر أنني قد مكثت وقتاً طويلا أنظر إليها ، كما يمكث الإنسان قريباً من صوت هامس يدخل على قلبه العزاء . وكانت السماء مليئة بالغيوم التي ظهرت كاللؤلؤ الرمادي . وكان يوماً من تلك الأيام النادرة في هذه المنطقة الاستوائية التي تتلبد سماؤها بالغيوم ، والتي تزدحم فيها الذكريات على الإنسان .. ذكريات الشواطئ البعيدة ، والوحدة البعيدة .

ورجعت في عربة إلى المدينـــة في نفس عصر ذلك اليوم . وأخذت معي تامب إيتام ، ورجل الملايو الآخر الذي كانوا قد هربوا في قاربه في أعقاب شعور الحيرة ، والخوف . والحزن ، الذي ألم بهم عند وقوع تلك الكارثة . ويظهر أن الصدمة كانت قد غيرت من طباعهم . فأحالت قلب الفتاة وكل ما فيه من حب وهيام ، إلى قطعة من الحجر . وجعلت من تامب إيتام الصامت المتجهم أقرب شيء إلى الثرثار . وحتى تجهمه كان قد خفف من غلوائه الآن ، واستحال إلى وداعة حائرة ؛ كما لو كان قد شاهد إخفاق تعويذة سحر قوية . في لحظة خطــيرة حاسمة . أما تاجر البوجيز ، وكان رجلا خجولا متردداً بطبيعته فقد أصبح قادراً على التعبير

بوضوح عن القليل الذى كان يعرفه : وكان واضحاً أن الرجلين كانا واقعين تحت تأثير دهشة عميقة يصعب التعبير عنها ، وتحت تأثير لمسة من سر غامض ، لا سبيل إلى النفاذ إليه .

وإلى هنا كان الخطاب نفسه قد انتهى وفى آخره توقيع مارلو . ومرر القارىء المحظوظ يده على مصباحه كى يعطيه مزيداً من الضوء ، ثم أخذ يقلب صفحات القصة : فى وحدته فوق موجة الأصوات الصاخبة فى سقوف المدينة . وكأنه حارس منار فوق بحر مضطرب .

الفصل الثامن والثلاثون

وابتدأت قصة مارلو بالجملة الآتية : « إن كل شيء يبدأ برجل يدعى براون ،وأنت الذى كان لك جولات فى الساحل الغربى للمحيط الهادى ، لا بد أن تكون قد سمعت عنه. فلقد كان أكثر الأشرار ذيوعاً للصيت ، على الساحل الاسترالى ، لا لأنه كان كثيراً ما يرى هناك،ولكن لأنه كان بطل كل قصة تروى هناك عن حياة الإجرام، لتسلية أى ضيف من أرض الوطن ، يتصادف زيارته لتلك البلاد . وكانت أهون هذه القصص التى كانت تروى فى تلك الرقعة الكبيرة من الأرض بين رأس يورك وخليج إيدن تكفى لشنق أى إنسان ، لو رويت فى المكان المناسب . وكان رواة هذه القصص ، لا ينسون أبدا ، أن يذكروا لك أنه أحد أبناء ذوى الألقاب من طبقة النبلاء فى انجلترا . وليكن ذلك ما يكون ، فالمؤكد أنه كان قد هرب من سفينة حرب انجليزية فى بكور الأيام الأولى للبحث عن الذهب ، وأنه قد صار بعد سنوات قليلة موضع حديث الناس ، بصفته الخطر الأكبر الذى كان يهدد هذه المجموعة أو تلك من جزر «بولينيزيا » فكان يختطف الوطنيين هناك ، وكان ينفرد بتاجر أبيض مسكين ويعريه من كل ملابسه ، إلا « البيجاما » التى يتصادف أنه كان

يرتديها حينئذ . وبعد أن يسلبه كل ما عنده ، كان من الممكن - إذا سولت له نزوته تلك — أن يدعوه إلى مبارزة بالبنادق على الساحل. ولقد كان يصح اعتبار ذلك عرضاً عادلا لو أمكن إقحام العدل فى مثل هذه الأشياء ، لو لم يكن الرجل الآخر قد أصبح شبه ميت من الرعب ، بعد ماحدث له . ولقد كان براون هذا قرصاناً من قراصنة العهد الحديث، له تلك الطبيعة التعسة التى لنظيره ممن كانوا أكثر شهرة من تلك الفئة . ولكن الذى كان يميزه عن المعاصرين من إخوته المجرمين - مثل بولى هيز ، وبيز « الحلو » وذلك الوغد المتطيب ذى اللحية الطويلة، والذى كان يتأنق تأنقاً بالغاً فى ملابسه ويعرف باسم « ديك القذر » - هو طبعه الذى كان يتميز بالاستكبار والاستعلاء ، واحتقاره الذى كان يظهره فى انفعال عنيف للجنس الإنسانى عامة ، ولضحاياه خاصة . فالفرق بينه وبين الآخرين ، أن هؤلاء كانوا مجرد وحوش شرهة دنيئة ؛ بينما كان يبدو عليه أنه مسوق إلى ارتكاب هذه الأفعال ، بدوافع معقدة . فكان يسلب رجلا ، وكأنه لا يريد بذلك إلا مجرد التعبير عن حقارة شأن ذلك المخلوق . وكان حين يطلق النار ، أو يشوه جسد رجل وديع لم يسىء إلى أحد فى حياته كان يستعمل فى ذلك طرقاً وحشية للانتقام جديرة بأن توقع الرعب فى قلوب أكبر العتاة الذين تملكهم اليأس بحيث لا يخشون شيئاً .

وكان فى أيام مجده ، يمتلك قارباً مسلحاً ، وكان البحارة الذين

يعملون معه خليطاً من رجال جزر الهند الغربية ، وبعض الهاربين ممن كانوا يحترفون صيد الحيتان . وكان يفتخر - ولا أعلم مدى الصدق في ذلك - بأن شركة لها مكانتها الكبيرة لتجارة جوز الهند كانت تموله سرا . وبعد ذلك قيل إنه هرب مع زوجة أحد المبشرين ، وهى فتاة صغيرة السن جداً من طريق « كلابهام » في لندن، كانت قد تزوجت ذلك الرجل الهادىء الطباع ، المفلطح الأقدام، فى لحظة من لحظات الحماسة ، وفجأة حين وجدت أن مقرها قد انتقل من انجلترا إلى مالينيزيا، فقدت معا لم اتجاهها فى الحياة بطريقة أو بأخرى . وكانت قصة سوداء . فقد كانت الفتاة مريضة حين أخذها معه ، ولم تلبث أن ماتت على ظهر سفينته . ولقد قيل، وكان ذلك هو أدهش مافى القصة، إنه قد أسلم قياده فوق جسدها إلى نوبة جارفة عنيفة من الحزن العميق الأسود. ثم إن حظه كان قد تخلى عنه أيضاً ، بعد ذلك بوقت قصير. ففقد سفينته على بعض الصخور قريباً من « مليتا »، واختفى لبعض الوقت، كما لو كان قد غاص إلى قاع البحر معها. وسمع عنه بعد ذلك فى « نوكا — هيفا » حيث اشترى مركباً فرنسيا استغنت عنه الحكومة. ولست أدرى أى عمل من أعمال الخير ، كان يفكر فى المغامرة فيه حين عقد هذه الصفقة : ولكن كان من الواضح أن البحار الجنوبية كانت قد اشتدت حرارتها فى تلك الأيام ، بحيث لم تعد المكان المناسب لأولئك السادة الذين كانوا من طينته ، حيث كانت قد امتلأت بالمندوبين السامين والقناصل ، والسفن الحربية ،

وما صحب كل ذلك من سيطرة دولية . فكان لا بد له والحالة هذه من أن ينقل مسرح عملياته بعيدا إلى الغرب . وعلى ذلك ، فبعد حوالى عام ، كان له دور بلغ من الجرأة حداً لا يصدق ، وإن كان لم يجن فائدة مادية تذكر من هـذا الدور فى تلك المأساة الهزلية فى خليج « مانيلا » ، التى كان بطلاها ، محافظا هاربا من العدالة وموظفا مختلسا من كبار رجال الدولة الذين كانوا يشرفون على خزائنها . ثم بعد ذلك ، أخذ يتسكع حول « الفلبين » فى سفينته العفنة ، وهو يقاتل حظه العاثر ، حتى سار أخيراً فى الطريق الذى رسمه له القدر ، فأبحر داخلا إلى حياة جيم ، فى هيئة حليف أعمى لقوى الظلام .

وعلى حد روايته لى ، كان أحد القوارب الأسبانية المسلحة قد تمكن من القبض عليه ، وهو يهرب بعض المدافع إلى الثوار . وإن كان ذلك كذلك ، فإنى لا أستطيع أن أفهم ، ماذا كان يفعل عند الساحل الجنوبى من « منداناو » . واعتقادى على أية حال ، هو أنه كان يبتز ما يستطيع ابتزازه من قرى الوطنيين على طول الساحل ، عن طريق تهديدهم وبث الرعب فيهم . ولكن المهم : هو أن ذلك القارب الأسبانى ، قد أنزل بعض الحرس على سفينته وأجبره أن يبحر فى صحبته ، فى اتجاه « زامبوانجا » . ولكن لسبب أو لآخر ، اضطرت السفينتان إلى أن تتوقفا فى طريقهما عند إحدى المستعمرات الأسبانية

الجديدة ، التي كان مصيرها إلى الزوال في آخر الأمر وكان في تلك المستعمرة ، موظف مدني يضطلع بالسلطة على الشاطىء ، وكان فيها أيضاً سفينة ساحلية متينة ، تقف ملقية مراسيها في الخليج الصغير ، وكانت هذه السفينة خيراً من سفينته ، من جميع الوجوه . فصحت عزيمة براون على سرقتها .

وكان الحظ قد قلب له ظهر المجن كما أخبرني بنفسه . فلم تعطه الدنيا التي ظل يرعبها ويهددها مدى عشرين عاما ، باحتقاره الوحشي ، ونهبه وسلبه من مادتها إلا متاعاً قليلا ، كان عبارة عن كيس صغير من الدولارات الفضية ، خبأه في مكان ما في قمرته ، بحيث « لا يستطيع الشيطان نفسه حتى أن يشم رائحته » . وكان ذلك كل ما يملكه ، ولا شيء غير ذلك . وكان قد تعب من حياته ، ولم يعد يخشى الموت . ولكن هذا الرجل ، الذى كان مستعدا أن يخاطر بحياته بطريقته التي كانت تتسم بالمرارة ، وعدم الاكتراث الساخر ، على نزوة صغيرة من نزواته ، كان يخشى السجن أكثر مما يخشى الموت . فكانت تنتابه نوبة من الرعب الذى لا مبرر له ، فيتصبب منه العرق البارد ، وتهتز أعصابه ، ويستحيل دمه إلى ماء ، لمجرد فكرة عابرة بإمكان وضعه في السجن . وكان ذلك الرعب الذى يستحوذ عليه من هذه الفكرة ، كرعب من يعتقد في الخرافات ، بأن شبحا يعانقه . وعلى ذلك ، فإن ذلك الموظف المدني الذى صعد إلى سطح مركبه

كى يجرى تحقيقاته الأولية: فى مسألة القبض عليه ، أمضى يوماً بطوله فى تحقيقات مضنية . ولم يغادر السفينة إلا حين حل الظلام وهو متشح بعباءة ، ثم وهو يحاذر غاية الحـذر أن يسمع للقليل ـ الذى كان هو كل نصيب بروان من متاع الدنيا ـ رنين فى الكيس الذى يحتويه. ولما كان ذلك الرجل دائماً عند كلمته ، فقد تمكن بعد ذلك (فى المساء التالى ، على ما أعتقد) أن يرسل القارب الحكومى فى مهمة عاجلة ذات طابع خاص . ولمـا كان قائد ذلك القارب ، لا يستطيع أن يستغنى عن خدمات بحارته الممتازين ، فقد اكتفى بأخذ جميع الشراع الذى كان على مركب براون معه إلى آخر خرقة منه ، وازديادا فى الحيطة، فقد سحب معه قاربى النجاة لذلك المركب إلى مسافة ميلين منها على الشاطىء .

وكان هناك بحار من بحارة براون من جزائر سليمان وكان قد اختطف فى شبابه ، وأصبح من أخلص خلصاء براون . وكان ذلك الرجل هو أمهر رجاله . فعام ذلك البحار إلى مكان السفينة الساحلية مسافة تقرب من خمسمائة ياردة ومعه طرف حبل غليظ . صنعوه لهذا الغرض من جميع حبال السفينة . وكانت صفحة الماء ملساء ، وكان الخليج مظلماً ، « كبطن البقرة » على حد تعبير براون . فتسلق ذلك البحار هيكل المركب ، وهو يضع الحبل بين أسنانه . وكان بحارة ذلك المركب ، وهم جميعاً من « التاجال » ، على الشاطىء ، يرفهون عن أنفسهم فى إحدى القرى الوطنية. وكان حارسا المركب اللذان

تركا على ظهرها ، قـــد استيقظا من نومهما فجأة ، ورأيا أمامهما الشيطان-رأيا الشيطان بعينيه اللامعتين، وهو يقفز بسرعة البرق حول سطح المركب، فسقطا على ركبهما وقد أشلهما الخوف، وهما يرسمان علامة الصليب على صدريهما ويتمتمان بالصلاة . وكان ذلك الرجل من جزائر سليمان قد وجد سكينا فى غرفة المراقبة ، فطعن بها أولهما ثم ثانيهما ، دون أن يقطع عليهما الصلاة، ثم أخذ يمر بنفس السكين على حبل المرسى فى صبر، حتى انقطع فجأة تحت سلاحها ؛ مصحوباً ببعض الرذاذ . وبعد ذلك، أرسل من فمه صيحة حذرة تقطع سكون الخليج ، وكانت جماعة بروان ، الذين كانوا فى تلك الأثناء يحدقون فى الظلام ، ويطرطقون آذانهم، فى أمل ، ينتظرون منه تلك الإشارة، فأخذوا يشدون الحبل برفق من جانبهم . وفى أقل من خمس دقائق ارتطمت السفينتان إحداهما بالأخرى ؛ وكانت صدمة صغيرة سمعت لها طقطقة من أعمدة الشراع .

وانتقلت جماعة بروان إلى السفينة الأخرى ، دون أن يضيعوا دقيقة من الوقت، آخذين معهم أسلحتهم وكمية كبيرة من الذخيرة، وكانوا ستة عشر رجـــلا : اثنين هاربين من بحرية الأسطول الانجليزى ، وهاربا آخر طويلا نحيل القوام من سفينة أمريكية حربية، واسكنديناڤيين أشقرين بسيطين ، ورجلا مولدا من البيض والسود ، وأحد الصينيين الهادئى الطبع وكان يطهى لهم ، أما بقيتهم فمن تلك

السلالة التى يصعب التعرف على أصولها من سكان البحار الجنوبية . وكانوا جماعة لا يكترثون بما قد يحدث لهم . وكانت إرادة براون هى التى تتحكم فيهم ، وكان براون الآن وهو الذى كان لا يخشى الشنق يهرب من شبح السجن الأسبانى الذى كان يعتقد أنه يتهدده . فلم يعطهم الوقت الكافى لنقل مايلزم من المؤن . وكان الجو ساكناً والهواء مشحوناً بالندى وحين رفعوا حبالهم ، ونشروا شراعهم . مبحرين فى نسمة ضعيفة تهب من الشاطىء ، لم يكن هناك صوت ولا حركة فى قماش الشراع الرطب . وبدت سفينتهم القديمة أمام أعينهم ، وكأنها تنفصل فى رفق عن السفينة المسروقة ؛ ثم تختفى فى سكون الليل ، مع كتل الساحل السوداء .

ونجحوا فى الهرب . وروى لى براون تفاصيل عبورهم لمضيق « ماكاسا » وكانت قصة يائسة مرعبة . ولم يكن لديهم مايكفى من الطعام ولا من المـــاء ، فاقتحموا عددا من سفن السكان الوطنيين وأخذوا قليلا من كل منها . وبالطبع لم يجسر براون أن يقف فى أى ميناء بسفينته المسروقة. ولم يكن معه نقود ليشترى شيئاً ، ولا أوراق يقدمها إلى السلطات، ولا حتى كذبة معقولة يستطيع أن ينجو بها من الاعتقال . وكان هناك مركب خشبي عربى ، تحت العلم الهولندى قد استطاع أن يفاجئها ذات ليلة ، وهى راسية فى « بولولاوت » . ويحصل منها على قليل من الأرز القذر وسباطة من الموز ، وبرميل

من الماء . وكانت هناك ثلاثة أيام من جو عاصف غائم ، تهب ريحه من الشمال الشرقى ، ساعد السفينة على الوصول إلى بحر « جاوه » . وكانت الأمواج الطينية الصفراء، تغرق تلك الجماعة من الأوغاد الجياع. ورأوا السفن الحاملة للبريد، وهى تتحرك فى طرقها المرسومة . ومروا على سفن الوطن المتينة البناء . بجوانبها من الحديد الصادىء . ملقية مراسيها فى البحر الضحل ، تنتظر تغييرا فى الجو أو نوبة المد . ورأوا ذات يوم قارباً انجليزيا مسلحاً ، أبيض اللون ، أنيق المظهر ، له شراعان نحيلان وهو يعبر طريقهما على البعد . وفى مناسبة أخرى، رأوا طراداً هولندياً أسود مثقلا بالشراع ، يطل عليهم من عل ، وهو يمخر عباب البحر فى بطء شديد . فى الضباب ولكنهم أفلتوا من كل هذه السفن ، إما لأنها لم ترهم وإما لأنها لم تحفل بهم ، وقد أصبحوا عصابة من المنبوذين شحبت وجوههم وضعفت أجسادهم ، وأغضبهم الجوع وأفزعهم الخوف . وكانت فكرة براون هى أن يذهب إلى مدغشقر ، حيث كان يرجو أن يتمكن من بيع السفينة فى « تاماتا » من غير أن تكون هناك أسئلة محرجة . أو لمحاولة الحصول على أوراق رسمية ولو بالتزوير . وفى اعتقادى أن أمله فى هذا أو ذلك ، لم يكن على أساس من مجرد الوهم . ولكنه كان فى حاجة ماسة إلى الطعام والماء أيضاً قبل أن يتصدى لتلك الرحلة الطويلة عبر المحيط الهندى.

ولعله كان قد سمع عن باتوزان ، أو لعله كان قد تصادف له أن رأى ذلك الاسم مكتوباً بحروف صغيرة على الخريطة ، وظن

أنه على الأرجح اســم قرية كبيرة نوعاً ، تقع على نهر فى دويلة يحكمها الوطنيون ، وأنها ولا شك عاجزة تماماً عن الدفاع عن نفسها ، وبعيدة عن خطوط سير السفن المطروقة فى البحار ، وعن شبكات الأسلاك المنصوبة تحت المـاء . وكان قد أقدم على مثل ذلك العمل قبل ذلك فى قيامه بمزاولة حرفته . ولكن هذا العمل ، قد أصبح الآن ضرورة لامندوحة عنها ، بل أصبح بالنسبة إليه ، مسألة حياة أو موت . أو بمعــنى أصح مسألة حرية أو سجن .. نعم كانت المسألة مسألة حرية .. ولقد ظن أنه من المؤكد أنه سيحصل على مايلزمه من المؤن ، سيحصل على العجول ، وعلى الأرز ، وعلى البطاطا . وكانت مجرد الفكرة تسيل لعاب تلك الجماعة التعسة . ولعله يستطيع أن يسلب حمولة لسفينته ، من الحاصلات الزراعية . ثم من يدرى ، لعله سيجد أيضاً بعض العملة الرنانة من النقود . . فبعض هؤلاء الحكام ورؤساء القرى ، يمكن إجبارهم على النزول عما يملكون ، فى غير شح . ولقد أخبرنى أنه كان سيشوى أقدامهم إذا استدعى الأمر . وإنى لأصدقه . ولقد صدقه رجاله أيضاً . حقاً إنهم لم يهتفوا له عالياً ، فلقد كانوا جماعة من البكم ، ولكنهم أخذوا يستعدون كالذئاب .

ولقد خدمهم الحظ فيما يتعلق بالجو . وكانت بضعة أيام من سكون الريح ، كفيلة بأن تقلب كل مافى هذه السفينة رأساً على عقب وأن تحدث فيها آثاراً مروعة يعجز الإنسان عن وصفها . ولكنهم

استطاعوا بمساعدة الريح التي كانت تهب من الأرض والبحر ، في أقل من أسبوع ، بعد عبورهم لمضيق « صندا » أن يلقوا مراسيهم في مصب نهر « باتوكرينج » ، على مدى طلقــة مسدس من قرية الصيادين هناك .

ونزل أربعة عشر منهم إلى قارب السفينة الطويل (وكان قارباً طويلا ، حيث كان يستعمل فى نقل البضائع) ،وبدءوا رحلتهم فى النهر ضد التيار . بينما مكث اثنان منهم فى السفينة ليحرساها ، مع ما يكفى من الطعام لصد غائلة الموت جوعاً عنهما لمدى عشرة أيام . ولقد ساعدهم المد والريح ، فظهر القارب الأبيض الكبير ، تحت شراعه المهلهل ، عصر ذات يوم ، وهو يشق طريقه مدفوعاً بنسيم البحر إلى مشارف باتوزان، وعليه أربعة عشر من الغربان الكئيبة مختلفة الشكل، يحدقون أمامهم بنظرات جائعة،وهم يداعبون زناد بنادقهم الرخيصة بأصابعهم . وكان براون يعول على ماسيحدثه ظهوره المفاجىء من روع . ولقد دخلوا بقاربهم مع آخر موجة المد . ولكن لم تبد أى إشارة من معسكر الراجا عن قدومهم . وخيل إليهم أن المنازل الأولى التى رأوها على ضفتى النهر كانت مهجورة . ولم يكن هناك إلا بضعة قوارب فى النهر ، تهرب أمامهم فى سرعة فائقة . ودهش براون من سعة المكان . وخيم عليهم سكون عميق . وسقط الريح بين البيوت ، فأخرجوا مجدافين واحتفظوا بالقارب فى اتجاهه ضد التيار . وكانت

الفكرة هى أن يصلوا إلى وسط القرية قبل أن يستطيع سكانها التفكير المقاومة .

ولكن يظهر أن ماحدث ، هو أن رئيس قرية الصيادين عند « باتوكرينج » ، قد استطاع أن يرسل تحذيراً إلى باتوزان فى الوقت المناسب . وعلى ذلك فحين وصل القارب الطويل إلى الجامع (الذى كان دورامين قد بناه : وكان بناؤه ينتهى بمثلثات عليها أبراج ضيقة من الأصداف المحفورة) كان الفضاء الفسيح الذى أمامه مليئاً بالناس . فارتفعت صيحة تلاها رنين الدفوف على طول النهر . وانطلق من نقطة عالية مدفعان نحاسيان صغيران من عيار ستة الأرطال ، وأصابت الطلقة ماء النهر الخالى ، فأحدثت فيه نافورة يلمع رذاذها فى ضوء الشمس . وأمام الجامع ، بدأ كثير من الرجال يصرخون ، ويطلقون رصاصهم الذى كان ينطلق عبر تيار النهر . وقد فتحت أفواه البنادق من كلتا الضفتين على القارب ، فكانت نيرانها متلاحقة متدحرجة غير منتظمة . وأجاب رجال براون على ذلك بطلقاتهم السريعة الطائشة ثم سحبوا المجدافين من الماء .

وكان تغيير اتجاه موجة المد عندما تبلغ أقصاها ، سريعاً جداً فى هذا النهر . فبدأ القارب الذى كان وسط المجرى ، والذى كاد يكون مختفياً عن الأنظار وسط الدخان ، يسير فى اتجاه التيار ومؤخرته إلى الأمام . وعلى ضفتى النهر ، بدأ الدخان يتكثف أيضاً ، فى شريط مستو تحت سقوف المنازل ، وكأنه سحابة طويلة تقطع منحدر الجبل ،

وكان ضجيج صيحات الحرب ، وذبذبات رنين الدفوف ، وقرقعة الطبول العميقة ، وصرخات الغضب ، وانفجارات طلقات المدافع يخلق طنيناً مروعاً. جلس براون وسطه وقد ملكته الحيرة والدهشة ، ولكنه رغم ذلك كان ثابت الجأش عند عمود الدفة وقد ثارت فى نفسه نار الحقد والكراهية والغضب على هؤلاء الناس الذين بلغت منهم الجرأة إلى حد الدفاع عن أنفسهم . وكان قد جرح اثنان من رجاله ، ورأى خط تقهقره مقطوعاً تحت البلدة ببعض القوارب المليئة بالرجال . وفى أثناء هذه اللحظات التى رأى فيها نفسه مطوقاً بهذا الحصار ، وقع نظره على مدخل النهير الصغير (وهو نفس النهير الذى قفز من فوقه جيم وقت الجزر حين كان خالياً من الماء) . وكان مملوءاً حينئذ بالماء إلى حافته . فساروا بالقارب الطويل إليه ، ثم نزلوا إلى شاطئه . وباختصار — وجدوا لأنفسهم مكاناً منيعاً على قمة تل صغير يبعد عن معسكر الراجا بحوالى تسعمائة ياردة. وكانوا يستطيعون من تلك النقطة أن يتحكموا فى ذلك المعسكر . وكانت منحدرات التل مكشوفة ولكن كان هناك بضعة أشجار على قمتـه . فأخذوا يقطعون هذه الأشجار ليتخذوا منها متاريس تحمى صدورهم. وفعلا نجحوا قبل المساء فى عمل التحصينات الكافية لحماية أنفسهم . وفى هذه الاثناء ظلت قوارب الراجا فى عرض النهر ملتزمة الحياد على صورة كان من الصعب تفسيرها . وحين غربت الشمس أضاء لهيب النيران فروع الأشجار المشتعلة على الشاطئين وظهرت فى ضـوئها ، بين ذلك الخط المزدوج من البيوت على جانبي الأرض ، الظلاله

السوداء للأسقف ومجموعات النخيل النحيلة، ومجاميع أشجار الفاكهة الثقيلة . وأمر براون بحرق العشب حول المكان الذى كان فيه ، فظهرت حلقة منخفضة من اللهب الرفيع تحت الدخان البطىء المتصاعد . وأخذت تتلوى فى سرعة ، هابطة على منحدرات التل ، وهنا وهناك ، كانت النار تمسك بشجرة صغيرة يابسة فيكون لاحتراقها زئير مخيف طويل . وقد صنع ذلك العشب المشتعل منطقة مكشوفة ، أمام نيران بنادق هذه الجماعة الصغيرة. ثم انطفأت النيران ، والدخان يتصاعد منها على حافة الغابات ، وعلى طول الشاطىء الطينى لذلك النهر . وكان هناك قطعة من الغابة على منخفض رطب من الأرض بين ذلك التل ، وبين معسكر الراجا ، أوقفت النار على هذا الجانب بعد فعقعة شديدة من جذوع أشجار البامبو التى أخذت تنفجر من حرارة النيران . وكانت السماء داكنة ، كأنها مغطاة « بالقطيفة » ومليئة بالنجوم. وكان الدخان يتصاعد من الأرض المسودة فى سحب صغيرة منخفضة ، إلى أن هب نسيم معتدل فنفخها بعيداً . وكان براون يتوقع الهجوم عليه ، فى اللحظة التى تفيض فيها موجة المد ثانية لتمكن القوارب الحربية التى قطعت عليه الطريق ، من الدخول إلى النهر . وعلى أية حال فقد كان متأكداً من أنهم سيحاولون الاستيلاء على قاربه الطويل ، الذى كان يقف تحت التل ، وكأنه كتلة مظلمة عالية على الطين المبتل المسطح ذى اللمعة الضعيفة .. ولكن القوارب التى كانت فى النهر ، لم تتحرك من مراكزها . وكان بروان يستطيع

أن يرى أضواءها على الماء ، من فوق المعسكر وبيوت الراجا ، وقد ظهرت له وكأنها راسية فى عرض النهر . وكانت هناك أضواء أخرى طافية ، تتحرك فى مشارف القرية وهى تعبر النهر من ضفة إلى أخرى وبالعكس . وكانت هناك أضواء ثابتة ، تتلألأ على حوائط المنازل الطويلة ، على طول الشاطئ حتى المنحنى. وكانت هناك أضواء أخرى أيضاً بعد المنحنى ، وغيرها متفرقة فى الأرض البعيدة عن الشاطىء .. وأظهرت النيران الكبيرة أمام عينيه البنايات والأسقف والأكوام السوداء على مدى بصره فأدرك اتساع المكان . ورفع الرجال الأربعة عشر الغزاة اليائسون الذين كانوا يرقدون مسطحين على الأرض وراء متاريس الأشجار المقطوعة ذقونهم ليشاهدوا حركة تلك البلدة التى كان يظهر عليها أنها تمتد أميالا على طول النهر ، وتموج بالآلاف من الرجال الغاضبين . ولم يكن يتحدث أحدهم إلى الآخر ، وكانوا بين حين وآخر يسمعون صرخة عالية أو طلقة واحدة تنطلق من مكان بعيد . ولكن كان كل شىء حولهم ساكناً مظلماً صامتاً . وخيل إليهم أن هؤلاء الناس قد نسوا وجودهم ، وأن ذلك الشعور الثائر الذى تسبب فى يقظة جميع السكان ، إلى هذه الساعة لم يكن له علاقة بهم . وكأنما كانوا قد دخلوا فعلا فى عداد الموتى ..

الفصل التاسع والثلاثون

وكانت حوادث هذه الليلة كلها ، من الأهمية بمكان ، حيث إنها كانت قد أنتجت موقفاً معيناً ، ظل على حاله كما هو بدون تغيير ، حتى حضر جيم . وكان جيم متغيباً فى داخل البلاد لمدة تزيد على الأسبوع . وكان دين واريس هو الذى وجه الضربة الأولى للمهاجمين . وكان ذلك الشاب الذكى الشجاع « الذى كان يعرف كيف يقاتل كرجل أبيض » يريد أن ينهى هذه المسألة فى الحال ، ولكنه عجز عن إقناع عشيرته بذلك الرأى . فلم يكن له مكانة جيم . فيما يتعلق بانتمائه إلى الجنس الأبيض ، ولا ما اشتهر عنه بأنه كان يتمتع بقوة خارقة للطبيعة ، تجعله لا يقهر . فلم يكن دين واريس هو ذلك التجسد المرئى المحسوس للصدق والنصر المؤكدين ، اللذين لا يمكن تصور إخفاقهما ولو مرة واحدة . ومع أنهم كانوا يحبونه ، ويثقون فيه ، ويعجبون به ، فإنه كان لا يزال يعتبر « واحداً » منهم - بينما كان جيم « واحداً منا » . وفوق ذلك فلقد كان الرجل الأبيض قوة جبارة فى نفسه ، لا يمكن أن يمس بسوء ، بينما كان دين واريس من الجائز أن يقتل . وكانت هذه هى الأفكار التي لم تجر على ألسنتهم ، وإن كانت هى التى تدور فى خلد زعماء البلدة ، الذين اختاروا حصن جيم مكاناً لاجتماعهم للتداول فى هذه الأزمة الطارئة ، كما لو كانوا يتوقعون أن يستوحوا الحكمة والشجاعة ، من مسكن الرجل الأبيض الغائب .

وكان تصويب رجال براون الأوغاد جيداً ، أو كان يحالفه الحظ حتى الآن ، فلقد أصيب بطلقاتهم ستة من المدافعين . وكان الجرحى يرقدون على الشرفة ونساؤهم يسهرون عليهم . وكان النساء والأطفال فى الجزء المنخفض من المدينة قد نقلوا إلى الحصن عند أول إنذار . وكانت القيادة هناك لجوهرة ، وكانت تظهر كفاية كبيرة وروحاً معنوية ممتازة بين « رجال جيم » ، الذين كانوا يطيعونها ، والذين كانوا قد هجروا مستعمرتهم الصغيرة تحت الحصن جماعة ، ودخلوا فى الحصن ليكونوا حاميته . وكان اللاجئون يلتفون حولها ، وكانت تظهر شجاعة وحماسة حربية عظيمة خلال هذه الحوادث ، إلى اللحظة الأخيرة التى انتهت بالكارثة . وكانت هى التى توجه دين واريس إليها فى الحال بمجرد سماعه بالخبر الخطير . وإنى أريدك أن تعلم أن جيم كان الرجل الوحيد فى باتوزان الذى يملك مخزناً للبارود : فلقد كان شتاين الذى كان يحتفظ جيم بصلته الوثيقة به عن طريق المكاتبة قد حصل على إذن خاص من الحكومة الهولندية ، بتصدير خمسمائة برميل من البارود لباتوزان . وكان مخزن البارود عبارة عن كوخ صغير بني من جذوع الأشجار غير المشذبة وغطى جميعه بالطين ، وكانت الفتاة هى التي تتسلم مفتاحه فى غيبة جيم . وحين انعقد المجلس ، فى الساعة الحادية عشرة مساء ، فى غرفة طعام جيم ، كانت تؤيد فكرة دين واريس ، عن القيام بعمل جرئ ، حاسم فى الحال ، وبلا إبطاء : وقد قيل لى إنها كانت تقف إلى جوار مقعد جيم الخالى ، عند رأس المائدة الطويلة ، وإنها قد ألقت

حينذاك خطاباً حماسياً ، جديراً بتلك المناسبة ، وهى إعلان الحرب » وإن ذلك الخطاب قد قوبل بهمهمات الرضى والقبول من الزعماء المجتمعين ؛ وكان دورامين العجوز الذى لم يكن قد رؤى خارج بوابته منذ عام قد أحضر إلى هـذا المجلس بصعوبة شديدة . وكان بالطبع ، هو أهم رجل هناك . وكانت روح الانتقام هى التى تسـود المجلس ، وكانت كلمة من دورامين تكفى لاتخاذ قرار يتفق ورأى دين واريس . ولـكن اعتقادى ، هو أنه كان يعرف شجاعة ابنه الملتهبة ، وعلى هذا فإنه لم يجرؤ على النطق بالكلمة الحاسمة . فتغلبت النصائح الأخرى ، التى تحض على التريث . وكان فى المجلس رجل يدعى « الحاج » ، أخذ يعرب عن رأيه فى إطالة كبيرة بأن ، هؤلاء الرجال الظالمين المتوحشين قد أسلموا أنفسهم إلى الموت الأكيد على أية حال : فإما أن يظلوا فى مكانهم على هــذا التل ، ويموتوا جوعاً ، وإما أن يحاولوا أن يسترجعوا قاربهم ويموتوا برصاص الكمائن التى ستنصب لهم عبر النهير . . . وإما أن يتفرقوا ويهربوا إلى الغابة ، فيهلـكوا فيها فرادى » . وأخذ يشرح كيف يمكن التخلص من هؤلاء الأشرار الغرباء بتدبير الخطط الاستراتيجية الملائمة ، ودون حاجة إلى الدخول فى معركة معهم . وكان لكلماته تأثير شديد ، وخاصة فى سكان بلدة باتوزان الأصليين . وكان الذى يقلق سكان البلدة ، هو احتمال إحجام قوارب الراجا عن القيام بواجبها فى اللحظة الحاسمة . وكان قاسم الداهية هو الذى يمثل الراجا فى ذلك المجلس ، فلم يتكلم

كثيراً ، وأخذ يصغى وهو يبتسم ، ويظهر صـداقته للحاضرين ، دون أن يكشف وجهه عن أفكاره . وفى أثناء انعقاد المجلس كانت الرسل تحضر كل بضع دقائق، لتحمل إلى المجتمعين أخبار الغزاة . وكانت هناك إشاعات كثيرة تتميز بالطيش والمبالغة ؛ فقد قيل مثلا إن سفينة كبيرة تقف عند مصب النهر ، وعليها كثير من المدافع والرجال الذين كان بعضهم من البيض ، والبعض الآخر من السود ، والذين كان لهم جميعاً مظهر الظامئين إلى الدماء . وإن هؤلاء جميعاً كانوا قادمين فى كثير من القوارب ليقضوا على كل شيء حى فى هذه البلاد . وكان السكان العاديون يحسون بخطر لا يستطيعون فهمه، يقترب منهم. وفى لحظة من اللحظات هب فى فناء الدار فزع جماعى بين النساء ، فسمعت صيحاتهن وصيحات أطفالهن ، والجميع يجرون فى كل اتجاه. فخرج الحاج سامان إليهن ليهدئ من روعهن . وبعد ذلك ، أطلق حارس من حراس الحصن الرصاص على شيء يتحرك فى مجرى النهر وكاد أن يقتل قروياً ، كان يقصد إلى الحصن فى قاربه الطويل مع نسائه ، وخير ما يملكه من أوانى الطبخ واثنتى عشرة فرخة . ولقد سبب ذلك مزيداً من الفوضى . وفى أثناء كل ذلك ، كانت تجرى المناقشات البيزنطية فى بيت جيم ، بحضور الفتاة . وكان دورامين يجلس ثقيلا متجهم الوجه ، وهو ينظر إلى المتحدثين وهم يتبادلون ويتنفس فى بطء كالثور . ولم يتكلم إلا فى الآخر ، حين أعلن قاسم أن قوارب الراجا ستنسحب لأنهم سيحتاجون إلى الرجال الذين فيها

للدفاع عن معسكر سيدهم . ورفض دين واريس أن يتحدث في حضرة والده ، على الرغم من أن الفتاة كانت ترجوه أن يتكلم باسم جيم وعرضت عليه رجال جيم في قلقها ، لطرد هؤلاء المتطفلين في الحال. ولكنه اكتفى بهز رأسه ، بعد أن استرق نظرة أو نظرتين إلى والده . وأخيراً حين انفض المجلس كان قرارهم هو تعزيز المنازل القريبة من النهير بالرجال ، ليستطيعوا أن يتحكموا في قارب العدو في حالة محاولة رجال براون استرداده . وكانت الخطة هي أن يمتنعوا عن مهاجمة هذا القارب علانية ، حتي يمكن إغراء اللصوص على التل بركوبه ، وحينذاك يمكنهم أن يسلطوا نيرانهم عليهم ، ولا شك حينئذ في أنهم سينجحون في قتل أغلبهم . ثم لقطع خط الرجعة على من سيبقى منهم على قيد الحياة ، ولمنع غيرهم من المجيء إلى البلاد ، فقد أمر دورامين ولده دين واريس بأخذ جماعة مسلحة من البوجيز ، إلى نقطة في اتجاه مصب النهر ، تبعد عشرة أميال عن باتوزان ، وأن يقيم معسكراً هناك على الشاطيء ، ثم يعترض مجرى النهر بالقوارب. وأنا لا أعتقد للحظة واحدة أن دورامين كان يخشي من وصول قوارب جديدة . في رأيي أن الذى الذى كان يرمى إليه ، هو أن يبعد ابنه فقط عن مواطن الخطر . ولمنع هجوم على المدينة ، أصدر أمره ببدء إقامة التحصينات عند الفجر في نهاية الشارع على الضفة اليسرى من النهر . واعتزم الرجل العجوز أن تكون له القيادة هناك بنفسه . وأشرفت الفتاة في الحال على توزيع البارود ، والرصاص ، ومطارق البنادق وصدرت الأوامر أيضاً بإرسال جملة رسل في اتجاهات مختلفة وراء جيم ، الذى كانوا لا يعرفون مكانه بالضبط . انطلق هؤلاء الرجال عند الفجر ، ولكن قبل ذلك الوقت

كان قاسم قد استطاع أن يجرى اتصالات مع براون المحاصر .

وكان ذلك الدبلوماسى الداهية ، رجل الراجا والحفيظ على أسراره فى طريقه للرجوع إلى سيده بعد أن غادر الحصن ، قد أخذ معه فى قاربه كورنيليوس ، الذى وجده متسللا بين الناس الذين كانوا فى فناء الحصن : وكان عند قاسم خطة صغيرة من تدبيره وحده ، وكان يريد كورنيليوس ليترجم كلامه لبراون . وعلى هذا فقرب الصباح وقد كان براون يفكر فى موقفه اليائس إذا به يسمع من قطعة الغابة الصغيرة فى المستنقع المنخفض ، صوتاً صديقاً متموجاً مجهداً يصرخ بالإنجليزية طالباً منه الإذن بالصعود إليه ، مع الوعد بتأمينه على حياته لحمل رسالة ذات أهمية عظمى بالنسبة إليه . فشعر بروان فى الحال بالسرور يغمر قلبه . فقد شعر بأنه إن كان هناك أحد يتحدث إليه ، فإن معنى ذلك أنه لم يعد ذلك الوحش المطارد . ولقد رفعت تلك النبرات الصديقة عن صدره فى الحال ذلك الحمل الثقيل من الاحتراس الشديد والمراقبة ، الذى كان يحس تحته أنه هو ورجاله كانوا كجماعة من العميان لا يعرفون من أى اتجاه كانت ستأتيهم ضربة الموت : . فتصنع الزهد فيما عرضه عليه كورنيليوس . وأعلن الصوت عن نفسه أنه « رجل أبيض : رجل عجوز مسكين مهدم ، عاش فى تلك الأنحاء أعواماً عديدة » . وكان هناك ضباب رطب بارد ، يجثم على منحدرات التل ، وبعد أن تبادل الاثنان صراخهما لبعض الوقت ، ناداه براون قائلا ، « اصعد إذن ، ولكن حذار أن يكون معك أحد » . وفى حقيقة الأمر ، لم يكن لذلك أية أهمية كما قال لى براون ، وهو

يتلوى من الغضب حين تذكر حالة العجز التى كان فيها . فقد كانوا لا يرون أمامهم أكثر من بضع ياردات ، ولم يكن الغدر ليستطيع أن يجعل موقفهم أسوأ مما كان عليه . وبعد حين ظهر كورنيليوس لهم في ملابس العمل التي كانت عبارة عن قميص ، وسروال قذرين ومهلهلين ، وكان حافى القدمين وعلى رأسه قبعة من الفلين مكسورة الإطار ، وكان منظره غير واضح فى الضباب ؛ وهو يخطو بجنبه نحو المتاريس ، متردداً ثم يقف مصغياً وهو يجهد ناظريه كى يرى ما أمامه ، فصاح به براون بينما كان رجاله يحملقون فى القادم : « تقدم . إنك فى أمان » وفجأة تركزت كل آمالهم فى الحياة فى ذلك القادم الجديد الحقير المظهر المهلهل الثياب ، الذى خطا فوق الأشجار المقطوعة فى سكون عميق وجهد ظاهر وهو يرتعش وينظر بوجهه القبيح المشحون بعدم الثقة ، إلى تلك الجماعة من عتاة المجرمين الملتحين القلقين ، الذين لم يذوقوا للنوم طعماً .

وبعد نصف ساعة من الحديث الهامس مع كورنيليوس ، فتح براون عينيه إلى ما كانت عليه الحالة الداخلية فى باتوزان فتنبه إلى حقيقة الموقف فى الحال . ووجد أنه ملىء بالاحتمالات ، بل باحتمالات كبيرة . ولكنه طلب من كورنيليوس قبل أن يبحث فى اقتراحاته ، أن يرسل إليه بعض الطعام كضمان لحسن نيته . فغادره كورنيليوس وهو يزحف فى بطء شديد إلى أسفل التل من جانبه الذى كان يطل على قصر الراجا . وبعد قليل من التأخير ، صعد إليهم بعض رجال تونك

الأدغال ، ومعهم كمية قليلة من الأرز والحبوب والسمك المجفف ، وكان ذلك خيراً كثيراً من لا شيء . ثم رجع بعد ذلك كورنيليوس مصحوباً بقاتلهم ، الذي كان يمشي إليهم فى خطوات مرحة ، وكأنه مليء بالثقة فيهم ، وكان يرتدى (صندلا) فى قدميه ، ويلف جسده فى ملاءة زرقاء داكنة تغطيه من رقبته إلى كعبيه . فصافح براون دون إحداث جلبة ، وانتحى ثلاثتهم جانباً ، ليتداولوا فى الأمر . وكان رجال براون ، وقد استعادوا ثقتهم فى تلك الأثناء يضربون ظهور بعضهم بعضاً ، ويرسلون بنظرات ذات مغزى إلى قائدهم ، وهم يشتغلون بإعداد الطعام .

وكان قاسم يكره دورامين وقومه كراهة شديدة ولكنه كان يكره نظام الحكم الجديد كراهة أشد . وكان قد فكر أن هؤلاء الرجال البيض ، ومعهم أتباع الراجا ، يستطيعون أن يهاجموا البوجيز ويهزموهم قبل رجوع جيم . وظن أنه سيستتبع ذلك أن رجال المدينة على وجه التأكيد سيتخلون عن جيم ، وعلى ذلك ينتهى حكم الرجل الأبيض ، الذى يحمى الفقراء . وبعد ذلك يمكن الانتباه إلى الحلفاء الجدد ، الذين لم يكن لهم أصدقاء وكان الرجل قادراً على التمييز بين طبائع الناس وكان قد رأى مايكفى من الرجال البيض ، ليعرف أن هؤلاء القادمين الجدد ، كانوا من المنبوذين . كانوا رجالا لا وطن لهم . وكان براون قد استعمل معه طريقة تتسم بالشدة وعدم الكشف له له عن نياته . فحين سمع صوت كورنيليوس يطلب مقابلته ، لم يكن ذلك إلا مجرد أمل فى ثغرة للهرب ، بالنسبة إليه ، ولكن بعد أقل

من ساعة ، كانت هناك أفكار أخرى يغلى بها رأسه : فقد كان ما حدث له يتلخص فى أنه ، تحت ضغط الحاجة الملحة ، كان قد اضطر للحضور إلى هذه الأنحاء ليسرق بعض الطعام ، وربما بعض أطنان من المطاط أو الصمغ ، وربما بدرة من الدولارات الفضية أيضاً : ولكنه وجد نفسه محاطاً بأخطار مميتة . أما الآن ، فبعد أن فتح قاسم الباب أمامه ، فإنه بدأ يفكر فى سرقة البلاد بأسرها . ثم إنه كان قد سمع الآن ، أن أحد أولئك الملاعين ، كان قد استطاع فعلا أن يفعل ذلك ودون معونة من أحد . ولكنه ظن أن الرجل ، لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك على الوجه الأكمل فى ظروفه . إذن ، فلربما كان من الممكن أن يعملا معاً كشريكين ؛ وبعد أن يعتصرا كل ما يمكن اعتصاره ، ولا يبقى بعد ذلك إلا الجفاف ، يغادران المكان فى هدوء . ومن خلال مفاوضاته مع قاسم ، فهم أنه كان من المظنون أنه كان يملك سفينة كبيرة ، وعدداً وافراً من الرجال ، عند مصب النهر . ولقد رجاه قاسم ، فى جد وإلحاح ، أن يأمر بإحضار هذه السفينة ، بما عليها من المدافع الكثيرة ، والرجال العديدين ، إلى النهر ، دون إبطاء ، لخدمة الراجا . ولقد أبدى براون موافقته . وعلى هذا استمرت المفاوضات على أساس متبادل من الخداع ، وعدم الثقة . وفى خلال الصباح ذهب قاسم المجامل النشيط إلى أسفل التل ، ثلاث مرات لاستشارة الراجا . ثم رجع بخطوته الطويلة وعلى وجهه إمارات الجد . وكان براون فى مسارته مع قاسم ، يحس بنوع من الاستمتاع الوحشى ،

حين يفكر فى مركبه التعس ،الذى لم يكن فيه غير كومة من التراب وقد ظنوه سفينة حربية ، وفى الرجل الصيني والرجل الأبيض الأعرج الآخر الذى لم يكن قبل ذلك إلا أحد المتسكعين على شاطىء ليفركا ليجمع ما تقذف به المراكب ، وقد اعتبرا جيشاً عرمرماً ينتظر أوامره على ظهر السفينة .

. . . وفى عصر ذلك اليوم اليوم ، حصل براون على كميات قليلة من من ذلك الطعام الذى كانوا يتصدقون به عليه ،وعلى وعد بإعطائه بعض النقود ، ثم على بعض الحصير لرجاله ليصنعوا منه مأوى لهم . فرقد رجاله تحت الحصير الذى كان يحميهم من ضوء الشمس وهم يشخرون بينما جلس براون على إحدى الأشجار المقطوعة ، وهو معرض بجميع جسده للشمس الحارقة ، ليمتع عينيه بمنظر المدينة والنهر . فلقد كان هناك الكثير مما يمكن نهبه . وكان كورنيليوس ، الذى لازم معسكر براون كما لو كان أحد سكانه ، قريباً من مرفقه يتحدث إليه ، وهو يعرفه على ما يراه أمامه من المعالم والأمكنة ، ويسدى إليه النصيحة، ويشرح له طبيعة جيم كما يراها هو ، ويعلق بطريقته الخاصة على الحوادث فى الأعوام الثلاثة الأخيرة . وكان بروان وهو يصطنع عدم الاكتراث ولا يلتفت إليه ينصت بعناية إلى كل كلمة تخرج من فمه ، ولكنه لم يستطع أن يفهم بوضوح ، أى الرجال كان هذا الجيم .

ما اسمه ؟ جيم : جيم : إن هـذا لا يـكفى ليكون اسم رجل :» فقال كورنيليوس بلهجة الاحتقار، « إنهم يدعونه (توان جيم) هنا. وهذه الـكلمة معناها « لورد جيم » . وسأل براون : « من هو ؟ ومن أين أتى ؟ وأى نوع من الرجال هو ؟ أهو إنجليزى ؟ » فقال له كورنيليوس « نعم . نعم . إنه رجل إنجليزى : وأنا أيضاً إنجليزى من « ملقا » إنه أحمق . وكل ما عليك أن تفعله هو أن تقتله وستصبح بعد ذلك ملـكاً على هذه البلاد. فكل شيء هنا ملكه. »فعلق براون على ذلك بصوت خفيض قائلا ، « إنه يخيل إلى أنه سيضطر أن يشارك فى ذلك أحـد الناس ، قبل مضي وقت طويل . » فأجابه كورنليوس فى جد وإلحاح . « كلا . كلا إنك يجب أن تقتله فى أول فرصة تسنح لك ، وبعد ذلك يمكنك أن تفعل ما تشاء . إنني أعيش هنا من زمن طويل ، وإنى أقدم لك النصح كصديق » .

وفى مثل هذا الحديث ، وفى اعتزازه الشره بمنظر باتوزان ، التي عقد العزم فى نفسه على أن تصبح فريسة له ، أمضي براون الجزء الأكبر من عصر ذلك اليوم؛ بينما رقدرجاله ليأخذواقسطاً من الراحة. وفى ذلك اليوم ، كان أسطول القوارب الذى يقوده دين واريس ، ينسحب قارباً ، قارباً قريباً من الشاطىء البعيد عن النهير ، ويذهب إلى البقعة التي اختارها على النهر ليقطع عليه خط رجعته . وكان براون لا يعلم شيئاً عن ذلك . وقد قصد قاسم ، الذى صعد إلى التل قبل غروب الشمس بساعة ، ألا يخبره بشيء فيما يتعلق بذلك : فلقد

كان يريد أن يرى سفينة الرجل الأبيض تحضر إلى النهر ، ولقدكان يخشى أن يجد براون فى هذه الأخبار مالا يشجعه على الإقدام على ذلك . ولقد ألح على براون ، إلحاحاً شديداً ليرسل «الأمر» عارضاً عليه فى الوقت نفسه رسولا من أهل الثقة ، يستطيع إمعاناً فى السرية (كما قال) أن يقطع الرحلة إلى مصب النهر عن طريق البر ، وأن يسلم الأمر على سطح السفينة وبعد التفكير رأى براون أن من حسن السياسة أن يمزق صفحة من دفتر جيبه الصغير ، كتب عليها ما يأتى «إننا نسير فى طريق النجاح . العمل كبير . احجزوا الرجل .» ولقد أدى الفتى القوى الذى اختاره قاسم لهذه المهمة ، واجبه بأمانة . وكان جزاؤه على ذلك أن دفع من الخلف دفعة أسقطته ، ورأسه أولا فى مخزن السفينة الخالى . وكان الرجلان اللذان استلما منه « الأمر » هما اللذان فعلا ذلك به ، وبعد ذلك أسرعا بغلق فتحة المخزن عليه ، أما ماذا كان مصيره بعد ذلك ، فلم يذكر براون عنه شيئاً .

الفصل الأربعون

وكان غرض براون ، هو أن يكسب الوقت بالتظاهر بالاهتمام بعروض قاسم الدبلوماسية لأنه كان لابد له من التعامل مع الرجل الأبيض نفسه . ولم يكن يتصور أن رجلا كهذا (كان لا بد أن يكون ذا قدرة ممتازة ليستطيع أن يسيطر على الوطنيين هذه السيطرة التامة) يمكن أن يرفض المعونة التي ستغنيه عن ضرورة استعماله لتلك الطريقة البطيئة الحذرة المليئة بالمخاطر ، لخداع أهل البلاد . . وهي الطريقة الوحيدة التي يمكن لرجل وحيد في مثل ظروفه أن يستعملها . وكان براون سيوفر له القوة اللازمة : وهو لا يستطيع في مثل حالته أن يتردد في قبولها . وسيتوقف كل شيء إذن على الوصول معه إلى اتفاق واضح : وستكون خلاصة هذا الاتفاق بالطبع ، هي أن يشتركا معاً في العمل والغنائم . وكان علمه بوجود حصن « من كورنيليوس » . حصن حقيقي ، كامل بمدافعه وتحت تصرفه ؛ كما كان يعتقد شيئاً بالغ الإثارة بالنسبة إليه : فلو دعوه فقط للدخول إلى هذا الحصن و . . . إنه لن يبالغ في شروطه : ولكنه لن يكون متواضعاً إلى حد كبير ، فهو لا يعتقد أن الرجل أبله . وعلى ذلك ، فإن خير طريقة هي أن يشتركا معاً في العمل كأخوين ، إلى أن يحين الوقت

لافتعال مشاجرة .. تنطلق فيها رصاصة لتسوية جميع الحسابات المعلقة بينهما . وفى شوق وحشى لايعرف الصبر إلى ممارسة السلب والنهب ، كان يتمنى لو أنه حادث الرجل الأبيض الآن . فلقد خيل إليه أن الأرض التى أمامه ، قد صارت ملك يديه ، يستطيع أن يقطعها إرباً ويعتصرها عصراً ثم يرمى بها بعيداً . ولكنه كان يجب عليه الآن أن يستمر فى تغريره بقاسم ، ليستطيع الحصول منه على الطعام أولا ثم ليبقيه كبديل يستطيع استخدامه، إذا فشلت خطته الأصيلة ثانياً ، ولكن كان أهم مافى الأمر الآن هو الحصول على الطعام ، يوما بيوم . وفوق ذلك ، فلم يكن لديه مانع من البدء فى القتال لحساب هذا الراجا ، وأن يلقن هؤلاء الناس الذين استقبلوه بطلقات الرصاص ، درساً لن ينسوه . ولقد كان يستبد به عندئذ حماس المعركة وشهوة القتال .

وإنى لآسف لأنى لا أستطيع أن أقص عليك هذا الجزء من القصة، لأننى بالطبع لم أعرفه إلا من براون، وفى نفس كلماته ، التى روى لى بها . وكان فى حديث ذلك الرجل العنيف المتقطع وهو يكشف لى عن أفكاره ويد الموت تمسك برقبته غرض واضح يسير نحوه بلاشفقة ولا رحمة، وموقف غريب ملىء بشهوة الانتقام فى نظرته إلى ماضيه ، واعتقاد أعمى بأن من حقه أن يفرض إرادته على البشر ، ولعله كان يحس بنفس الشعور الذى يدفع قائداً لإحدى العصابات من القتلة والمجرمين، لأن يعلن على العالم فى فخر بأنه نقمة الله . ولا شك فى أن

الوحشية الطبيعية التى لا اعتمل لها ، التي هى أساس تكوينه ، كان قد نفد صبرها من جراء الإخفاق وسوء الحظ ؛ والشدائد التي عاناها أخيراً . . ثم بموقفه اليائس الذى كان يجد نفسه فيه . ولكن الجدير بالملاحظة فى كل ذلك ، أنه كان وهو يدبر تلك الأحلاف الغادرة قــد انتهى فى عقله ، من تقرير مصير الرجل الأبيض : وكان يتآمر مع قاسم بطريقة تتسم بالكبرياء ، وعدم الاكتراث : : وعلى ذلك فإن المرء يستطيع أن يدرك أن ما كان يرمى إليه فى حقيقة الأمر — وربما كان عاجزاً عن كبح جماح نفسه — هو أن يملأ تلك البلدة ، التى تقع على حافة الغابة ؛ والتى تحدت إرادته ؛ بالرعب والفزع ، وأن يراها مغطاة بالجثث ؛ ومحاطة بلهيب النيران . وكنت وأنا أصغى إلى صوته اللاهث المشحون بالقسوة أستطيع أن أتصور كيف كان ينظر من فوق التل إلى تلك البلدة ، وهو يملؤها فى خياله بالقتل والسلب . وكان الجزء القريب من النهير ، يظهر وكأنه قد أصبح مهجوراً ؛ وذلك رغم أن كل بيت فيه كان يخفى فى الحقيقة عدداً من الرجال المسلحين ؛ على الاستعداد لكل طارئ . وبعد قطعة الأرض البور الممتدة ؛ التي كان ينتشر فيها قطع صغيرة تعلوها الشجيرات الكثيفة القصيرة ، وبعض الجمر ، وأكوام القاذورات ؛ وبعض الدروب المطروقة وسط تلك الأشياء خرج فجأة رجل بمفرده وهو يبدو صغيرا جداً ، وأخذ يتمشى فى آخر الشارع المهجور بين المنازل المغلقة المظلمة التى لا حياة فيها فى آخر القرية . ولعله كان أحد السكان

الذين هربوا إلى الضفة الأخرى من النهر ، وقد رجع فى طاب شيء من الأشياء التى تستعمل فى المنازل . ومن الواضح أنه ظن نفسه فى مأمن من الخطر وهو على هذه المسافة من التل ، الذى كان يقع على الضفة الأخرى من النهر . وكان هناك بعض التحصينات الخفيفة التى أقيمت على عجل ، قريبة منه عند أول منحنى للشارع ، وكانت مليئة بأصدقائه . وكان الرجل يتحرك كأنه لم يكن فى عجلة من أمره ، فرآه براون ثم دعا إلى جانبه فى الحال ، ذلك الأمريكى الهارب ، الذى كان فى منزلة مساعده الأول . فتقدم إليه ذلك الرجل الطويل النحيل ، ذو المفاصل الطليقة الحركة ، بوجهه الخشبي ساحباً وراءه بندقيته فى كسل . وحين فهم ما يريده منه براون ، انفرجت شفتاه عن أسنانه فى ابتسامة قاتلة ، مشحونة بالغرور ، رسمت تجعيدتين عميقتين فى أسفل خديه الغائرين المتجلدين . وكان ذلك الرجل يفتخر بأن طلقته تصيب المقتل دائماً ، فسقط على ركبة من ركبتيه ، وصوب على الهدف من وضعه الثابت من خلال الأغصان غير المشذبة من شجرة مقطوعة ، ثم أطلق الرصاص ونهض فى الحال ليرى النتيجة . فأدار الرجل الذى كان على تلك المسافة البعيدة رأسه نحو صوت الطلقة ، وخطا خطوة واحدة إلى الإمام ، ثم بدا عليه وكأنه يتردد ، ثم سقط فجأة على يديه وركبتيه . وفى السكون الذى تلا صوت الطلق النارى ، قال الرجل الذى يصيب المقتل دائماً وهو يركز نظره على فريسته ، «إنى أظن أن صحة هذا الرجل المصاب لن تكون مصدر قلق لأصدقائه بعد الآن» . وكانت

أطراف الرجل ترى وهى تتحرك تحته بسرعة حين حاول أن يجرى على أربع . وخرجت من هذه القطعة الغضاء صيحة أسى ودهشة من عدد كبير من الناس . وسقط الرجل سطيحاً ورأسه إلى أسفل ، ثم سكنت حركته إلى الأبد . وكما قال براون لى : « لقد أريناهم ماذا نستطيع أن نفعل،وأوقعنا فى نفوسهم الخوف من الموت المفاجىء وذلك هو ما كنا نرمى إليه . لقد كانوا مائتين لواحد بالنسبة إلى عددنا . وقد أعطاهم ذلك الحادث شيئاً يفكرون فيه فى أثناء الليل . ولم يكن بينهم من يعرف أن هناك رصاصة يمكن أن تصل إلى هذه المسافة من قبل ، فلقد أوشكت عينا ذلك الشحاذ من رجال الراجا أن تخرجا من رأسه وهو يراقب ما حدث أسفل التل » .

وكان وهو يقص على ذلك يحاول بيد مرتعشة ، أن يمسح الزبد الذى على شفتيه ، «مائتان ضد واحد . مائتان ضد واحد . . وأوقعنا الفزع .. الفزع ، فى صدورهم . . » وكانت عيناه هو قد بدأتا تخرجان من محجريهما . فسقط على ظهره ، وكأنه يحاول أن يقبض على الهواء بأصابع من الجلد ، ثم جلس ثانية فى وضع منحن وقد غطاه الشعر محدقاً فى من طرف عينيه، وكأنه الإنسان الوحش الذى نسمع عنه فى القصص الشعبي . وقد فتح فمه . وهو تحت وطأة العذاب ، الذى كان يعانيه ، قبل أن يستعيد قدرته على النطق بسبب هذه النوبة الخانقة . . إن هناك مناظر لا يستطيع المرء أن ينساها أبداً ؟ ولقد كان ذلك المنظر أحدها .

ثم لكى يغرى العدو بإطلاق النار ، ويعرف مخبأ ما قد يكون هناك من كمائن ، نصبت له على طول النهير . وسط الشجيرات . فقد أمر براون رجله من جزر سليمان أن يهبط إلى القارب ويحضر له مجدافاً بنفس السهولة التى يرسل بها المرء كلبا فى إثر عصا فى الماء . ولكن لم تكن هناك نتيجة لذلك العمل . ورجع الرجل إليه دون أن تطلق رصاصة واحدة عليه من أية جهة من الجهات . فقال بعض الرجال : « إنه لايوجد أحد هناك » وقال الأمريكى « بلهجة اليانكى » : « إن ذلك غير طبيعى » : وكان قاسم قد غادرهم فى هذه الأثناء ، وهو يتنازعه إعجاب شديد بهم : وشىء من الفرح : مشوباً بالقلق أيضاً : وطبقاً لسياسته الملتوية أرسل رسالة لدين واريس يخبره فيها أن يكون على حذر وأن يترقب ظهور سفينة الرجال البيض ، لأنه قد نمى إلى علمه أنها على وشك الظهور فى النهر . ولقد هون فى رسالته من شأن هذه السفينة ، وحضه على الوقوف فى طريقها ، ومنع عبورها : وكانت تلك السياسة ذات الوجهين تخدم غرضه الذى كان يرمى به إلى تفريق قوات البوجيز وإضعافها بالقتال . ومن جهة أخرى ، كان قد أرسل رسالة أخرى خلال ذلك اليوم إلى زعماء المجتمعين فى المدينة يؤكد لهم فيها أنه يحاول إقناع الغزاة بالانسحاب . وكانت رسائله إلى الحصن تطلب بإلحاح بعض البارود لرجال الراجا . وكان قد مر وقت طويل على حصول تونكو ألانج على البارود اللازم للعشرين « قرابينة » القديمة ـ أو ما يقرب من ذلك العدد ـ التى كان

يعلوها الصدأ ، وهى معلقة فى المكان المخصص لها فى قاعة ديوان الراجا
ولقد أقلقت تلك الاتصالات المفتوحة بين التل والقصر نفوس الناس،
وبدأ بينهم الحديث عن وجوب اختيارهم لجانب من الجانبين
المتعارضين : وتنبئوا بقرب حدوث أحداث رهيبة تسيل فيها الدماء،
وأن كثيراً من الناس سوف يصيبهم الشقاء والعذاب من تلك الحوادث
وخيل إليهم فى ذلك المساء أن النظام الاجتماعى المستقر، والحياة الآمنة
التي كان يعرف فيها كل منهم ما سيأتى به الغد، ذلك الصرح المتين
الذى أسسه جيم ، كان على وشك الانهيار ، ليحل محله الخراب الغارق
فى الدماء : ولقد بدأ الفقراء منهم فعلا فى الهروب إلى الغابة ، أو
الالتجاء إلى أعالى النهر : وظن أهل الطبقات العليا منهم أن من الحكمة أن
يذهبوا إلى الراجا لرفع احترامهم وولائهم إليه، وكانوا حين يذهبون يتعرضون
هناك لمعاملة غير كريمة من فتية الراجا . وكان تونكو ألانج العجوز نفسه
وقد كان يمزقه الخوف والحيرة يقابلهم ، إما بسكون متجهم، وإما
بسيل عنيف من الشتائم لجرأتهم على الحضور إليه وأيديهم فارغة
من العطايا : فكانوا يرحلون عنه دائماً وقد إستبد بهم الخوف : أما
دورامين فقد كان الوحيد بينهم الذى جمع رجاله حوله وأخذ ينفذ
خطته الأصيلة دون أن يحيد عنها قيد أنملة : فكان يجلس فى مقعده
الكبير وراء التحصينات التي أقاموها على عجل ، وكأنه ملك على عرشه
يصدر أوامره فى صوت كقصف الرعد المكتوم ، دون أية علامة على

الانفعال ، وكأنه رجل أصم وسط هذه الإشاعات التي تطير من حوله؛

وحل الغسق ، ليخفى أولا جثة الرجل الميت ، الذى ترك طريحاً ويداه ممتدتان كما لو كانتا مسمرتين إلى الأرض . ثم تحركت كرة الليل الدائرة فى يسر إلى ما فوق باتوزان حيث استقرت ، وأطل من جبتها على الأرض لألاء الضوء من عوالم لا حصر لها . ومرة أخرى اشتعلت النيران الكبيرة على طرل الشارع الوحيد فى المدينة فى الجزء المكشوف منها — فظهرت على ضوئها الخطوط المستقيمة للأسقف، وأجزاء متناثرة من الحوائط المصنوعة من فروع الأشجار فى فوضاها الضاربة من هذه الفروع : وبين حين وآخر ،كان يظهر كوخ بأكمله على ضوء هذه النيران ، مرفوع على قوائم رأسية سوداء ، بين مجموعة من الأكوام العالية . وكان يخيل للمرء أن ذلك الصف من المساكن الذى كانت تظهر بعض أجزائه هنا وهناك على ضوء النيران يزول تدريجياً فى طريق ملتو فى أعالى النهر ، ثم يختفى فى الظلمة التى تلف أعماق البلاد . وكان السكون المخيم الذى كانت تلعب عليه أضــواء النيران المتتالية ، دون ضوضاء يمتد إلى الظلام عند أسفل التل . أما عند الضفة الأخرى من النهر ، التي كان يسودها الظلام فيما عدا النار الكبيرة الوحيدة التى كانت تشتعل على الشاطىء ، أمام الحصن فقد كان هناك هزة صوتية متزايدة تسرى فى الهواء لعلها نشأت من وقع أقدام جموع كبيرة من الناس ، أو من همهمة أصوات عديدة ، أو من صوت المياه التى يحدثها شلال كبير على البعد . ولقد اعترف

لى براون أنه عند هذه اللحظة بالذات بينما كان يدير ظهره لرجاله ، وهو يجلس وأمامه كل هذه المناظر قد اعتراه شعور غامر على الرغم من كبريائه ، ومن ثقته التى لاحد لها فى نفسه بأنه قد وقع أخيراً فى مأزق لا مخرج له منه ، وأن الطرق جميعها قد سدت أمامه بالصخور : ولو كان قاربه طافياً على الماء فى ذلك الوقت ؛ فإنه كان يعتقد أنه كان سيحاول التسلل فيه ، مقامراً بنتيجة المطاردة الطويلة له على طول النهر ثم بالموت جوعاً على سفينته فى البحر . وبالطبع كان من المشكوك فيه جداً ، أن ينجح فى الهرب . وعلى أية حال ، فهو لم يحاول ذلك ... وفى لحظة أخرى دارت فى خلده فكرة عابرة ، بأن يحاول الهجوم على المدينة ، ولكنه أدرك جيداً أنه سيجد نفسه أخيراً فى الشارع المضاء حيث يمكنهم أن يصطادوه هو وأصحابه كالكلاب ، من أسطح المنازل ، وجلس هناك يفكر : إنهم كانوا مائتين ضد واحد بالنسبة لعددهم ، بينما كان رجاله يجلسون فى استرخاء حول كومتين من جمر الخشب . يمضغون آخر ما عندهم من الموز ، ويشوون بعض البطاطا التى كانوا يدينون بها لدبلوماسية قاسم ... وجلس كورنيليوس وسطهم يغالب النعاس بوجه متجهم .

ثم تذكر أحدهم أن هناك بعض التبغ فى القارب . ولما كان قد شجعهم عدم حدوث حادث لرجل جزائر سليمان فى رحلته . فقد قال إنه سيذهب ليحضرها ، وعند ذلك ذهب عن الجميع ما كانوا يشعرون به من هم ، وحين طلبوا الإذن من براون ، قال باحتقار « اذهب ،

عليك اللعنة » . ولم يكن يظن أن هناك خطراً فى الذهاب إلى النهير فى الظلام : فرفع الرجل ساقه فوق جذع الشجرة ، واختفى . وبعد لحظة سمعوه وهو يتحسس طريقه فى الدخول إلى القارب . ثم فى الخروج منه . وصاح الرجل . « لقد وجدته » وتلا ذلك مباشرة ومضة . ثم صوت لطلق نارى . تحت سفح التل تماماً . وصرخ الرجل « لقد أصبت ، خذوا حذركم خذوا حذركم ـ لقد أصبت » ، وفى نفس اللحظة انطلقت كل بنادق البيض . واهتز التل فى الليل بالنار والضوضاء ، وكأنه بركان ثار فجأة . وحين أوقف براون والرجل الأمريكى إطلاق النار الذى سببه الفزع ـ بما وجهوه إلى الرجال من لعنات وصفعات ـ صعدت إليهم من النهير جأرة مجهدة عميقة . تلتها ولولة كان ما فيها من الحزن الذى يقطع شغاف القلوب أشبه بسم يحيل حرارة الدم إلى برودة الثلج فى العروق : ثم سمعوا صوتاً قوياً واضحاً ، فى مكان ما عند سفح التل ، ينطق بكلمات غير مفهومة : فصرخ براون « لا تطلقوا النار . ماذا يقول ؟ » فقام كورنيليوس بدور المترجم بين الرجل والجماعة وقال الصوت مكرراً ، « أيها الرجال على التل : : هل تسمعون ؟ هل تسمعون؟ هل تسمعون؟ » فأجابه براون بلسان كورنيليوس نعم ، « تكلم فنحن نسمع » . فأجاب الصوت ، فى النبرات المستطيلة المتضخمة التى يستعملها المنادون وهو يتنقل فى حركة دائمة على حافة الأرض الفضاء التى كانت غير واضحة فى الظلام ، معلناً أنه لن يكون هناك ثقة ولا رحمة ولا كلام ولا سلام بين رجال شعب البوجيز الذين يعيشون فى باتوزان ، وبين الرجال

البيض الذين يعيشون على التل ، وكل من انحاز إلى جانبهم : ثم سمعوا شجيرة تهتز ، وصوت طلقة طائشة تهتز ، فى الفضاء . فدمدم الرجل الأمريكى قائلا ، « قفوا هـذا الجنون اللعين ، » وهو يرمى بالبندقية التى أطلقت الرصاص على الأرض . وبعد أن صرخ الرجل المجروح عند القارب مرتين قائلا ، « خذونى إليكم .: خذونى إليكم ! » استمر فى شكواه وأنينه : : : ولقد كان ذلك الرجل طيلة وجوده على أرض المنحدر المعتمة ، وحتى بعد ذلك وهو يجلس القرفصاء فى القارب فى مأمن معقول من الخطر . ولكن يظهر أنه فى فرحته بالعثور على التبغ كان قد نسي نفسه وقفز من القارب على الجانب الآخر . وحينذاك ظهرت هيئته بوضوح إلى جانب القارب الأبيض ، وهو قابع هناك مرتفعاً على الأرض اليابسة : وكان اتساع النهير فى تلك البقعة لا يزيد على سبع ياردات ، وقد تصادف حينئذ وجود رجل يجلس مختفياً فى الشجيرات ، على الضفة الأخرى :

وكان ذلك الرجل من قبيلة البوجيز فى إقليم توندانو ، ولم يحضر إلى باتوزان إلا أخيراً . وكان يمت بصلة القربى لذلك الرجل الذى قتل عصر ذلك اليوم : : : وكانت تلك الطلقة البعيدة ، قد بعثت حقاً الاشمئزاز والأسى فى قلوب من شاهدوها : فلقد أصيب ذلك الرجل فى مقتل وهو يشعر تمام الشعور بالاطمئنان والأمن ، فسقط على الأرض على مرأى من أصدقائه جميعاً ، وكلمات المزح لا تزال على شفتيه ، ويظهر أن الناس رأوا فى هذا العمل جرماً بشعاً ، حرك فى نفوسهم شعور الغضب المرير ، وكان قريبه هذا ، واسمه «سي «ـلابا

فى تلك اللحظة مع دورامين عند التحصينات التى كانت على بعد بضع أقدام من الحادث ولعلك، أنت تعرف هؤلاء الرجال تقرنى فى أن ذلك الرجل كان على شجاعة غير عادية حين تطوع بإيصال هذه الرسالة إلى رجال التل بمفرده فى الظلام . وكان قد زحف عبر الأرض الفضاء، وحين انحرف إلى اليسار ، وجد نفسه أمام القارب . وقد أفزعه رجل براون حين صرخ : فتحرك بسرعة إلى وضع الجلوس ، وبندقيته فى كتفه ، مصوبة إلى القارب . وحين قفز الرجل الآخر إلى خارج القارب فى العراء ، ضغط على الزناد ، وأفرغ ثلاث رصاصات من ذلك البعد القريب ، فى معدة ذلك التعس ، ثم انبطح على وجهه واعتبر نفسه فى عداد الموتى ، وهو يرى سيلا رفيعاً من الرصاص يطيح بقمم الشجيرات القريبة من يده اليمنى ويهزها هزاً . ثم ألقى خطابه بعد ذلك وهو يصرخ وقد ثنى نفسه نصفين ، واختفى طول الوقت وهو يتنقل فى حماية الشجيرات : وحين انتهى من كلامه ، قفز قفزة كبيرة جانبية واستقر فى مكانه لحظة لا يتحرك ثم رجع بعد ذلك إلى بيوت القرية دون أن يصاب بمكروه وكان بذلك قد حصل فى تلك الليلة على شهرة ذات طابع سيجعل أولاده يتحدثون بها إلى آخر أعمارهم ، ويعملون على أن تظل حية أبد الدهر :

وعلى التل تركت العصابة التي كانت تحس بالكرب الشديد ، كومتى الجمرات الصغيرتين تخبوان تحت رءوسهم المنحية ، وجلسوا فى هم شديد على الأرض ، بشفاه مزمومة ، وعيونهم إلى الأرض

يصغون إلى رفيقهم فى السفح : وكان رفيقهم هذا رجلا قوياً، لا يستسلم للموت بسهولة ، فأخذت أناته ترتفع حيناً ، ثم تهبط حيناً آخر إلى مستوى الهمس الغريب ، كأنه يسر بألمه إليهم : وكان يصرخ أحياناً ثم إذا به بعد فترة من السكون ، يسمع وهو يهذى فى همهمة ، بشكوى غير مفهومة : ولكنه كان لا يتوقف لحظة عن ذلك :

وحين رأى براون مساعده الأمريكى الذى كان لا يتوقف عن الهمس بلعناته ، يهم بالهبوط إلى السفح : قال له فى غير انفعـــال ، «وما الجدوى؟» فوافقه ذلك الرجل الهارب من خدمة بلاده قائلا : « هذا صحيح » وعدل عن فكرته كارهاً : ثم قال : « إنه لا أمل ، ولا راحة للجرحى فى هذا المكان : ولكن الضوضاء التى يحدثها تذكر الآخرين فى عنف بالدار الآخرة أيها القبطان : » وصاح الرجل الجريح ، فى صوت غاية فى القوة والوضوح ، « ماء » ، ثم استمر فى أنينه الضعيف : وغمغم الرجل الآخر فى استسلام ، وهو يتحدث إلى نفسه قائلا ، « نعم ، ماء : إن الماء سيحسم كل شىء ، وسيحصل منه بمرور الوقت على ما فوق الكفاية : إن المد قد بدأ » .

وارتفع المد ، مسكتاً أنينه وصرخات الألم : وكان الوقت قرب الفجر حين كان براون يجلس مسنداً ذقنه على راحة يده أمام باتوزان، كما يتأمل المرء جبلا منيعاً ، لا يمكن تسلقه . وفجأة سمع طلقة مدفع نحاسى عيار ستة أرطال فى، تدوى فى مكان ما بعيداً فى المدينة، فسأل كورنيليوس الذى كان لا يزال فى صحبته، «ماهذا ؟» فأصاخ كورنيليوس

يسمعه وسمع هتافاً مكتوماً يدوى فى النهر على طول امتداده ، بين المساكن فى المدينة. وسمع صوت طبلة كبيرة، جاوبتها طبول أخرى، كان لها نبض وطنين. وبدأت تتلألأ أضواء صغيرة مبعثرة فى النصف المظلم من المدينة ، بينما علت دمدمة الأصوات العميقة المستطيلة، فى النصف الآخر الذى كانت تشتعل فيه النيران ... فقال كورنيليوس، « لقــد أتى » . فسأله براون . « ماذا ؟ أتى ؟ هل أنت متأكد ؟ » فأجابه كورنيليوس ، « نعم ، نعم بكل تأكيد . استمع إلى هــذه الضوضاء » فسأله براون ، « ولماذا يحدثون كل هذه الضجة ؟ » وأجاب كورنيليوس ، فى لهجة استهزاء واستنكار ، « لإظهار فرحهم العظيم. إنه رجل عظيم جداً. ومع ذلك فإنه لا يعرف أكثر مما يعرف الطفل ، وعلى هذا فهم يحدثون تلك الضجة الكبيرة ليدخلوا السرور إلى قلبه ، لأنهم بدورهم لا يعرفون خيراً من ذلك . « فقال براون : « اصغ إلى ، ماهى الطريقة للوصول إليه ؟ » فقال كورنيليوس : « إنه سيحضر إليك بنفسه ليتحدث معك . » فقال براون . « ماذا تعنى؟ أتعنى؟ أنه سيحضر إلى هنا على أقدامه ؟ » فأومأ كورنيليوس برأسه بشدة فى الظلام ، قائلا . « نعم . إنه سيحضر إليك مباشرة ليتحدث إليك . إنه أحمق . وسترى قريباً ، إلى أى حـد يمكن أن يبلغ به الحمق . » فلم يصدقه براون . ولكن كورنيليوس أكد ما قاله مره أخرى ، قائلا . « سترى ، سترى إنه لا يخاف . لا يخاف شيئاً : سيحضر إليك . ويأمرك بأن تترك رجاله وشأنهم . هذا هو ما يقوله

دائماً لكل إنسان : إنه مثل الطفل الصغير... وإنى أعلم أنه سيحضر إليك مباشرة» . . . ويا للأسف إنه كان يعرف جيم جيداً. تلك «الحشرة الدنيئة . » كما وصفه براون. واستأنف كورنيليوس حديثه فى حماسة ، قائلا «إن من المؤكد أنه سيحضر إليك ، وعند حضوره ياعزيزى القبطان يجب أن تطلب من الرجل الطويل. أن يطلق عليه الرصاص، إن كل ماعليك هو أن تقتله. وبذلك تكون قد ألقيت الرعب الشديد فى قلوبهم جميعاً هنا . بحيث يمكنك أن تفعل ما تشاء بهم بعد ذلك ، وتحصل على ماتشاء وتغادر البلاد حينما تشاء . ها . . ها . . ها . . أليس ذلك جميلا . . ؟ » وكاد كورنيليوس أن يرقص مما كان يعتمل فى نفسه من شوق شديد وحرقة إلى تحقيق أمانيه . وكان براون - وهو ينظر إليه من فوق كتفه - يستطيع أن يرى فى قسوة الفجر رجاله مبللين بالندى وهم يجلسون وسط الرماد البارد ، وماتركوه من آثارهم ومخلفاتهم فى المعسكر ، وقد ظهرت على هيئاتهم آثار التعب والإجهاد والخوف ، فى ملابسهم المهلهلة .

الفصل الحادي والأربعون

وكانت النيران لا تزال مشتعلة بضوئها الساطع ، إلى آخر لحظة حين طلع النهار عليهم فجأة ، على الضفة الغربية من النهر: ورأى براون حينئذاك، وسط جماعة ترتدي الألوان الزاهية، وتقف بلا حراك بين البيوت القريبة ، رجلا يرتدي الملابس الأوربية البيضاء ويضع على رأسه قبعة للشمس ، لونها أبيض أيضاً : فقال كورنيليوس ، وهو لا يكاد يستطيع كبح شعوره : « انظروا ! انظروا ! هذا هو » فقفز كل رجال براون ناهضين ، وازدحموا وراءه يحدقون بأعين ضاع منها البريق : وكانت الجماعة ذات الألوان الزاهية والوجوه السمراء ، التي يقف في وسطها الرجل الأبيض ، ترقب قمة التل: وكان براون يستطيع أن يرى من مكانه ، بعض الأذرع العارية السمراء وهي ترتفع لتحمي العيون من وهج الشمس ، وبعضها الآخر وهي تشير إلى التل : وسأل نفسه ما الذي يجب عليه أن يفعله : ونظر حوله فرأى الغابات، تحيط به من كل جانب ، وكأنها الجدران التي تحيط بحلبة قتال لا تكافؤ فيه ونظر مرة أخرى إلى رجاله : فأحس بصدره يختلج بصراع عنيف، لعوامل مختلفة : كالاحتقار والإرهاق ، وحب الحياة ، والرغبة في الحصول على فرصة أخرى ، في مدحياته كي يموت ويدفن في قبر آخر غير هـذا : ومن الخطوط العريضة لهيئة الرجل الأبيض ظن أنه ـ وهو معزز بكل ما في البلاد من قوة وموارد ـ يتفحص موقفه على التل

من خلال منظار مكبر . فقفز براون على الشجرة المقطوعة ، رافعاً ذراعيه إلى أعلى وراحتى يديه إلى الخارج . ورأى الجماعة ذات الألوان الزاهية تلتف حول الرجل الأبيض ، ثم تعود إلى الوراء ، وتكرر ذلك مرتين قبل أن تتركه يسير وحده فى بطء . وظل براون واقفاً على جذع الشجرة ، يراقب جيم وهو يظهر ويختفى بين مجموعات الشجيرات الشائكة ، حتى كاد يصل إلى النهير . وعند ذلك قفز براون من فوق الشجرة ، وهبط إلى سفح التل ، ليلتقى به على الجانب الآخر من النهير .

وتقابلا على ما أعتقد قريباً من المكان ، بل ربما فى نفس البقعة التى قفز منها جيم قفزته الثانية اليائسة فى حياته ، تلك القفزة التى أدخلته إلى حياة باتوزان ، وإلى حب أهلها وثقتهم به واعتقادهم فيه . . . فواجه أحدهما الآخر عبر النهير ، ووجه كل منهما نظراته الثابتة إلى الآخر محاولا أن يتفهمه ويقيمه ، قبل أن يفتح شفتيه . ولا بد أن نظراتهما كانت تعبر عن عداوتهما . وإنى لأعلم أن براون قد كره جيم من أول نظرة . وأيا كانت آماله ، فقد انهارت فى الحال فلم يكن ذلك هو الرجل الذى كان يتوقع أن يراه . ولقد كرهه لذلك : وفى قميصه المخطط ذى الأكمام القصيرة ، وفى لحيته الرمادية وفى وجهه الغائر الذى سودته الشمس أخذ براون يلعن فى سره شباب الرجل الآخر ، وثقته فى نفسه ، وعينيه الصافيتين ، ومظهره الخالى من الاضطراب . إن ذلك الشاب كان يتقدمه بمسافة طويلة فى هذه

السباق ولم يكن فى هيئته ما يدل على أنه راغب فى التنازل عن شيء، مقابل المعاونة التي يعرضها عليه فقد كانت كل الميزات فى جانبه . كانت له الملكية ، والأمن ، والسلطة . . . كان فى الجانب الذى له القوة التى تستطيع أن تكتسح كل ما أمامها ! ولم يكن جائعاً ، ولا يائساً ، ولا كان يبدو عليه أنه خائف على الإطلاق . وكان براون يرى فى ملابس جيم الأنيقة من قبعته البيضاء ، إلى حذائه المدهون بالحجر الأبيض شيئاً من تلك الأشياء التى احتقرها ونبذها ، وهو يشكل حياته فى الصورة التى اختارها لها .

وأخيراً سأله جيم وهو يتحدث فى صوته العادى : « من أنت ؟ » فأجابه الآخر بصوت عال ، « إن اسمى براون . القبطان براون . وما اسمك أنت ؟ » وبعد لحظة سكون قصيرة ، استمر جيم فى حديثه وكأنه لم يسمع السـؤال ، قائلا ، « ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ » فأجابه براون فى مرارة ، « أنت تريد أن تعلم ؟ حسن فمن السهل على على إخبارك . إنه الجوع . وما الذى أتى بك أنت إلى هنا ؟ » .

وقال لى براون : « إن الفتي جفل من هذا السؤال » ، وهو يقص على كيف بدأت هذه المحادثة العجيبة بين هذين الرجلين اللذين لم يكن يفصلهما غير حوض ذلك النهير الملىء بالطين . وإن كانا فى الحقيقة يقفان عند قطبين متعارضين لمعنى الحياة التي تشمل البشرية جمعاء . وكرر لى ذلك قائلا ، « إن الفتى جفل من هذا السؤال ، واحمر وجهه احمراراً شديداً : ولعله كان يظن أنه أكبر من أن يوجه إليه

سؤال . وقلت له إنه إذا كان يعتبرنى رجلا ميتاً ، يستطيع أن يعاملة بهذا الاحتقار ، فإن حالته فى الحقيقة لا تختلف عن حالتى كثيراً ؛ وهناك رجل فى أعلى التل ، فى يده بندقية مصوبة إلية طول الوقت ، وهو لا ينتظر إلا إشارة مني لإطلاقها وليس فى هذا الإجراء مايوجب الدهشة والاشمئزاز . فلقد حضر إلى من تلقاء نفسه ، وقلت له ، دعنا نتفق أولا ، على أن كلا منا ميت . ولنتحدث طبقاً لهذا الغرض كرجلين متكافئين . فالناس كلهم يتساوون أمام الموت . واعترفت له بإن موقفى كان كالفأر فى المصيدة ، ولـكننا قد دفعنا دفعاً إلى ذلك الموقف . وحتي الفأر الذى فى المصيدة يستطيع أن يعض . فقال لى فى الحال ، «إنه لا يستطيع ذلك إذا كنت لا تقترب من المصيدة ، حتي يموت الفأر» . فقلت له إن هذه اللعبة قد تناسب أصدقاءه الوطنيين ، ولكني أظن أن بياض بشرته يمنعه حتي من معاملة الفأر بهذه المعاملة . نعم إننى كنت أريد أن أتحدث إليه . ولـكن لا لأطلب منه العفو عن حياتى . إن أصحابى هم حسن . هم ما هم . . . رجال مثله ، على أية حال ، إن كل مانطلبه هو أن يأتى إلينا باسم الشيطان ويعطينا فرصة للقتال . وقلت له وهو يقف ساكناً هناك كعمود من الخشب . «ياللعنة إنك لا تريد أن تحضر إلى هنا بمنظارك كل يوم يوم لتعد من بقى منا على قدميه . إن كل ما نريده هو إما أن تحضر رجالك للقتال ، وإما أن تتركنا نخرج لنموت جوعاً فى البحر الواسع . لقد كنت رجلا أبيض ذات مرة على الرغم من تشدقك بأن هؤلاء الناس هم أهلك ، وبأنك

واحد من صميمهم : أهذه هى الحقيقة ؟ وماذا تجني من وراء ذلك ، بحق الشيطان ؟ ما الذى وجدته هنا من الأشياء النفيسة ، لعلك لا تريدنا أن ننزل إليكم؟ هل تريد ذلك؟ إنكم مائتان ضد واحد بالنسبة إلينا. إنك لا تريدنا أن ننزل إليكم فى الأرض المكشوفة. آه ! إنى أعدك أننا سنعطيكم رياضة مجهدة، قبل أن تنتهوا منا. إنك تتحدث عن هجومى الذى يتسم بالجبن على هؤلاء الناس المسالمين . ولكن ماذا يعنيني أن كان هؤلاء الناس مسالمين ، وأنا أتضور جوعاً ، بسبب ارتكابى لذنب تافه يكاد ألا يكون ذنباً على الإطلاق . ولكننى لست جباناً . ولا تكن أنت أيضاً جباناً . أحضرهم إذن إلى هنا ، وإلا فقسما بكل شياطين الأرض ، فإننا سنستطيع أن نرسل نصف بلدتك المسالمة معنا إلى السماء فى هيئة دخان ! » :

ولقد كان فظيعاً وهو يقص على هذا . كان هيكلا عظمياً لرجل تكور ووجهه على ركبتيه ، وهو راقد على فراشه التعس ، فى ذلك الكوخ الحقير ، ثم رفع رأسه لينظر إلى نظرة خبيثة تعبر عن انتصاره. ثم استأنف حديثه مرة أخرى ، وكان يتحدث بضعف فى أول الأمر ، ولكنه جمع طاقته وانطلق فى سرعة غريبة لا تصدق فى كلماته الملتهبة التى تعبر عن احتقاره ، فقال : « كان هذا هو ما قلته له : كنت أعرف ما يجب أن أقوله . إننا لن نذهب إلى الغابة لتتجول فيها كخيط من الهياكل الحية ، وليتساقط أحدنا بعد الآخر ، طعاماً سائغاً للنمل لينهشنا حتى قبل أن نسلم الروح . كلا ! كلا ! ...» فقال

هو : « إنك لا تستحق مصيراً خيراً من هذا » فصرخت فى وجهه «وماذا تستحق أنت . أنت الذى تسالت إلى هنا مالئاً فمك بالحديث عن مسئوليتك ، وعن حياة الأبرياء ، وعن واجبك الجهنمى ، وماذا تعرف عنى أكثر مما أعرفه عنك ، إنني حضرت إلى هنا من أجل الطعام أتسمعني ، الطعام لنملأ بطوننا . ولكن ما الذى أتى بك أنت إلى هنا ، وماذا كنت تريد حين حضرت إلى هذه البقعة ، إننا لا نطلب منك شيئاً غير أن تقاتلنا ، أو تفسح لنا الطريق للرجوع من حيث جئنا . . . » فقال هو ، وهو يشد شاربه الصغير ؛ « إنني لا مانع عندى أن أقاتلك الآن » . فقلت له ، « أنا لا مانع عندى فى أن أدعك تطلق الرصاص على ، وإنى لأرحب بذلك : فهذا المكان يتساوى فى نظرى مع غيره كنقطة للانطلاق من هذا العالم . ولقد سئمت ذلك الحظ العاثر اللعين . ولكن ذلك سيكون اختياراً مني لأيسر الطرق . وماذا عن رجالى الذين يجلسون معى فى نفس القارب ، وقسماً بالله ، إنني لست من هذا الطراز من الرجال الذين يهربون من المتاعب تاركين أصحابهم فى مأزق لا نجاة لهم منه » فوقف لحظة يفكر ، ثم قال إنه يريد أن يعلم ماذا فعلت «هناك» كى أصل إلى هذه الحالة (وحين قال « هناك » ، أومأ برأسه فى اتجاه البحر) ، فسألته ، « هل تقابلنا كى يسرد أحدنا على الآخر قصة حياته ، إذا كان هذا ، إذن فلتبدأ أنت كلا ، حسن ، إنني أؤكد لك إننى لا أريد سماع هذه القصة . فلتبقها لنفسك . إنني أعلم انها ليست خيراً من قصتي . لقد عشت أنت أيضاً

رغما عنى أنك تتحدث وكأنك أحد هؤلاء الناس الذين يجب أن يكون لهم أجنحة ليسيروا فى الحياة دون أن يمسوا الأرض القذرة . حسن ، إنها قذرة حقاً . وأنا لا أملك أجنحة . إنني هنا لأن الخوف دخلنى مرة واحدة فى حياتى . أتريد أن تعرف مما كان هذا الخوف ؟ من السجن ، فالسجن يرعبني ، ولا بأس أن تعرف هذا . إن كان فيه منفعة لك . ولن أسألك عما أخافك ، حتى جئت إلى هذا الجحر اللعين حيث يظهر أنك قد عثرت على كثير من الطيبات . هذا حظك . . . وذلك حظى بأن يكون لدى الحظوة فى أن أرجوك ، أن تتكرم على برصاصة عاجلة ، وإلا فبرفسة تطلق بها سراحى ، كى أموت جوعاً بالطريقة التى أختارها . . . »

وكان جسده الضعيف يهتز كله فى فرحة عنيفة ، واثقة من نفسها ، وخبيثة إلى حد يظهر أنها قد استطاعت معه أن تبعد عنه شبح الموت ، الذى كان يقف منتظراً إلى جانبه فى ذلك الكوخ . وكانت جثة « نرجسيته » المجنونة ، ترتفع من خرقه المهلهلة ، وحالة اليأس التى كان فيها ، وكأنما ترتفع من ظلام القبر المروع . وكان من المستحيل على أن أعرف كم كذب على جيم حينذاك ، وكم كذب على الآن ، وكم كذب على نفسه دائماً : إن للغرور حيلا خادعة ، يلعب بها على ذاكرتنا ، وأى صدق ، أى انفعال عاطفى لنا يحتاج إلى شىء من التصنع ليجعله يعيش . وكان وهو يقف على باب الدار الآخــرة

متنكراً فى زى شحاذ قد صفع وجه الدنيا ، وبصق عليها ، وقذف على الدنيا أعماله الشريرة بكل ما كان وراءها من احتقار وثورة . ولقد تغلب على الجميع رجالا ونســاء ، ومتوحشين ، وتجاراً ، وأوغاداً ومبشرين . وقد تغلب على جيم أيضاً ذلك الشحاذ ذو الوجه المليء ولم أستكثر عليه ذلك الشعور بالانتصار وهو فى سكرات الموت ، ذلك الوهم الذى كاد أن يكون من أوهام بعد الموت بأنه قد سحق الدنيا بما فيها تحت قدميه . وحين كان يفتخر أمامى وهو فى هــذه الحالة من العـذاب الذى كانت تتقاص له قسمات وجهه فى صـورة قبيحة منفرة ، لم أتمالك نفسي من التفكير فى تلك القصـة الضاحكة ، عن مغامرته العاطفية ، وهو فى أوج عظمته والتى استمرت حوالى عام كانت ترى فيه سفينته «جنتلمان براون» لأيام متصلة ، وهى تحوم حول تلك الجزيرة الصغيرة التى كانت تحف بها الخضرة على زرقة البحر اللازوردية ، وفيها تلك النقطة الداكنة - على الشاطىء الأبيض - التى كانت مقر بعثة التبشير . بينما كان « جنتلمان براون » نفسه يقيم على الشاطىء ، وهو ينصب شباكه حول تلك الفتاة العاطفية ، التي وجدت فى ميلانيزيا بلاداً لا طاقة لها بها ، ويمد لزوجها حبال الأمل فى تحوله الروحى الفريد فى نوعه : والقصة تقول إن ذلك الرجل كان قد سمع ذات مرة وهو يقول إنه ينوى أن يكسب «جنتلمان براون» إلى عداد الصالحين وإلى طريقة فى الحياة تكون خيراً من طريقته » وقد قال أحد الخبثاء عن ذلك « إنه كان يريد أن يضمه إلى مجد الله فى العلا كى يتيح فرصة لمن فى السماء فى أن

يلقوا نظرة على أحد قباطنة السفن التجارية فى غرب المحيط الهادى، ... وكان براون هذا ، هو الرجل الذى هرب مع امرأة على فراش الموت ، ثم سفك الدمع على جسدها حين أسلمت الروح ... وكان ضابطه الأول فى تلك الحقبة لا يمل من تكرير قوله ، «إنه استمر يبكى ويولول كأنه طفل كبير . ولكن أين كانت المتعة فى تلك الفعلة ، ليخطفنى الموت ، عن طريق العدوى بأحد تلك الأمراض الفتاكة المنتشرة فى جزر الهاواى ، إن كنت أدرى ! »

والغريب - أيها السادة - أن المرض كان قد وصل بها حين أحضرها معه إلى حد أنها لم تكن تتعرف عليه ! فكانت ترقد على ظهرها فى فراشه وهى تحدق إلى السقف فى بريق غريب . وبعد ذلك ماتت إنها كانت حمى خبيثة لعينة - على ما أظن ...

[وتذكرت كل ذلك ، وهو يمسح على إلياف ذقنه بيد زرقاء ويقول لى «من فوق فراشه ذى الضوضاء» ، إنه دار حول ذلك الفتى المتعالى المتأنق ، الذى كان لسان حاله يقول « لا تلمسني » ، وإنه دخل عليه وأطبق عليه . واعترف لى أنه لم يستطع أن يخيفه ولكنه قال إنه كان هناك طريق ، طريق واسع ملىء بالأشواك ، استطاع أن يدخل إليه منه ، ويهز روحه التي لم تكن تساوى بنسين ويدور بها ويقلبها ظاهراً لباطن ، وعالياً لسافل بحق السماء ، »

الفصل الثانى والأربعون

ولعله بتكوينه : لم يكن فى وسعه أكثر من أن ينظر إلى ذلك الطريق المستقيم أو حتى أن يفهمه . ويظهر أنه كان نتيجة لذلك فى حيرة مما رأى . لأنه قطع حديثه أكثر من مرة ليقول متعجباً : « إنه كاد يفلت منى هناك . ولم أستطع أن أفهمه : أتستطيع أن تخبرنى أى نوع من الرجال هو ؟ » ثم كان يستأنف حديثه بعد أن يحدق فى بنظرة حائرة مظهراً سروره [وشماتته : فى تهكمه ... وإن حديث هذين الرجلين عبر النهير ليبدو لى الآن كنوع قتال من النزال بينهما : كان القدر يطل عليه فى برود العالم بنتيجته مقدماً ؛ ولكنه لم يقلب روح جيم كما قال - ظهراً لبطن . ولكنى فى الوقت نفسه أكون قد جانبت الصواب إلى حد كبير إن لم تكن تلك الروح التي لاشك فى أنها كانت بعيدة عن متناول يده بعداً كبيراً قد تجرعت كأس هذا الصراع المرير بينهما حتى الثمالة : فلقد كان هؤلاء الرجال هم رسل ذلك العالم الذى هجره وزهد فيه ، وقد جاءوا لمطاردته فى مكان عزلته : كانوا الرجال البيض « من هناك فى الخارج » حيث ظن أنه غير كفء للعيش ، وكان ذلك هو كل ماجاءه من هناك : وكان تهديدا وصدمة . وخطرا على ما بناه . وأظنه كان هذا الشعور الحزين الذى كان نصفه غضباً ، ونصفه استسلاماً ، والذى كان ينفذ

من خلال كلمات جيم القليلة التي يتفوه بها بين حين وآخر : هو الذى حير براون كثيراً ، وهو يحاول التعرف على طبيعته. ومن المعروف أن بعض عظماء الرجال يدينون بالجزء الأكبر من عظمتهم لقدرتهم على التعرف فى طبيعة من يسخرونهم - كوسيلة للبلوغ إلى أغراضهم - على المميزات المحددة لقوتهم فيما يحتاجون إليه لإنهاء أعمالهم . وكان براون وكأنه أحد أولئك العظماء له هذه الملكة الشيطانية فى اكتشاف أقوى وأضعف النقاط فى فرائسه ؛ ولقد اعترف لى ، بأن جيم لم يكن من أولئك الذين يمكن اجتذابهم بالتذلل إليهم ، ولذلك فقد بذل جهداً فى إظهار نفسه كرجل يواجه حظه العاثر ، ويواجه إدانته ، ويواجه الكوارث التي تحل به دون وجل . فقال لجيم إن تهريب بعض مدافع ، لا يعتبر جريمة كبيرة . أما عن حضوره إلى باتوزان فمن ذا الذى يستطيع أن يقول بصيغة الجزم إنه لم يحضر إليها فى طلب صدقة ؟ فالسكان الملعونون هنا ، أطلقوا نيرانهم عليه من الضفتين ، دون أن يتريثوا ليسألوه أى سؤال . وكان قوله هذا صفاقة زادت عن الحد لأن الحقيقة هى أن إجراء دين واريس الحاسم كان قد جنب باتوزان أعظم الكوارث ، لأن براون قال لى فى وضوح إنه حين أدرك سعة المكان ، كان قد عقد العزم فى التو واللحظة على إشعال النيران فى كل مكان ، وإطلاق الرصاص على كل كائن حى فى مجال بصره ليستطيع إدخال الجبن والفزع فى قلوب السكان لأن انعدام التناسب فى القوى كان كبيراً إلى حد جعل ذلك هو الطريقة

الوحيدة ؛ التى تعطيه الحد الأدنى من فرصة الوصول إلى مأربه :
وكان هذا هو رأيه الذى أدلى لى به بين نوبات السعال التى كانت تنتابه . ولكنه لم يصرح بذلك لجيم .. أما عن الشدائد والجوع الذى تعرضوا له ، فقد كان ذلك حقيقة لاتنكر . وكان يكفى لإثباتها مجرد النظر إلى رفاقه ثم نفخ فى صفارته ، فوقف رجاله صفاً واحداً على الأشجار المقطوعة فى مكان ظاهر ليستطيع جيم أن يراهم. أما عن قتل الرجل ، فإنه لاينكر ارتكابه لهذا الفعل . ولكن ألم يكن ذلك حرباً ، حرباً دامية فى ذلك الركن من العالم ؟ ثم إن الرجل قد قتل بطريقة لاقسوة فيها . فلقد أصيب فى صدره ، وليس بالطريقة التى قتل به رجله هو الذى يرقد هناك الآن فى النهير . فلقد اضطروا للإصغاء إلى أنينه وهو يموت لمدة ست ساعات وقد تمزقت مصارينه بالرصاص. وعلى كل حال فإن ذلك يسوى مابينهم من حساب ، فهى حياة ضد حياة ، وواحدة بواحدة .. وكان ذلك يقال فى سأم وعدم اكتراث كرجل ألهب ظهره الحظ السيء بالسياط ، حتى لم يعد يحفل إلى أين يقوده المصير . وحين سأل جيم بنوع من الصراحة التى فيها شجاعة اليأس عما إذا كان لايستطيع أن يفهم وهو يسير الآن فى طريقه المستقيم : أنه « حين يتطلب الأمر أن ينقذ المرء حياته فى الظلام ، فإنه لايحفل كثيراً بعدد من يضحى بهم فى سبيل ذلك ، وأنه يكون سواء لديه ان كانوا ثلاثة أو ثلاثين أو ثلاثمائة » وكان وهو يتحدث إليه ، كأنه الشيطان يهمس بالسم فى أذنه : وقال لى

براون مفتخراً ، « لقد جعلته يخجل » ويترك فى الحال دور الرجل الصالح الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الذى كان يلعبه على : فوقف هناك ، لا ينطق ببنت شفة ، وقد تجهم وجهه بالغضب كالعاصفة ،وهو ينظر لا إلى ،بل إلى الأرض» . وسأل جيم إن كان لا يتذكر شيئاً يستحي منه فى حياته ، حتى يصبح قاسياً إلى هذا الحد فى حكمه على رجل يحاول أن ينتشل نفسه من الهاوية التى وقع فيها ، بأية وسيلة يجدها فى متناول يده .. وهكذا . وكان يسرى فى هذا الحديث الخشن ، تيار رقيق مقنع كأنه السم البطىء ، يومىء إلى ما بينهما من صلة الدم ، وإلى ما قد يفترض من التجارب المماثلة ، وإلى التلميح المقزز بالذنب المشترك ، وإلى معرفة كل منهما بسر فى حياته يمكن اعتباره رابطة بين عقليهما وقلبيهما .

وأخيراً رمى براون بطوله على الأرض وأخذ يرقب جيم من طرف عينيه . وظل جيم واقفاً فى جانبه من النهير يفكر ويضرب على رجله بفرع شجرة رفيع . وكانت البيوت التى على مرمى البصر ، ساكنة كأن وباء قد كنس كل نفس للحياة فيها كنساً . ولكن عيوناً كثيرة غير مرئية ، كانت ترقبهما من داخل هذه البيوت وهما يقفان وبينهما النهير ، والقارب الأبيض المغروز فى القاع ، وجثة الرجل الثالث أيضاً التى اختفى نصفها فى الطين . وكانت القوارب قد بدأت حركتها فى النهر من جديد . لأن باتوزان كانت قد استعادت ثقتها فى استقرار

أسس الحكم فيها ، منذ عودة اللورد الأبيض : وكانت الضفة اليمنى وشرفات المنازل ، والقوارب المسطحة المصنوعة من جذوع الأشجار المربوطة على الشواطئ ، وحتى أسطح الأكواخ التى يستحم فيها أهل القرية كانت كلها مغطاة بالناس وهم يقفون بعيدا عن مدى السمع ، وربما عن مدى البصر أيضاً ، ويجهدون أعينهم بالنظر إلى قمة التل الذى يقع وراء معسكر الراجا . وكان السكون يخيم على تلك الحلقة الواسعة من الغابات ، التى كان يخترقها النهر بلمعته الفضية فى مكانين. وسأل جيم ، «هل تعد بمغادرة الساحل ؟ » فرفع براون يده واسقطها كأنه استسلم لحتمية القدر :وتنازل عن كل ما كان يساوره من الأطماع واستمر جيم فى حديثه قائلا ، « وتسلم سلاحك ؟ » فجاس براون على الأرض محدقاً فيه عبر النهير ، وقال « نسلم سلاحنا ! إن ذلك لن يكون قبل أن تحضروا لتأخذوه غصباً من أيدينا التى تيبست عليه . هل تظن أننى جننت من الفزع ؟ كلا ، كلا ! إن ذلك السلاح ، وهذه الخرق التى أرتديها ، هى كل ما أملك فى هذا العالم : إلى جانب بعض البنادق التى تعبأ بالبارود على سطح السفينة . وأملى أن أبيع كل ذلك فى مدغشقر ، إن قدر لى الوصول سالماً إلى هناك : وأنا أعيش على الإحسان من سفينة إلى سفينة » .

ولم يعلق جيم بشىء على كلام براون . وقال أخيراً ،وكأنه يحدث نفسه ، وهو يرمى بفرع الشجرة الذى فى يده إلى الأرض ، « إننى

لا أعلم إن كانت لى القدرة على ذلك » . فصاح براون ، « أنت لاتعلم ! وكنت تريدنى فى هذه اللحظة أن أسلم لك سلاحى! إن ذلك بديع حقاً . وماذا سيحدث إن فرضنا أنهم قالوا لك شيئاً ، وصنعوا بى شيئاً آخر » . ثم قال فى هدوء ظاهر ، « إنى أظن أن لديك السلطة الكافية وإلا فما معنى كل هذا الحديث ؟ وما الذى دفعك إلى الحضور إلى هنا إذن ؟ أكان ذلك لقضاء الوقت فقط ؟ .

فقال جيم ، وهو يرفع رأسه فجأة بعد فترة صمت طويل ، « حسن ، سنعطيك إحدى الفرصتين؛ إما السير فى طريقك إلى خارج البلاد ، وإما القتال . » ثم استدار على عقبيه وغادر المكان .

فنهض براون فى الحال ، ولكنه لم يصعد إلى قمة التل، حتى رأى جيم يغيب عن نظره ، بين البيوت الأولى . ولم يقع نظره عليه بعد بعد ذلك أبدا . وقابل كورنيليوس فى رجوعه وقد انحنى على نفسه حتى تدلى رأسه من بين كتفيه . ووقف أمام براون وهو يسأله فى صوت غاضب مرير « لماذا لم تقتله ؟ فأجابه براون وعلى فمه ابتسامة ، بعثها إلى فمه ما رآه من مظهره وانفعاله : « لأنى أستطيع أن أفعل خيراً من هذا . »

فقال كورنيليوس فى حماسة عنيفة ، « أبدا ! أبدا ! إنك لن تستطيع ذلك . إنني أعرف ما أقول، لأنى عشت فى هذه البلاد حقبة طويلة » . فنظر إليه بروان متعجباً . لقد كان هنالك فى هذا المكان

جوانب متعددة للحياة ، كانت كلها تعمل ضده وكانت كلها أشياء غامضة ، يتعذر عليه سبر غورها . وتسلل كورنيليوس بعيدا عنه ؛ وهو فى كرب من أمره ، فى اتجاه النهر . وكان يترك الآن أصدقاءه الجدد متقبلا خيبة الأمل فى سير الأحداث،فى عناد غاضب جعل وجهه الصغير الأصفر العجوز ، ينكمش على ما يظهر ؛ إلى حجم أصغر . وكان وهو يهبط التل يتطلع يمنة ويسرة فى ترقب ، مستمسكاً دائما بالفكرة الثابتة المتسلطة عليه .

وكانت الحوادث منذ تلك اللحظة تمر فى طريقها سراعاً ، دون عائق،وهى تفيض من قلوب الرجال كأنها مجرى ماء يفيض من ينبوع مظلم . وسنرى جيم أكثر مانراه وسط تلك الحوادث ، من خلال عينى تامب إيتام ، وكانت عينا الفتاة ترقبه أيضاً ، ولكن حياتها كانت مشتبكة مع حياته إلى حد كبير بحيث لايسمح لها بالرؤية الصافية . فكان يعتمل فى صدرها عاطفتها المشبوبة،ودهشتها ،وغضبها وفوق ذلك جميعا خوفها وحبها الذى لايعرف الغفران . أما الخادم المخلص الذى عجز عن الفهم ، كغيره من الناس فإن إخلاصه فقط كان هو العنصر الوحيد الذى يسيطر عليه. . . ولقد بلغ إخلاصه ، واعتقاده فى سيده حداً من الشدة ، حول دهشته البالغة إلى استسلام حزين لما فسره لنفسه بأنه فشل غامض ،استعصى عليه فهم أسبابه : وكانت عيناه مثبتتين على رجل واحد فقط،وكان خلال كل مااعتراه

من حيرة، بلغت فى تعقيدها كل مبلغ يحتفظ بمظهر الوصاية والطاعة والعناية بسيده :

ورجع سيده من حديثه مع الرجال البيض ، وهو يمشى ببطء فى اتجاه المتاريس التى أقيمت فى الشارع. ولقد فرح الجميع برؤيته عائداً إليهم ، لأن الخوف كان يساور كلا منهم خلال غيبته، لا على سلامته فقط ، ولكن مما كان سيعقب قتله من أحداث. ودخل جيم إلى أحد البيوت ، حيث كان دورامين يجلس مختلياً بنفسه ؛ وانفرد هناك وقتاً طويلا مع رئيس البوجيز المهاجرين : ولا شك فى أنه ناقشه فى الطريق الذى سيتبعه، ولكن أحداً لم يكن معهما ليسمع مادار بينهما من حديث ولكن تامب إيتام فقط، وكان قريباً ما استطاع من باب الحجرة التى كانا فيها ، سمع سيده يقول ، « نعم : إنى سأدع الناس جميعاً يعرفون أن هذه رغبتى : ولكنى قد تحدثت معك منفرداً يادورامين وقبل أن أتحدث مع أحد من الآخرين لأنك تعرف مافى قلبي ، وأنا أعرف مافى قلبك ، وأعرف الأمنية الكبيرة التى يحتويها . ثم إنك تعرف جيداً أنه لافكرة عندى فى هذه الدنيا إلا مصلحة أهل هـذه البلاد وخيرهم : » ثم رفع سيده ستار الباب وخرج ، واستطاع تامب إيتام حينئذ أن يلقى نظرة على دورامين العجوز فى الداخل ، جالساً على مقعده ، ويداه على ركبتيه وهو ينظر إلى قدميه. وبعد ذلك تبع سيده إلى الحصن، حيث كان قد دعى إليه للحديث مع جميع الشخصيات المهمة من البوجيز وأهل باتوزان : وكان تامب إيتام نفسه يأمل

فى حدوث قتال ، فقد قال بشىء من الندم : « إن ذلك ما كان سيكون أكثر من اقتحام تل آخر » ؛ ولكن الكثيرين من سكان المدينة كانوا يأملون فى انسحاب هؤلاء اللصوص الغرباء لمجرد رؤيتهم لهذا العدد الكبير من الرجال الشجعان ، وهم يستعدون لمقاتلتهم : إن انسحابهم سيكون حلا موفقاً لهذه المشكلة . وكان الخوف المطلق على باتوزان ، قد قصم ظهره ؛ وخف أثره منذ اللحظة التى أعلن فيها عن وصول جيم ، قبل طلوع النهار بإطلاق مدفع الحصن ؛ وقرع الطبلة الكبيرة هناك كما تنكسر الموجة على الصخرة ، ولم يبق له من أثر غير زبد المشاعر الثائرة ، وحب الاستطلاع ، والتخمينات التى لاتنتهى . وكان نصف السكان قد أخرجوا من بيوتهم لأغراض الدفاع ،وكانوا يعيشون فى الشارع على الضفة اليسرى للنهر ،مزدحمين حول الحصن ؛ وهم يتوقعون أن يروا بين لحظة وأخرى مساكنهم المهجورة على الشاطىء الآخر المهدد ؛ وقد اشتعلت فيها النيران . وكان قلقهم الشديد يولد فيهم الرغبة الملحة فى إيجاد حل سريع لهذه المسألة ... وكان الطعام بفضل عناية جوهرة يوزع من الحصن على اللاجئين ولم يكن أحد منهم يدرى ماينوى أن يفعله رجلهم الأبيض . وأبدى أحدهم ملاحظة بأن هذه الأزمة كانت أسوأ من الحرب مع الشريف على ، فحينذاك كان كثيرون منهم لايهتمون بالأمر ،أما الآن فكان كل منهم معرضاً لخسارة محققة . وكانت حركة القوارب التى تمر جيئة وذهاباً ،بين شقى المدينة تراقب باهتمام . وكان

قاربان من قوارب الحرب التى تخص البوجيز ، راسيين فى وسط المجرى لحماية النهر وقد تصاعد خيط من الدخان فى مقدمة كل منهما حيث كان الرجال فيهما يطهون وجبة غذائهم من الأرز حين عبر جيم النهر بعد حديثه مع براون ودورامين ليدخل إلى حصنه من بوابته المائية : فازدحم الناس داخل الحصن حوله حتى كاد يتعذر عليه الوصول إلى بيته . ولم يكونوا قد رأوه قبل ذلك ، حيث إنه عند وصوله فى أثناء الليل لم يمكث إلا لحظات تبادل فيها بضع كلمات مع زوجته، التى هبطت إلى مرسى القوارب أمام الحصن لهذا الغرض ثم غادرها فى الحال ليلحق برؤساء العشائر والرجال المقاتلين فى الضفة الأخرى . . . . وهتف المجتمعون هناك تحية له . وأثار إحدى العجائز ضحك الناس ، حين شقت طريقها إلى الأمام فى حزن ، وهى تحذره فى صوت كوقع السياط ، فى أن يرى بنفسه أن ولديها اللذين كانا مع دورامين ، لا يصيبهما أى سوء على أيدى اللصوص . ولقد حاول كثير من الحاضرين أن يشدوها بعيدا عنه ، ولكنها أخذت تقاوم وتصيح : « اتركونى ، ماهذا أيها المسلمون ؟ إن فى هذا الضحك خروجاً على اللياقة ، أليسوا لصوصا قساة ظامئين إلى الدماء والقتل ؟ » فقال جيم « اتركوها » وحين ساد السكون فجأة ، قال فى بطء ، « إنكم ستكونون جميعا فى أمان . » ودخل إلى البيت قبل أن تخوت التنهيدة الكبيرة ، والهمهمة العالية للشعور بالارتياح، على الشفاه

ولم يكن هناك شك فى أنه كان قد عقد العزم على أن يدع براون يمر

فى سلام عائداً إلى البحر : ويظهر أن قدره كان يجبره على السير فى طريق معين حين ثار عليه : ولأول مرة وجد نفسه مضطراً لتأكيد إرادته فى وجه معارضة صريحة : وقد قال لى تامب إيتام : « إنه كان هناك كلام كثير ، وكان سيدى يجلس صامتاً فى أول الأمر : ثم حل الظلام ، فأنرت الشموع على المائدة الطويلة : وكان الزعماء يجلسون على جانبى المائدة ؛ وكانت سيدتى تجلس إلى يمين سيدى »

وحين بدأ يتكلم ، يظهر أن هذه الصعوبة التى لم يتعود عليها ، كانت قد زادته ثباتاً على رأيه ، وتصميماً على ألا يتحول عنه قيد أنملة وكان الرجال البيض ينتظرون جوابه فى هذه اللحظة على التل : وقد تحدث زعيمهم إليه ، فى لغة بلاده موضحاً الكثير من الأشياء التى يصعب تفسيرها بأية لغة أخرى . وكان هؤلاء ، رجالا من الخطاة الذين أعماهم العذاب عن التفريق بين الخير والشر : وإنه لصحيح أننا قد فقدنا بضعة أنفس إلى الآن ، ولكن لماذا نعرض غيرها للهلاك وأعلن إلى سامعيه ، وكانوا رؤساء العشائر فى البلاد ، إنه يعتبر خيرهم خيره ، وخسارتهم خسارته ، وحزنهم حزنه : ونظر حوله إلى الوجوه الجادة المصغية ، وطلب منهم أن يذكروا أنهم حاربوا وعملوا جنباً إلى جنب ، وأنهم يعرفون شجاعته : : : (هنا قطع عليه حديثه همهمة منهم) : : . وأنه لم يسبق له أن خدعهم أبداً : وأنهم عاشوا معاً أعواماً كثيرة ، وأنه قد أحب الأرض وسكانها حباً كبيراً ، وأنه مستعد أن يجعل نفسه مسئولا بحياته عن كل ما قد يصيبهم من ضرر

حين يصرح الرجال البيض ذوى اللحى بالانسحاب : إنهم رجاله أحرار . ولكن مصيرهم كان شراً أيضاً . ثم هل سبق له أن نصحهم بغير الحق ؟ هل سبق له أن قال شيئاً ، جلب عليهم العذاب ؟ إنه يعتقد أن من الخير أن يترك هؤلاء البيض ومن يلوذ بهم أحياء ، وستكون تلك عطية صغيرة ، « وأنا الذى جربتموه ووجدتموه صادقاً دائماً : أطلب منكم أن تتركوهم يذهبون » ثم التفت إلى دورامين . ولكن الرجل العجوز . من قبيلة الناخوضا لم يبد أية حركة . فقال جيم : « إذن ، أدع دين واريس ولدك ، وصديقى ، لأننى لن أكون قائدكم فيما يتعلق بهذه المسألة . »

الفصل الثالث والأربعون

وأحس تام بـ ايتام، وهو يقف خلف مقعده وكأن صاعقة قد أصابته وكان لإعلان القرار تأثير مثير جداً في الاجتماع : فلقد قال جيمي في تصميم للمجتمعين ، « دعوهم يذهبون فهذا هو خير حل في رأيي وأنا لم يسبق لي أن خدعتكم من قبل » فساد السكون . وكان يصل إلى مسامعهم من الظلام في فناء الحصن همس مكبوت، وضوضاء أقدام أناس كثيرين ، ورفع دورامين رأسه الثقيل ، وقال إن قراءة ما في القلوب هو كلمس السماء باليد كلاهما مستحيل ، ولكنه وافق على الاقتراح : وأعطى الحاضرون أصواتهم بالدور قائلين ، نعم إنه من الخير » ، أو ، « دعوهم يرحلون . » أو كلمات بهذا المعنى : . ولكن أغلبهم اكتفى بقوله ، « إني أثق في لورد جيم » .

ولقد كان لب المسألة كله ، في هذه الطريقة البسيطة التي وافقوه بها على ما يريد، يكمن في عقيدتهم ، وفي صدقه ، وفي تلك الشهادة بإخلاصه التي جعلته في عيني نفسه نداً للرجال الذين لا يمكن أن يرتكبوا خطيئة أو عمل سوء ، ولا يمكن أن يتخلفوا عن الصفوف . . . ويخيل إلى أن كلمات شتاين ، وهو يقول : « خيالي ! خيالي ! » كانت تدوي في فضاء هذه المساحات الشاسعة ، التي لن تسلمه الآن

أبداً إلى عالم لا يكترث بسيئاته ولا بحسناته ، ولا لى إذلك الحب الجارف الذى لا فكاك منه، الذى رفض أن يبذل له صدقة الدموع في حيرة الحزن القاتل والفراق الأبدى : ومنذ اللحظة التي ينتصر فيها فى ذلك اليوم صدقه الخالص فى السنوات الثلاث الأخيرة من حياته على الجهل والخوف وغضب الرجال ، فإنه لا يبدو لى كما رأيته آخر مرة نقطة بيضاء تجمع حولها كل ما بقى من ضوء خافت على ساحل معتم وبحر مظلم : ولكنه يبدو لى أعظم من ذلك ، وأدعى إلى الرثاء ، فى وحدة روحه ، التي تظل حتى فى عينى من أحبته ذلك الحب العظيم لغزاً قاسياً غير قابل للحل :

ومن الواضح أنه كان لا يشك فى صدق براون : فلم يكن هناك ما يدعو للشك فى قصته التي كان يبعث على تصديقها صراحته الخشنة، وذلك النوع من الصدق المتسم بالرجولة والذى يسلم بحكم قانون الأخلاق على أفعاله ، ويسلم أيضاً بالجزاء عليها : ولكن جيم كان يجهل أنانية الرجل التي لا يكاد المرء يتصورها ؛ والتي تجعله حين مقاومته والوقوف فى طريق إرادته مجنوناً بما يسيطر عليه من الغضب والرغبة فى الانتقام وكأنه حاكم مطلق سد عليه الطريق : ولكن جيم إن كان لا يشك فى براون فقد كان قلقاً من احتمال حدوث أى سوء تفاهم يمكن أن ينتهى بالصدام وإسالة الدماء . ولهذا السبب ، فبمجرد أن خرج زعماء الملايو ، طلب من جوهرة أن تعد له شيئاً من الطعام ، لأنه كان سيخرج من الحصن للاضطلاع بالقيادة فى المدينة

وحين راجعته فى ذلك ، قائلة إنه فى شدة الحاجة إلى الراحة ، قال لها إنه إن لم يذهب إلى هناك ، فقد يحدث شيء لا يستطيع أن يغفر لنفسه حدوثه : ثم أضاف قائلا : « إنني مسئول عن حياة كل شخص فى هذه الأرض . » وكان فى حالة عصبية فى أول الأمر ، فقامت بنفسها على خدمته ، وهى تأخذ الأطباق والصحاف (التى أهداها له شتاين) من يدى تامب إيتام : ولكن أساريره انفرجت بعد حين ، وأخبرها أنها ستظل قائدة الحصن لليلة أخرى : ثم قال : « إننا لن نستطيع النوم ، يا بنيتي العجوز حين يكون شعبنا فى خطر : » وقال بعد ذلك وهو يمزح إنها خير رجل فى هذا الجمع ، « فلو نفذت أنت ودين واريس ما كنتما تريدان ، لما ظل واحد من هؤلاء الشياطين التعساء ، على قيد الحياة الآن : » فقالت وهى تسند ذراعيها على مقعده : « هل هم حقيقة على هذه الغاية من السوء؟ » فقال بعد شيء من التردد : « إن الرجال كثيراً ما يسلكون طريق الشر فى بعض الأحيان ، دون أن يكونوا شراً من غيرهم : »

وتبع تامب إيتام سيده إلى مرسى القوارب خارج الحصن وكانت الليلة صافية ، وإن كان القمر مفتقداً . وكان وسط المجرى مظلماً ، بينما كانت المياه عند الضفتين ، تعكس أضواء نيران كثيرة « كما لو كانت إحدى ليالى رمضان » ، كما قال تامب إيتام ، وكانت قوارب الحرب تمر فى سكون على المجرى المعتم ، أو تطفو فى مراسيها بلا

حراك ، على الأمواج الصغيرة التي يحركها النسيم : وفى تلك الليلة قام تامب إيتام بكثير من التجديف والمشى ، فى عقبى سيده : فظلا يذرعان الشارع جيئة وذهاباً ، حيث كانت النيران تشتعل ، ثم مشيا إلى الداخل فى مشارف المدينة ، حيث كانت هناك جماعات صغيرة من الرجال تقوم على حراسة المنزل : وكان نوان جيم يصدر أوامره ، ويطاع ، وأخيراً ذهبا إلى معسكر الراجا الذى كان يحتله فريق من رجال جيم فى تلك الليلة . وكان الراجا قد هرب مبكراً فى الصباح ، مع أغلب نسائه إلى بيت صغير كان يملكه فى إحدى قرى الغابات ، التي تقع على رافد من روافد النهر : وكان قاسم الذى تركه وراءه قد حضر مجلس الحرب ، مثيراً حول نفسه ، جواً من الحركة الدائبة للسهر على مصلحة لبلاد ، ليشرح للحاضرين الأسباب الوجيهة لسياسته فى اتصاله بالرجال البيض فى اليوم السابق . ولم يكن سعيداً بصحبة أعضاء هذا المجلس ، ولكنه نجح فى الاحتفاظ بابتسامته ، وانتباهه الهادئ ، وأعلن عن فرحته العظيمة حين أخبره جيم ، فى شيء من الصرامة ، بنيته فى احتلال المعسكر فى تلك الليلة برجاله ، وحين انفض المجلس كان يسمع وهو يخاطب هذا أو ذاك من الزعماء الخارجين بصوت عال ولهجة تنم عن الرضى ، بأن ممتلكات الراجا متحمى ويدافع عنها فى غيبته :

فدخل إلى معسكر الراجا حوالى عشرة من رجال جيم . وكان

مدفع المعسكر يتحكم فى مدخل النهير ، وكان جيم ينوى أن يظل هناك حتى يمر براون أمامه فى طريقه إلى البحر . وكانت هناك نار صغيرة قد أشعلت فى ربوة عالية مغطاة بالحشائش ، خارج سور المعسكر المصنوع من الركائز الخشبية . وإلى جانب هذه النار ، وضع تامب إيتام كرسياً صغيراً من كراسى الشواطىء التى يمكن حملها وطيها ليستريح عليه سيده . وقال له جيم فلنحاول أن ننام . فأحضر تامب إيتام حصيرة ، ورقد عليها على مسافة قريبة من جيم ، ولكنه لم يستطع النوم ، رغماً من أنه كان عليه القيام برحلة مهمة قبل طلوع النهار . وكان سيده يتمشى جيئة وذهاباً أمام النار مطأطئاً رأسه ويداه وراء ظهره ؛ وكان وجهه حزيناً . وكان تامب إيتام يتصنع النوم كلما اقترب منه سيده ؛ لأنه كان لا يريده أن يعلم أنه يراقبه . وأخيراً وقف سيده إلى جانبه ؛ وهو يرقبه وهو راقد ؛ ثم قال بصوت خفيض : « لقد حان الوقت »

فنهض تامب إيتام بمجرد أن سمعه ، وبدأ فى تجهيز نفسه للرحلة ، وكانت مهمته هى أن يسير فى النهر مع التيار سابقاً قارب براون بساعة أو أكثر ، ليخبر دين واريس بقرار المجلس النهائى الرسمى . بالسماح للرجال البيض بالمرور فى أمان . ولم يكن جيم ليثق بأن يعهد لأى رجل آخر بهذه المهمة . وقبل أن يرحل تامب إيتام . سأل جيم كمسألة شكلية فقط « لأن منزلته عند جيم جعلته معروفاً عند الجميع » ؛ أن يعطيه أمارة وقال له : « إنى أطلب ذلك لخطورة الرسالة يا سيدى ، ولأنى سأحمل إليه كلماتك ذاتها ، دون أن أغير منها حرفاً واحداً » .

ووضع سيده يده فى أحد جيوبه ثم فى جيب آخر ، وأخيراً خلع خاتم شتاين الفضى من سبابته ، حيث كان يضعه عادة ، وأعطاه لتامب إيتام : وحين رحل تامب إيتام لتنفيذ مهمته ، كان معسكر براون على قمة التل مظلماً ، إلا من ضوء قبس صغير كان يظهر من خلال فروع إحدى الأشجار ، التى قطعها الرجال البيض . وكان براون قد تسلم قبل ذلك فى المساء ورقة مطوية من جيم ، كتب فيها ، «إن الطريق مفتوح أمامك : وعليك أن تبدأ رحلتك فى اللحظة التى يطفو فيها قاربك على موجة المد فى الصباح : وعليك أن تخبر رجالك بأن يكونوا على حذر من ارتكاب أى خطأ، فالشجيرات على ضفتى النهير، والمعسكر عند مصبه، مليئة بالرجال المسلحين جيداً : ولن يكون أمامك أية فرصة ، وإن كنت أعتقد أنك لا ترغب فى إسالة الدماء» : قرأها براون ثم مزقها إلى قطع صغيرة ، والتفت إلى كورنيليوس الذى أحضرها ، وقال فى سخرية « الوداع ، يا صديقى الممتاز » : وكان كورنيليوس فى الحصن متسللا حول بيت جيم فى أثناء عصر ذلك اليوم : وقد اختاره جيم لإيصال هذه الرسالة لأنه يعرف الإنجليزية ، ولأنه معروف لبراون : ولأنه لم يكن من المحتمل أن يطلق عليه أحد الرجال الذين فقدوا أعصابهم النار : كما كان من الجائز أن يحدث، إن اقترب منهم أحد رجال الملايو فى الغسق :

ولكن كورنيليوس لم يغادر المعسكر بعد أن أسلم الرسالة : وكان براون يجلس أمام نار صغيرة . أما الآخرون فكانوا جميعاً رقوداً

فهمهم كورنيليوس فى غضب قائلا ، « إنى أستطيع أن أخبرك بشيء تود معرفته»: فلم يلق إليه براون أذناً صاغية . ولكن الآخر استمر فى حديثه قائلا ، « إنك لم تقتله ، ولكن ماذا كان جزاؤك ؟ لقد كان من الجائز أن تحصل من الراجا على بعض النقود ، وذلك إلى جانب الغنائم التى كنت ستنهبها من بيوت البوجيز ، أما الآن فإنك لم تحصل على شيء»: فصرخ براون فيه ، دون أن ينظر إليه قائلا ، « إنه من الخير لك أن تترك هذا المكان الآن »: ولكن كورنيليوس ترك نفسه ليسقط إلى جانبه ، وبدأ يهمس فى أذنه بسرعة كبيرة ، وهو يلمس مرفقه بين حين وآخر وكان ما قاله كورنيليوس قد جعل براون يجلس فى أول الأمر ، وهو ينزل اللعنات عليه من فمه : وكان كل ما قاله ، هو مجرد تعريفه ببساطة عن وجود جماعة دين واريس المسلحين فى النهر ؛ وعندما سمع براون ذلك ، ظن فى أول الأمر أنه كان قد بيع رخيصاً وغدر به ولكنه بعد لحظة من التفكير اقتنع تماماً أنه لم تكن هناك أية نية مبيتة على الغدر به : ولم يقل شيئاً ، وبعد هنيهة ذكر كورنيليوس بلهجة تدل على عدم الاكتراث التام ، إن هناك طريقاً آخر للخروج من النهر ، يعرفه تمام المعرفة : فقال براون ، وهو يرفع أذنيه ، «إنه لشيء جميل يستحق المعرفة ؟» وبدأ كورنيليوس يتحدث عما جرى فى المدينة ، وكرر كل ما قيل فى المجلس وهو يهمس بكل ذلك همساً رتيباً ، وكأنه يتحدث وسط قوم نيام يخشى أن يوقظهم . وبعد ذلك همهم براون فى صوت خفيض قائلا : « إذن فهو يظن أنه قد قلم

أظافري ، ومنعني من القدرة على إحداث أي ضرر ، أليس كذلك؟»
. . فأجابه كورنيليوس في نفس الصوت الرتيب قائلا ، « بل ؛ إنه أحمق . إنه طفل صغير . لقد حضر إلى هنا ، وسلبني كل ماعندي وجعل الناس جميعهم يعتقدون فيه ، ولكن ، إذا حدث شيء يضيع ثقة الناس فيه ، فماذا يكون مصيره ؟ ثم إن رجل البوجيز ، دين الذي ينتظرك في مجرى النهر الآن هو بعينه الرجل الذي طاردك حين وصولك وأرغمك على الالتجاء إلى هذه البقعة هنا ». فقال براون دون انفعال إنه يحسن اجتنابه. وأعلن كورنيليوس بنفس اللهجة التي تنم على التفكير وعدم الاكتراث إنه يعرف مجرى جانبياً للمياه ، يتسع لقارب براون ويوصله إلى نقطة في النهر أبعد من المكان الذي يعسكر فيه دين واريس وبذلك يتجنب المرور على معسكره . ثم قال وكأنه قد نسي أن يذكر ذلك ؛ « إنكم يجب أن تلزموا الهدوء ، لأننا سنمر في طريقنا وراء هذا المعسكر في مكان قريب جداً منه . وهم يعسكرون على الشاطيء ويضعون قاربهم في اتجاه الريح » فقال براون ؛ « لا تخف فنحن نعرف كيف نكون هادئين كالفئران » واشترط كورنيليوس أنه في حالة إرشاده لبراون عن هذا الطريق ، يجب عليه أن يسحب قاربه وراءهم وقال مفسراً ، « إنه لا بد لي أن أرجع بعد ذلك سريعاً . »

وكان قبل بزوغ الفجر بساعتين حين وصل إلى معسكر الراجا الخبر بأن اللصوص البيض يهبطون إلى قاربهم ، من الحراس الذين عينوا لمراقبتهم : وفي وقت قصير جداً كان كل رجل مسلح من أدنى باتوزان إلى أقصاها يقف على أهبة الاستعداد . ومع ذلك فإن ضفتي النهر ،

ظلتا على هدوئهما بحيث أنه لولا اشتعال النيران وضوؤها الذى كان يرتفع فجأة ، لظن المرء أن كل من فى المدينة كان نائماً ، وأن السلام كان يرفرف على البلاد . وكان هناك ضباب ثقيل يرقد قريباً من الماء يوهم الإنسان بوجود ضوء رمادى لا يرى الإنسان فيه شيئاً . وبينما انزلق قارب براون الطويل خارجاً من النهير إلى النهر ، كان جيم يقف على ذلك الرأس المنخفض البارز من الأرض ، أمام معسكر الراجا فى نفس البقعة التي وضع فيها قدميه عند وصوله لأول مرة إلى شاطىء باتوزان . وظهر ظل كبير يتحرك فى ذلك اللون الرمادى ، وحيداً ، هائل الحجم ، ورغماً عن ذلك لا يكاد يقع عليه البصر حتى يختفى . وكانت تخرج منه همهمة أصوات خفيضة . وسمع براون ، وهو يجلس عند عمود الدفة ، صوت جيم الهادىء وهو يقول ، « إن الطريق أمامكم مفتوح . ويحسن أن تعتمدوا على سرعة التيار ، فى أثناء الضباب . ولكن الضباب سيختفى قريباً . » فأجاب براون : « نعم ، ستتحسن الرؤية أمامنا قريباً . »

وحبس الثلاثون أو الأربعون رجلا الذين كانوا يقفون وبنادقهم مشرعة أنفاسهم : وقال لى رجل البوجيز الذى كان يملك القارب البحرى والذى رأيته على شرفة شتاين ـ وقد كان ضمن هؤلاء الرجال ـ إن القارب وهو يقترب جداً من ذلك الرأس المنخفض من الأرض ، ظهر لهم وكأن حجمه يكبر ، حتى يصير كالجبل أمامهم ، ونادى عليهم جيم قائلا ، « إن كنتم ترون أن المسألة تستحق أن

تنتظروا يوماً فى الخارج ، فسأحاول أن أرسل لكم شيئاً عجلا مثلا ، أو بعض البطاطا ، أو أى شيء أستطيع إرساله . » فسمع صوتاً يقول وهو يخرج مكتوماً من الضباب : « نعم ، افعل ! » واستمر الظل فى زحفه ولم يفهم أى رجل ممن كانوا يصغون باهتمام إلى هذه الكلمات معنى لها . ثم من براون ورجاله فى قاربهم ، بعيداً عن مجال البصر ، ثم اختفوا تماماً كالأطياف دون إحداث أى صوت .

وهكذا خرج براون من باتوزان مختفياً عن الأنظار فى الضباب ، وهو يجلس كتفاً لكتف إلى جانب كورنيليوس ، فى مؤخرة القارب محتمين بغطائه . وقال كورنيليوس ، « ربما جاءك عجل صغير . نعم ، عجل وبطاطا . إنها ستحضر إليك ما دام قد قال ذلك . إنه دائماً يقول الصدق . لقد سرق منى كل ما أملك . وأظنك ستفضل هذا العجل الصغير على ما يمكن أن تحصل عليه من نهب كثير من المنازل . » فقال براون ، « إنى أنصحك بأن تمسك لسانك ، قبل أن يقذف بك أحدهم من هذا القارب ، إلى ذلك الضباب اللعين » . وكان يبدو لهم أن القارب يقف بلا حراك لأنهم كانوا لا يستطيعون أن يروا شيئاً ، ولا حتى النهر نفسه إلى جانبهم . ولم يشعروا إلا بذرات الماء الدقيقة ، وهى تطير وتنسكب متكثفة على لحاهم ووجوههم . وقال براون إن ذلك الضباب كان يشعرهم بشعور رهيب ، وكأنما كانوا قد انتقلوا إلى عالم الجن والأطياف . فكان يشعر كل منهم وكأنه وحيد على قارب يطفو به إلى غير وجهة ، وهو محاط بالأشباح التى تتنهد

وتتنفس بطريقة لا يكاد يشعر المرء بها إلا شبهة وتخميناً . وهمهم كورنيليوس قائلا فى قحة ، « تريد أن تقذف بى إلى خارج القارب» أليس كذلك ؟ ولكنى سأعلم عندئذ أين أنا : فلقد عشت زمناً طويلا فى هذه الأنحاء » . فقال براون . «لم يكن زمناً طويلا بما فيه الكفاية بحيث يجعلك ترى خلال ضباب كهذا . » قال ذلك وهو يرتمى فى كسل إلى الوراء وذراعه يتحرك جيئة وذهاباً على عمود الدفة ، الذى انعدمت فائدته : فكشر كورنيليوس عن أنيابه قائلا . « نعم ، لقد كان وقتاً كافياً لذلك أيضاً » . فعلق براون على ذلك قائلا ، إن ذلك مفيد جداً ، فهل يمكننى أن أصدق أنك تستطيع أن تجد ذلك المجرى الجانبى : الذى حدثتنى عنه ، وأنت معصوب العينين. كما أنت الآن ؟» فسأله كورنيليوس بعد فترة سكون . « هل أنتم من التعب بحيث لا يمكنكم التجديف ؟ » فصرخ قائلا . « كلا . قسما بالله ! . . . إلى مجاديفكم جميعاً . » فحدث فى القارب كثير من الخبط والحركة فى الضباب ، ثم تحول ذلك إلى حركة منتظمة غير مرئية تكنس أمامها الماء بالمجاديف المثبتة على الركائز غير المرئية فى حافة القارب . ولكن شيئاً لم يتغير فيما عدا ذلك . وقد قال لى براون ، إنه لولا ما كان يثيره إسقاط المجاديف من رذاذ الماء وما يحدثه ذلك من صوت ، لحسبت أنك تجدف فى عربة بالون يطير بك وسط سحابة . وبعد ذلك لم يفتح كورنيليوس فمه ، إلا ليطلب فى صوت الشاكى ، من أحدهم أن يفرغ الماء من قاربه ، الذى كان يسحبه قاربهم الطويل وراءه : ثم رويداً

تنتظروا يوماً فى الخارج ، فسأحاول أن أرسل لكم شيئاً عجلا مثلا ، أو بعض البطاطا ، أو أى شيء أستطيع إرساله ». فسمع صوتاً يقول وهو يخرج مكتوماً من الضباب : « نعم ، افعل ! » واستمر الظل فى زحفه ولم يفهم أى رجل ممن كانوا يصغون باهتمام إلى هذه الكلمات معنى لها . ثم مر براون ورجاله فى قاربهم ، بعيداً عن مجال البصر ، ثم اختفوا تماماً كالأطياف دون إحداث أى صوت .

وهكذا خرج براون من باتوزان مختفياً عن الأنظار فى الضباب ، وهو يجلس كتفاً لكتف إلى جانب كورنيليوس ، فى مؤخرة القارب محتمين بغطائه . وقال كورنيليوس ، « ربما جاءك عجل صغير . نعم ، عجل وبطاطا . إنها ستحضر إليك ما دام قد قال ذلك . إنه دائماً يقول الصدق . لقد سرق مني كل ما أملك . وأظنك ستفضل هذا العجل الصغير على ما يمكن ان تحصل عليه من نهب كثير من المنازل » فقال براون ، « إنى أنصحك بأن تمسك لسانك ، قبل أن يقذف بك أحدهم من هذا القارب ، إلى ذلك الضباب اللعين » . وكان يبدو لهم أن القارب يقف بلا حراك لأنهم كانوا لا يستطيعون أن يروا شيئاً ، ولا حتى النهر نفسه إلى جانبهم . ولم يشعروا إلا بذرات الماء الدقيقة ، وهى تطير وتنسكب متكثفة على لحاهم ووجوههم . وقال براون إن ذلك الضباب كان يشعرهم بشعور رهيب ، وكأنما كانوا قد انتقلوا إلى عالم الجن والأطياف . فكان يشعر كل منهم وكأنه وحيد على قارب يطفو به إلى غير وجهة ، وهو محاط بالأشباح التى تتنهد

وتتنفس بطريقة لا يكاد يشعر المرء بها إلا شبهة وتخميناً . وهمهم كورنيليوس قائلا فى قحة ، « تريد أن تقذف بى إلى خارج القارب» أليس كذلك ؟ ولكنى سأعلم عندئذ أين أنا : فلقد عشت زمناً طويلا فى هذه الأنحاء » . فقال براون . «لم يكن زمناً طويلا بما فيه الكفاية بحيث يجعلك ترى خلال ضباب كهذا . » قال ذلك وهو يرتمى فى كسل إلى الوراء وذراعه يتحرك جيئة وذهاباً على عمود الدفة ؛ الذى انعدمت فائدته : فكشر كورنيليوس عن أنيابه قائلا . « نعم ؛ لقد كان وقتاً كافياً لذلك أيضاً » . فعلق براون على ذلك قائلا ؛ إن ذلك مفيد جداً ؛ فهل يمكننى أن أصدق أنك تستطيع أن تجد ذلك المجرى الجانبى : الذى حدثتنى عنه ؛ وأنت معصوب العينين . كما أنت الآن ؟» فسأله كورنيليوس بعد فترة سكون . « هل أنتم من التعب بحيث لا يمكنكم التجديف ؟ » فصرخ قائلا . « كلا . قسما بالله ! . . . إلى مجاديفكم جميعاً . » فحدث فى القارب كثير من الخبط والحركة فى الضباب ، ثم تحول ذلك إلى حركة منتظمة غير مرئية تكنس أمامها الماء بالمجاديف المثبتة على الركائز غير المرئية فى حافة القارب . ولكن شيئاً لم يتغير فيما عدا ذلك . وقد قال لى براون ، إنه لولا ما كان يثيره إسقاط المجاديف من رذاذ الماء وما يحدثه ذلك من صوت ، لحسبت أنك تجدف فى عربة بالون يطير بك وسط سحابة : وبعد ذلك لم يفتح كورنيليوس فمه ، إلا ليطلب فى صوت الشاكى ، من أحدهم أن يفرغ الماء من قاربه ، الذى كان يسحبه قاربهم الطويل وراءه : ثم رويداً

رويداً ، ابيض الضباب ، وأصبح لامعاً أمامهم : وعلى يسارهم ، رأى راون ظلاماً ، خيل إليه ، وهو ينظر إليه ، أنه ينظر إلى ظهر الليل الهارب .. وفجأة ، ظهر فرع شجرة كبير مغطى بالأوراق فوق رأسه ، وأطراف فروع رفيعة ساكنة يقطر منها الماء ، وهى تنحنى فى قوامها الرفيع إلى جانبه ، فأخذ كورنيليوس دون أن يفوه بكلمة عمود الدفة من راون —

الفصل الرابع والأربعون

ولا أظن أن أحدهما تحدث إلى الآخر بعد ذلك . ودخل القارب إلى مجرى جانبي ضيق ، حيث دفع إلى هناك بأطراف المجاديف ، وهى ترتكز على شاطئيه المتآكلين . وكان هناك ظلام كأن جناحين أسودين هائلى الحجم قد نشرا فوق الضباب الذى ملأ ذلك المجرى من أعماقه حتى قمم الأشجار . وكانت تسقط من الفروع التى تتدلى فوق رءوسهم قطرات كبيرة من الماء خلال الضباب المعتم . وعندما همس كورنيليوس فى أذنه أصدر براون أمره إلى رجاله بحشو بنادقهم . ثم قال لهم ، « إنى سأعطيكم فرصة لتسوية حسابكم معهم قبل أن ننتهى ، أيها الكسيحون التعساء . واحذروا أن تضيعوها أيها الكلاب » . وتلا ذلك أصوات تذمر خفيضة ، وأخذ كورنيليوس يصدر أصواتاً تدل على قلقه الزائد عن الحد من أجل سلامة قاربه .

وفى أثناء ذلك ، كان تامب إيتام قد وصل إلى نهاية رحلته وكان الضباب قد أخره قليلا ، ولكنه كان يجدف فى ثبات ، محافظا على اتصاله بالشاطىء الجنوبى ورويداً رويدا بدأ ظهور نور النهار ، كما يظهر الضوء من خلال كرة من الزجاج « المصنفر » . وكان الشاطئان يظهران على كل جانب من جوانب النهر ، وكأنهما غبار فحم أسود يمكن أن يتبين المرء فيه شبهة لوجود أشكال عمودية ، وظلالا لفروع ملتوية فى أعلاها . وكان الضباب لا يزال كثيفاً على الماء . ولكن رغماً عن ذلك فقد كان هناك حراسة جيدة لأنه حين اقترب تامب إيتام من المعسكر ، خرج عليه رجلان من البخار الأبيض ، ووجها إليه الحديث

فى صـــوت خشن . فأجابهما ، وحين ذلك جاء قاربهما إلى جانبه ، وتبادل الأخبار معهما : وقال لهما إن كل شيء كان على ما يرام . وإن المتاعب قد انتهت : فترك الرجلان قاربه الذى كانا يمسكان بجانبه واختفيا عن نظره فى الحال ، دون مقدمات . واستمر فى طريقه ، فسمع أصواتاً تصل إلى أذنه فى هدوء فوق الماء ، ورأى فى الضباب الذى أخذ يرتفع الآن فى حركة حلزونية ضوء النيران الكثيرة الصغيرة التى كانت تشتعل على الشاطىء الرملى ، وفى خلفيتها أشجار نخيلة مرتفعة ، وشجيرات كثيرة . وكان هناك حراس آخرون ، حين وصوله إلى تلك البقعة ، طلبوا منه إثبات شخصيته . فصرح لهم باسمه ، بينما أوصلته ضربتان من مجدافه الصغير إلى الشاطىء . وكان الرجال يجلسون فى جماعات صغيرة كثيرة وهم يهمسون بعضهم إلى بعض بالحديث فى الصباح الباكر . وارتفعت خيوط كثيرة رفيعة من الدخان وهى تتموج فى بطء على الضباب الأبيض . وكان هناك بعض الأكواخ الخشبية الصغيرة ، المرتفعة عن الأرض وكانت قـــد أقيمت لإيواء الزعماء . وكانت الأسلحة النارية من الطراز القديم ، قد نظمت فى مجموعات هرمية الشكل ، وكانت الحراب الطويلة مغروزة فى الرمل فرادى قرب النيران :

وطلب تامب إيتام وهو يضفى على نفسه جواً من الأهمية أن يؤخذ فى الحال إلى دين واريس . ورأى صديق سـيده الأبيض يرقد على مقعد طويل من الخشب ، مرتفع عن الأرض ومصنوع من البامبو .

وقد صنعت له مظلة من فروع الأشجار ، المغطاة بالحصير ؛ وكان دين واريس مستيقظاً ، وكانت هناك نار كبيرة تشتعل أمام المكان الذى ينام فيه ، والذى كان يشبه هيكلا غير متقن الصنع . ورد الولد الوحيد لزعيم الناخرضا دورامين ، على تحية تامب إيتام ، بتحية رقيقة . وبدأ تامب إيتام بمناولته الخاتم الذى يثبت له صدق الرسالة التي يحملها . وأمره دين واريس ، وهو يستند على مرفقه بأن يتكلم ويقص عليه كل الأخبار . فبدأ تامب إيتام بالعبارة المقدسة المصطلح عليها ، وهى « إن الأخبار حسنة » ثم كرر على مسامعه نفس كلمات جيم . وقال له إن الرجال البيض الذين يرحلون بموافقة جميع الزعماء يجب أن يسمح لهم بالمرور إلى البحر . وأجاب على سؤال أو اثنين لدين واريس ، بسرده لكل ماحدث فى الجلسة الأخيرة لمجلس الحرب وكان دين واريس يصغى إليه بانتباه إلى النهاية ، وهو يتلهى بتحسس الخاتم بين يديه ، الذى أدخله أخيراً فى سبابة يده اليمنى . وبعد أن سمع منه كل ما عنده من الأخبار أمره بالانصراف ليتناول بعض الطعام ويأخذ قسطه من الراحة . وصدرت الأوامر فى الحال بالاستعداد للعودة بعد الظهر ؛ وبعد ذلك رقد دين واريس ثانية وعيناه مفتوحتان ، بينما كان خدمه الخواص يعدون طعامه على النار التى جلس تامب إيتام إلى جانبها ، وهو يتحدث إلى الرجال الذين جلسوا لسماع آخر الأخبار من المدينة ؛ وكانت الشمس الآن تلتهم الضباب ؛ وكانت

هناك حراسة شديدة على مشارف المجرى الرئيسي للنهر ، الذى كانوا يتوقعون ظهور قارب الرجال البيض فيه بين لحظة وأخرى .

وكانت هذه هى اللحظة التى صب فيها براون جام انتقامه على الدنيا التى رفضت بعد عشرين عاماً من تهديده واحتقاره لها ، وعدم المبالاة بها ، حتى أن تعترف له بتلك المكانة المرموقة التى تعترف بها عادة للص ناجح . وكان الجرم الذى ارتكبه ، جرماً وحشياً ، وكان نتيجة لتدبير هادئ وسبق إصرار ، له وكان عزاء على فراش موته كذكرى لتحد لا يقاوم . وكان قد أنزل رجاله ، فى سرية تامة على الجانب الآخر من الجزيرة فى مواجهة معسكر البوجيز ، ثم قادهم عبر الجزيرة . وبعد مقاومة قصـيرة ، لم يكد يسمع لها صوت من كورنيليوس الذى حاول أن يتسلل بعيداً عنهم فى اللحظة التى تركوا فيها القارب ، اضطر أن يستسلم ويرشدهم إلى الطريق ، الذى كان أخلى من غيره من عوائق الشجيرات الشائكة ، وأمسك براون بكلتا يديه النحيلتين وراء ظهره ، فى قبضة يده الكبيرة ، وكان يحثه على السير إلى الأمام بين حين وآخر بدفعة وحشية .وظل كورنيليوس أبكم كالسمكة ، حقيراً ،ولكن فى الوقت ذاته مخلصاً لهدفه،الذى كان وشك تحقيقه بطل عليه فى هذا الإعتام.وعندحافة تلك القطعة الصغيرة من الغابة انتشر رجال براون محتجبين عن الأنظار ، وانتظروا . وتكشف المعسكر

أمام أنظارهم من أقصاه إلى أقصاه ، دون أن ينظر فيه أحد إلى المكان الذى اختبأوا فيه : فلم يكن فى المعسكر رجل واحد يحلم بإمكان الرجال البيض أن يعرفوا بوجود ذلك المجرى الضيق فى مؤخرة الجزيرة . وحين رأى براون أن اللحظة المناسبة قد حانت ، صرخ فى رجاله «دعوهم يصلوها». وإذا بأربع عشرة طلقة تدوى دفعة واحدة.

وأخبرنى تامب إيتام أن المفاجأة كانت مذهلة ، إلى حد أنه باستثناء من سقطوا قتلى أو جرحى ، لم يتحرك منهم أحد ، لوقت طويل ، بعد الإطلاق الأول للنار . ثم صرخ رجل ، وبعد هذه الصرخة ، ارتفعت صرخة عظيمة من الدهشة والفزع ، من حلوق جميع الرجال وساق الفزع الأعمى هؤلاء الرجال ، على الشاطىء جيئة وذهاباً ، بصورة من الفوضى والتزاحم وفقدان السيطرة على شعورهم ، وكأنهم قطيع من الماشية يفزع من الماء . وقفز إلى النهر قليل منهم عندئذ ولكن الغالبية العظمى منهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد الإطلاق الأخير للنيران : وأطلق رجال براون النار ثلاث مرات على من بقى منهم . وكان براون وهو الوحيد الذى كان يظهر للعيان يلعنهم ، ويصرخ فيهم قائلا ، « صوبوا إلى أسفل ! »

وقال تامب إيتام ، إنه فيما يتعلق بنفسه ، كان قد فهم حقيقة ما حدث عند أول إطلاق للنار : ورغماً عن أنه لم يصب ، فإنه رقد

على الأرض كأنه ميت وإن كان قد ترك عينيه مفتوحتين . وكان ديك واريس ، حين سماعه للطلقات الأولى ، وهو يرقد على فراشه ، قد قفز ناهضاً ، وجرى إلى الخارج ، على الشاطىء المكشوف . وفي هذه اللحظة تماماً ، أصابته رصاصة في جبهته ، عندما أطلقت النار ثانية . ورآه تامب إيتام وهو يفرد ذراعيه ، قبل أن يسقط . وقال تامب إيتام إن الرعب قد دخل إلى قلبه في تلك اللحظة فقط — وليس قبل ذلك . . . . وانسحب الرجال البيض كما أتوا دون أن يراهم أحد .

وسوى براون بهذه الطريقة حسابه مع حظه العاثر . ولاحظ أنه حتى في ذلك الحادث الفظيع ، كان هناك نوع من السمو ، كأن رجلا يحمل معه الحق ، وهو ذلك الشيء المطلق ، في غلاف من رغباته العادية . لم تكن مذبحة غادرة من النوع الدنيء ، بل كانت درساً وقصاصاً عادلا . كانت إظهاراً لبعض الخواص الغامضة الفظيعة في طبيعتنا ، التي أخشى ألا تكون بعيدة جداً عن السطح كما نتصور .

وبعد ذلك غادر الرجال البيض المكان ، دون أن يراهم تامب إيتام ويظهر أنهم قد اختفوا من عيون الناس تماماً ، وأن سفينتهم أيضاً قد اختفت بالطريقة التي تختفي بها البضائع المسروقة . ولكن كان هناك قصة تروى عن قارب أبيض طويل ، التقطته سفينة بضائع في المحيط الهندي بعد شهر من هـذه الحوادث . وكان فيه اثنان من الهياكل اللامسة التي جفت حلوقها واصفرت وأصبحت عيونها كالزجاج ،

وكانا يقران لميكل ثالث أعلن أن اسمه براون ، بالسلطة ؛ وقال براون إن سفينته التي كانت تتجه إلى الجنوب بشحنة من سكر جاوة قد حدث فيها ثغرة وغرقت فى البحر تحت قدميه . وأنه ورفيقيه كانوا هم الذين بقوا على قيد الحياة من مجموع البحارة ، الذين كانوا ستة فى الأصل ثم مات اثنان من هؤلاء على الباخرة التي أنقذتهم ؛ وكان براون هو الوحيد الذى عاش لأراه بعد ذلك . وإنى لأستطيع الشهادة له بأنه قد لعب دوره إلى النهاية .

ويظهر أنهم كانوا عند مغادرتهم المكان قد أهملوا إطلاق سراح قارب كورنيليوس ؛ وكان براون قد أفرج عن كورنيليوس عند بدء إطلاق النار برفسة من قدمه باركه بها عند الوداع . وحين نهض تامب إيتام من بين الموتى رأى الناصرى وهو يجرى جيئة وذهاباً على الشاطىء بين الجثث ، والنيران الخابية . وكانت تخرج من فمه صيحات مكبوتة ، واندفع فجأة إلى النهر وهو يبذل جهوداً مضنية لجر أحد قوارب البوجيز إلى الماء : وقال لى تامب إيتام ، « إنه وقف بعد ذلك ، وهو ينظر إلى القارب الثقيل ويهرش فى رأسه ، إلى أن رآنى . فسألته : « وماذا حدث له ؟ » فحدق تامب إيتام فى ، وأتى بحركة معبرة من ذراعه اليمنى ، وقال ، « لقد طعنته بهذه الذراع مرتين أيها التوان . وكان عندما رآنى أقترب منه ، قد طرح بنفسه على الأرض بعنف وأخذ يولول ويصيح وهو يرفس الأرض برجليه . وكان يصيح كالدجاجة حين تحس بالفزع حتى أحس برأس الخنجر . فسكت صوته . ورقد محدقاً فى ؛ بينما كانت حياته تخرج من عينيه » .

وبعد أن انتهى تامب إيتام من ذلك العمل ، لم يضيع الوقت ؛ وكان يعلم أهمية سبقه للآخرين فى حمل هـذه الأخبار المحزنة إلى الحصن . وكان هناك بالطبع كثيرون من أتباع دين واريس ، لا يزالون على قيد الحياة . ولـكن كان البعض منهم فى لحظة الفزع الفظيع الذى أصابهم ؛ قد عاموا إلى الضفة الأخرى ، وكان البعض الآخر قد هربوا إلى الغابة . وكانت الحقيقة أنهم كانوا لا يعلمون على وجه التحديد من الذين وجهوا إليهم تلك الضربة ، ولا يعلمون إن كان هناك لصوص آخرون من البيض ، سيحضرون إليهم ، ولا يعلمون إن كانوا قد وضعوا أيديهم على جميع البلاد فعلا ، أم لا . فلقد تصوروا أنهم قد وقعوا فريسة لغدر فظيع ، وأن الهلاك قد أصبح مصيرهم المحتوم . ولقد قيل إن بعض الجماعات الصغيرة منهم لم يحضروا إلى المدينة ، إلا بعد ثلاثة أيام من هذه الحوادث . ولـكن بعضاً منهم ، قد حاولوا الرجوع إلى باتوزان فى الحال : وكان أحد القوارب التي تقوم بحراسة النهر فى ذلك الصباح ، على مسافة قريبة من المعسكر فى اللحظة التي أطلق فيها النار . وصحيح أن الرجال الذين كانوا فيه قد قفزوا منه فى أول الأمر وعاموا إلى الضفة الأخرى ، ولكنهم رجعوا بعد ذلك إلى القارب ، وبدءوا يجدفون بأقصي مافيهم من قوة ، ضد التيار . وقد وصل تامب إيتام إلى باتوزان قبل هؤلاء بساعة واحدة فقط ؛

الفصل الخامس والأربعون

وحين وصل تامب إيتام ، وهو يجدف كالمجنون ، إلى مشارف المدينة كانت النساء يزدحمن على شرفات المنازل، وهن يترقبن رجوع أسطول دين واريس الصغير . وكان يسود المدينة جو كجو الأعياد، وكان المرء يستطيع أن يرى بعض الرجال يقفون أو يتحركون على الشاطىء فى جماعات صغيرة ، وحرابهم أو بنادقهم لاتزال فى أيديهم . وكان الصينيون قد فتحوا حوانيتهم فى الصباح الباكر، ولكن ساحة السوق كانت خالية . ولمح أحد الحراس من مكانه فى ركن الحصن تامب إيتام ، فصرخ معلناً هذا النبأ إلى من كانوا فى داخل الحصن، وكانت البوابة مفتوحة على مصراعيها. فقفز تامب إيتام على الشاطىء وهو يجرى دون أن يتلفت يمنة ولا يسرة . وكان أول من التقى به هى الفتاة ، التى كانت تهبط خارجة من البيت .

ووقف تامب إيتام لحظة أمامها فى شكله الأشعث الأغبر ، وهو يلهث وشفتاه ترتعشان، وعيناه زائغتان. وكأنما قد أخرسته يد ساحر فجأة عن الكلام . ولكنه اندفع بعد ذلك ، يقول فى سرعة كبيرة « لقد قتلوا دين واريس وكثيرين غيره » . فضربت الفتاة كفاً بكف وكانت كلماتها الأولى هى « اقفلوا الأبواب » . وكان معظم رجاله

الحصن قد قتلوا راجعين إلى بيوتهم . ولكن تاهب إيتام جمع من بقى منهم بسرعة ليقوموا بواجب الحراسة فى الداخل. وكانت الفتاة تقف فى وسط فناء الحصن ، بينما كان الرجال يسرعون من حولها إلى مراكزهم . وصاحت الفتاة فى يأس إلى تاهب إيتام، حين مر بالقرب منها قائلة ، «دو رامين » ؟ فلم يرد عليها حينذاك ، ولكنه حين مر عليها ثانية ، فى حركته السريعة داخل الحصن ، أجاب على ما كان يساورها من الأفكار قائلا بسرعة ، « نعم . ولكننا نملك كل ما فى ياتوزان من البارود ». فأمسكت بذراعه ، وهمست إليه مرتعشة، وهى تشير إلى البيت ، قائلة ، « اذهب إلى هناك واستدعه » ؟

فجرى تاهب إيتام صاعد الدرج . وكان سيده نائماً . وصرخ عند باب غرفته قائلا، « أنا تاهب إيتام، ولدى أخبار هامة، لاتستطيع الانتظار » ورأى جيم وهو يتقلب على وسادته ، ويفتح عينيه. فصرخ فيه فى الحال قائلا ، « إن هذا اليوم يوم عصيب ، أيها التوان ، يوم عصيب ». فاستند سيده على مرفقه ليستمع إليه، كما فعل دين واريس تماماً حين حضر إليه تاهب إيتام برسالته من جيم . وبدأ تاهب إيتام يسرد على مسامعه القصة ، وهو يحاول أن يرويها بنفس تسلسل الأحداث التى وقعت فيها ، وكان يسمى دين واريس « بانجليما » فقال، «ونادى البانجليما على رئيس البحارة، قائلا له ، « أعط تاهب إيتام شيئاً يأكله » ..... وهنا وضع جيم قدميه على الأرض ، وقد انقلبت سحنته بصورة جعلت الكلمات تقف فى حلقه»

فقال له جيم ، تكلم ... هل مات ؟ » فصاح تامب إيتام «أطال الله بقاءك . لقد كان غدرا دنيئاً قاسياً يجل عن الوصف. فلقد جرى إلى الخارج عند سماعه للطلقات الأولى ... ثم سقط ... » فمشى سيده إلى النافذة ، وضرب خشبها بقبضته ، فانفتحت ، وغمر الغرفة الضوء ، وبدأ يصدر أوامره إليه فى صوت ثابت ، ولكن فى كلمات سريعة ليجمع أسطولا من القوارب لمطاردة العداة فى الحال ، وبأن يذهب إلى هذا الرجل أو ذاك ، وبأن يرسل الرسل . وكان وهو يتكلم قد جلس على سريره ، وانحنى على حذائه ليربطه بسرعة وفجأة رفع نظره إلى خادمه . فوجده لا يزال واقفاً أمامه . فسأله وقد احمر وجهه من الغضب ، « لماذا تقف هنا ؟ هيا اذهب ، ولا تضيع الوقت » فلم يتحرك تامب إيتام ، ثم بدأ يتأتىء قائلا . « سامحنى أيها اللورد ، ولكن .. » فصاح به سيده بصوت عال ، وقد صار منظره مخيفاً ، وقد انحنى إلى الأمام ممسكاً بحافة سريره . « ماذا؟ » فقال تامب إيتام بعد أن تردد لحظة . « إن من الخطر على خادمك أن يخرج الآن بين الناس » .

وعند ذلك فهم جيم . فلقد انسحب من عالم بسبب قفزة عفوية كانت بنت لحظتها ، بلا تفكير ولا تدبير . وكان العالم الآخر الذى صنعه بيديه يتساقط الآن أنقاضا على رأسه . ولقد أصبح من الخطر الآن على خادمه أن يخرج إلى عشيرته وأهله ... وإنى لأعتقد أنه فى هذه اللحظة بالذات ، كان قد قرر أن يتحدى هذه الكارثة بالطريقة

الوحيدة ، التي ظن أنه يمكن أن يتحداها بها . ولكن كل ما أعرفه هو أنه قد خرج من غرفته، دون أن ينطق بكلمة أخرى ، وجلس أمام المائدة الطويلة ، التي اعتاد وهو على رأسها ، أن يصرف شئون عالمه وهو يعلن إليه فى كل يوم عن صدقه وإخلاصه، الذى لا شك فى أن قلبه كان يعمر بهما .. .. .. وما كان ينبغى لقوى الظلام أن تسلبه سكينته مرتين .. .. .. وجلس هناك كأنه تمثال من الحجر . فلمح إليه قامب إيتام مخاطباً إياه باحترام شديد عن وجوب إعداد وسائل الدفاع وحضرت الفتاة التي أحبها. وحادثته . ولكنه أتى بإشارة من يده ملأت قلبها بالخوف بما كان فيها من رجاء أبكم بالتزام الصمت . فخرجت إلى الشرفة ، وجلست على عتبتها ، وكأنها تريد أن تحميه بجسدها من الأخطار التى تتهدده فى الخارج .

فأى أفكار كانت تدور فى رأسه ، وأى ذكريات ؟ .. إن أحداً لا يمكنه أن يعلم شيئا عن ذلك . لقد انتهى كل شيء ، وفقد الرجل، الذى خان أمانته مرة ، كل ما كان قد كسبه من ثقة الرجال مرة أخرى .. وأعتقد أن هــذه هى اللحظة التي حاول فيها أن يكتب لشخص ما ثم تخلى عن محاولته . وكانت الوحدة تطبق عليه من جميع الجهات . وكان الناس يثقون به إلى حد بذل حياتهم له وكانت هذه هى النتيجة . ورغما عن ذلك فلم يكن فى قدرتهم أبداً ـ كما كان يقول بنفسه ـ أن يفهموه .. ولم يسمع الذين كانوا فى الخارج له صوتاً ،

ولكنه خرج إلى الباب قرب الغروب ونادى على تامب إيتام، وسأله: «ما الأخبار؟» فقال تامب إيتام. «إن هناك بكاء كثيراً وغضباً كثيراً أيضاً» فرفع جيم نظره إليه، وهمهم قائلا: «إنك تعلم» فقال تامب إيتام. «نعم ياسيدى، إن خادمك يعلم جيداً، والبوابات كلها مغلقة. ولابد لنا أن نقاتل.» فسأله جيم: «تقاتل! لماذا؟» فقال تامب إيتام، «دفاعاً عن حياتنا.» فقال جيم، «أنا ليس لى حياة» وسمع تامب إيتام صرخة من الفتاة عند الباب وقال تامب إيتام: «من يدرى؟ لعلنا نستطيع باستعمال مزيج من الشجاعة والمكر، أن نهرب. فهناك كثير من الخوف فى قلوب الرجال أيضاً» وخرج وهو يفكر بصورة غير واضحة فى القوارب والبحر الشاسع. تاركاً جيم مع الفتاة.

ولا يحتمل قلبى أن أسجل لك هنا تلك اللمحات، التى أعطتنى الفتاة صورة منها، فى تلك الساعة التي قضتها معه، وهى تصارعه دفاعا عن سعادتها. ويستحيل على أن أقول شيئاً عما كان يدور فى رأسه عندئذ، فلست أدرى إن كان لايزال لديه أمل. ولست أدرى ماذا كان يتوقع، ولا ماذا كان يتخيل. فلقد ظل صامداً لايتحول عن تصميمه، ويظهر أن ازدياد إحساسه بالوحدة فى عناده، كان قد جعل روحه ترتفع محلقة على أنقاض وجوده. وكانت الفتاة تصيح فى أذنه، قائلة، «قاتل!» وكانت لاتستطيع أن تفهم. فى رأيه أنه لم يكن هناك شيء يقاتل من أجله. وكان فى نيته أن يبرهن على قوته بطريقة أخرى، ويتغلب بذلك على قدره المميت نفسه. ثم

خرج إلى الفناء ، ووراءه الفتاة ، محلولة الشعر ، وفى وجهها جنون ، وهى تلهث وتكاد تفقد توازنها،فاستندت على مدخل الباب وأصدر جيم أمره قائلا . « افتحوا البوابات » والتفت بعـد ذلك إلى بقية رجاله ، الذين كانوا داخل الحصن وطلب منهم أن يرجعوا إلى بيوتهم . فسأله أحدهم فى شيء من الخجل ،« إلى متى تريدنا أن نمكث هناك ؟ » فأجابهم بلهجة رصينة ، « مدى الحياة » .

وكان السكون قد حل بالمدينة الآن، بعد عاصفة البكاء والعويل، التى هبت على النهر كالريح العاتية من طاقة فتحت فى موطن الأسى والأحزان . ولكن الإشاعات كانت لاتزال تطير على أجنحة الهمس، مالئة قلوب الناس بالضيق والشك القاتل. فقيل إن اللصوص سوف يرجعون ثانية ، فى سفينة كبيرة تحمل الكثيرين غيرهم ، وإنه لن يكون هناك حينذاك ملجأ ولا منجى لأى منهم . ونفذ إلى عقول الرجال إحساس بالقلق وعدم الأمن ، كالذى يحل بالناس وقت وقوع الزلازل ، وأخذوا يهمسون بشكوكهم وهم ينظرون :أحدهم إلى الآخر . وكأن نذيراً مخيفاً من نذر الشر يطل عليهم .

وكانت الشمس تغرب هابطة إلى الغابات ، حين أحضرت جثة دين واريس إلى معسكر دورامين. وكان يحمل جسده أربعة رجال، وقد غطى فى وقار بغلالة بيضاء ، كانت قد أرسلتها أمه العجوز إلى

البوابة لاستقبال عودة ابنها ؛ فوضعوه عند أقدام دورامين ، وجلس الرجل ساكناً طوال الوقت ، وهو يضع يديه على ركبتيه ، وينظر إلى أسفل . وكان جريد النخيل يهتز فى رفق ، وأوراق أشجار الفاكهة تتحرك فوق رأسه ؛ وكان رجاله جميعاً ، إلى آخر رجل فيهم هناك فى كامل سلاحهم حين رفع زعيم الناخوضا العجوز عينيه إلى أعلى، فى آخر الأمر. وأدار دورامين رأسه فى بطء فى هؤلاء الرجال ، وكأنه يبحث بينهم عن وجه افتقده ؛ ثم هبط ذقنه ثانية على صدره . وكانت همسات الرجال تختلط بحفيف أوراق الشجر فى حركته الخفيفة .

وكان رجل الملايو الذى أحضر تامب إيتام والفتاة إلى سا مارانج هناك أيضاً وقد قال لى : إنه « لم يكن يشعر بالغضب الشديد الذى يشعر به بقية الرجال ، ولكنه كان قد أصابته صدمة من الخوف الشديد والدهشة من عنصر المفاجأة الذى يتسم به مصير الرجال المعلق فوق رءوسهم كسحابة مشحونة بالصواعق» . وأخبرنى أنه حين كشف الغطاء عن جسد دين واريس بإشارة من دورامين . كان ذلك الرجل الذى كانوا ينعتونه دائماً بصديق الورد الأبيض يرقد دون أن يطرأ عليه أى تغيير ، وقد فتح عينيه قليلا ، وكأنه يوشك أن يستيقظ . وأحنى دورامين ظهره إلى الأمام أكبر قليلا من ذى قبل ، وكأنه كان يفحص جسد ولده من أقدامه إلى رأسه باحثاً عن الجرح .

وكانت الإصابة فى جبهته ، وكانت جرحاً صغيراً : ولم ينبس أحد بكلمة حين انحنى أحد الواقفين على الجسد ، وخلع الخاتم الفضي من اليد الباردة الجامدة . ومد يده به فى سكون إلى دورامين : وسرت فى الجماعة همهمة من الأسي والارتياع ، حين وقعت أنظارهم على ذلك الرمز الذى كانوا يعرفونه جميعاً ، للأخوة والصداقة : وحدق فيه زعيم الناخوضا العجوز ، وفجأة أخرج من أعماق صدره صرخة هائلة مروعة كأنها زئير من الغضب والألم ، وكانت قوية كخوار الثور المجروح ، تبعث الخوف الشديد فى قلوب الرجال ، بما كانت تحويه فى وضوح ودون حاجة إلى الكلمات من هول الغضب والأسى الذى كان يشعر بهما . وبعد ذلك مضت فترة من الزمان ، خيم فيها السكون التام على الجمع ، بينما كان أربعة من الرجال يحملون الجسد إلى مكان قريب : فوضعوه تحت شجرة هناك . وفى هذه اللحظة بالذات بدأ النساء فى بيت دورامين عويلهن معاً بصرخة طويلة ناحبة ، ثم أخذن يولولن على الفقيد، بصوت عال، وكانت الشمس تغرب. وبين صيحاتهن العالية كان المرء يستطيع أن يسمع النغمة الرتيبة لرجلين عجوزين كانا يرتلان كتاب الله بعيداً عن هذه الضجة .

وحوالى ذلك الوقت ، كان جيم يستند إلى قاعدة مدفع ، وينظر إلى النهر وقد أدار ظهره للبيت : وكانت الفتاة لا تزال تقف عند الباب ، وهى تلهث كما لو كانت قد ظلت تجرى إلى أن خارت قواها

وعجزت عن الحركة ، وكانت تنظر إليه عبر الفناء . وكان تامب إيتام يقف بالقرب من سيده ، وينتظر فى صبر ما قد تسفر عنه الحوادث . والتفت جيم الذى كان يظهر عليه أنه مستغرق فى تفكير هادىء فجأة إليه قائلا : « لقد حان الوقت لإنهاء ذلك » .

فقال تامب إيتام ، وهو يقترب منه فى نشاط وانتباه : « سيدى؟» ولم يفهم الخادم ماذا كان يعنيه جيم ، ولكنه حين تحرك تحركت الفتاة أيضاً هابطة إلى فناء الحصن . ويظهر أنه لم يكن هناك أحد من سكان البيت ، ظاهراً للعيان فى تلك اللحظة غير هؤلاء . وكانت الفتاة تترنح قليلا ، وحين وصلت إلى وسط الفناء نادت على جيم الذى كان يظهر عليه أنه قد عاد إلى استغراقه الهادىء فى تأمل النهر . فاستدار إليها ، مسنداً ظهره إلى المدفع .

فصاحت به : « هل ستقاتل ؟ » فقال « إنى لا أجد شيئاً يستحق القتال من أجله — إننى لم أفقد شيئاً » . وخطا خطوة نحوها وهو يقول ذلك . فصاحت به ثانية : « هل ستهرب ؟ » فأجابها : « ليس هناك مهرب » . ثم توقف ، فتوقفت هى أيضاً جامدة صامتة ، وهى تلتهمه بعينيها . ثم قالت فى بطء . « ألا زلت عاقداً النية على الذهاب؟ » فأومأ برأسه بالإيجاب . فقالت ، وهي تحدق فيه كما لو كانت تريد

أن تخترقه بنظراتها : « آه إنك إما مجنون وإما حانث. ألا تتذكر الليلة التي رجوتك فيها بحرارة أن تتركني ، وقلت حينذاك إنك لا تستطيع ذلك ؟ وإن ذلك مستحيل ! مستحيل ! ألا تتذكر أنك قلت إنك لن تتركني أبدا ؟ لماذا ؟ إني لم أطلب منك وعداً . إنك قد وعدت بذلك دون أن تسأل . أتتذكر ؟ » فقال : « هذا يكفي أيتها الفتاة المسكينة ، فلو أجبتك إلى ما تطلبين لما كنت جديراً باحتفاظك بي » .

وقال لي تامب إيتام ، إنها حين كانت تتحدث إليه ، كانت تضحك عالياً وبلا معنى ، كما لو كان بها مس من الجنون : ووضع سيده يديه على رأسه . وكان في كامل ملابسه كعادته في كل يوم ولكن بدون قبعة . وتوقفت الفتاة عن الضحك فجأة وصاحت به في لهجة التهديد . « المرة الأخيرة ، أستدافع عن نفسك ؟ » فقال لها وكأن أنانيته العظيمة كانت تشع بآخر ضوء ضعيف لها قبل أن تخبو « إن شيئاً لا يمكن أن يمسني » ، ورآها تامب إيتام ، وهي تميل إلى الأمام حيث وقفت ، ثم تفتح ذراعيها ، وتجري نحوه بسرعة ثم ترمي بنفسها على صدره ، وتطوقه بذراعيها .

ثم صاحت ، « آه ! ولكني سأمسك بك هكذا ، فأنت ملكي » . وبكت على كتفه . . . وكانت السماء فوق باتوزان حمراء كالدم ، هائلة شاسعة ، تقطر منها الحمرة كشريان مقطوع . وكانت هناك شمس هائلة الحجم تعشش بلونها الأرجواني ، وسط قمم الأشجار وكانت الغابة تحتها تبدو في وجه أسود كالح لا يسر الناظرين .

وقد قال لى تامب إيتام إن منظر السماء فى ذلك المساء ، كأن غاضباً مخيفاً . وإنى لأصدق ذلك لأن إعصاراً كان يهب فى ذلك اليوم على مسافة ستين ميلا من الساحل وإن كان أثره فى ذلك المكان لم يزد على حركة فاترة فى الهواء :

ورأى تامب إيتام جيم وهو يمسك بذراعيها فجأة ، محاولا أن يحرر عنقه من قبضة يديها . فشددت من تعلقها بعنقه ، ورأسها ساقط إلى الوراء حتى مس شعرها الأرض : فناداه سيده قائلا : «تعال إلى هنا» فجاء تامب إيتام وساعدها على السقوط برفق إلى الأرض : وكان من الصعوبة بمكان تفريق أصابعها المتشابكة وانحنى جيم عليها ، ونظر إلى وجهها نظرة تتسم بالجد ، ثم جرى فى الحال إلى مكان مرسى القوارب وتبعه تامب إيتام ، ولكنه حين التفت وراءه ، رأى أنها قد استطاعت أن تقف على قدميها بعد جهد . وجرت وراءهم بضع خطوات، ولكنها سقطت بعد ذلك بعنف على ركبتها : فنادى تامب إيتام قائلا : «توان .: توان انظر خلفك» . ولكن جيم كان يقف الآن فى قارب والمجداف فى يده . ولم ينظر خلفه : واستطاع تامب إيتام بعد ذلك بصعوبة ، أن يرمى نفسه معه فى القارب ، قبل أن يطفو بعيداً عن الشاطىء . وكانت الفتاة فى تلك اللحظة واقعة على ركبتيها ، ويداها مشبكتان عند بوابة النهر : وظلت الفتاة فترة على هذا الوضع ، الذى كان يشبه وضع الضراعة والصلاة ، قبل أن تقفز ناهضة : وصرخت وراءه قائلة ، «أنت خائن !» فصاح قائلا ، «اغفرى لى» فصرخت «أبدا ! .: أبداً ! »

وأخذ تامب إيتام المجداف من يد جيم ، إذ كان من عدم اللياقة أن يجلس هو ويترك سيده يجدف . وحين وصلا إلى الضفة الأخرى منعه سيده من السير إلى أبعد من ذلك ، ولكن تامب إيتام تبعه على البعد صاعداً المنحدر إلى معسكر دورامين .

وكان الظلام قد بدأ ينتشر ، وأضيئت المشاعل هنا وهناك . وظهرت على من قابلوهما فى الطريق علائم الرهبة ، فكانوا يقفون جانباً فى ارتباك وعجلة ليجعلوه يمر . وكانت ولولة النساء تأتى إليهما من أعلى الدور . وكان الفناء مليئاً برجال البوجيز المسلحين وأتباعهم ، وأهل باتوزان .

ولست أدرى هل كانت استعداداً للحرب ، أو الانتقام ، أو لصد هجوم يهددهم ؟ ولقد مرت أيام كثيرة قبل أن يكفوا عن الحراسة والترقب وقد هزهم القلق ، من خشية رجوع الرجال البيض ذوى اللحى الطويلة والملابس المهلهلة ، وقد عجزوا عن فهم حقيقة العلاقة بينهم ، وبين رجلهم الأبيض . . وحتى أمام هذه العقول البسيطة ، كان جيم ... « تحت سحابة من الشبهات » .

وكان دورامين ، فى ضخامته وحزنه ، يجلس وحده على مقعد مريح وعلى ركبتيه زوج من المسدسات القديمة الطراز ، فى مواجهة رجاله المسلحين . وحين ظهر جيم ، استدارت الوجوه جميعاً فى وقت واحد ، حين أبدى أحدهم عجبه : ثم نحوا أنفسهم يميناً وشمالا ، ومر بينهم فى طريق ضيق من النظرات التى كانت تتجنبه . وكانت تتبعه

همساتهم وهمهماتهم : « لقد دبر هذه المكيدة » . « إن معه تعويذة تحميه » : : : ولعله سمعهم :

وحين ظهر فى ضوء المشاعل ، كفت النساء عن الصياح : ولم يرفع دورامين رأسه ، ووقف جيم أمامه ساكناً لفترة من الوقت : ثم نظر إلى اليسار ، وتحرك فى ذلك الاتجاه فى خطوات ثابتة متزنة : وكانت أم دين واريس تجلس متكورة على رأس جسده وكان شعرها الأشهب الذى كان على حالة من الفوضى ، يغطى وجهها : فاقترب جيم فى بطء ، ونظر إلى صديقه الميت ، رافعاً عنه الغطاء ، ثم أسقط الغطاء ثانية دون أن ينبس بكلمة ثم مشى فى بطء راجعاً إلى مكانه الأول :

وسمع كلماتهم وهى تنتقل من شفة إلى شفة ، فى نغمة كانت تتسق مع خطواته، وهم يقولون . « لقد أتى! لقد أتى! » وسمع صوتاً عالياً يقول. « لقد أخذ المسئولية على رأسه . فالتفت إلى الجمع وقال : « نعم : على رأسى » فكان لكلماته رد فعل عميق عند عدد منهم : وانتظر جيم فترة أمام دورامين ثم قال فى رفق ، « إنى أجىء إليك فى قلب مفعم بالحزن» ثم انتظر فترة أخرى وقال ، « لقد جئت مستعداً ، وغير مسلح » :

وحاول الرجل العجوز الضخم ، الذى فقد قدرته على الحركة ، جاهداً أن يقف على قدميه ، وهو يقبض على المسدسين اللذين كانا على ركبتيه ، ويحني جبهته العريضة كالثور تحت نيره ، وكانت تخرج

من حلقه أصوات غير آدمية ، كأنها حشرجة أو اختناق . وهرع
إلى ظهره تابعاه ، يعاونانه على النهوض .
ورأى الناس الخاتم الذى قد كان وضعه فى حجره ، يسقط
متدحرجاً إلى قدمى الرجل الأبيض . وألقى جيم المسكين نظرة الى
أسفل على ذلك الطلسم السحرى الذى فتح أمامه أبواب الشهرة
والحب والنجاح داخل جدران الغابات التى يحدها الزبد الأبيض ،
داخل ذلك الساحل الذى كان يظهر فى غروب الشمس ، وكأنه حصن
الليل المكين : : . وكان دورامين ، وهو يبذل جهداً كبيراً فى الوقوف
على قدميه ، يشكل مع تابعيه اللذين يسندانه جماعة مهتزة مضطربة
الحركات . لا تكاد تستطيع الاستقرار على الأرض ؛
وكانت عيناه الصغيرتان تحدقان فى تعبير ينم عن ألم مجنون ،
وغضب ثائر بلمعان وحشى لاحظه الواقفون إلى جانبه . وبعد ذلك
وجيم يقف أمامه مشدود العضلات . برأسه العارى ، وسط ضوء
المشاعل ، ينظر إلى وجهه فى ثبات ألقى دورامين بثقله على ذراعه
اليسرى مطوقاً بها رقبة تابعه الفتي الذى انحنى ظهره تحت حمله ،
ثم رفع ذراعه اليمني فى أناة .. وأطلق رصاصة على صدر صديق ولده.
واندفعت الجماعة التى كانت قد تفرقت عن بعضها وراء جيم ،
فى اللحظة التي رفع فيها دورامين يده فى ضجة شديدة من الفوضى ،
إلى الأمام ، بعد هذه الطلقة . ويقولون إن الرجل الأبيض قد أرسل
نظرة ثابتة مليئة بالكبرياء ، يميناً ويساراً إلى كل تلك الوجوه . ثم
سقط إلى الأمام ، ويده على شفتيه . . ميتاً .

وكانت هذه هى النهاية . فهو يختفى تحت هذه السحابة ، ويظل إلى النهاية خيالياً عتيداً . لا يمكن النفاذ إلى أعماق شخصيته . ثم يصبح نسياً منسياً ، دون أن يحظى حتى بالغفران ؛ ولم يستطع أن يرى حتى فى طيش أحلام صباه الأولى تلك الصورة المشرفة لنجاحه الذى جاوز كل حد للخيال . ولعلنا لا نكون قد أسرفنا كثيراً فى الحدس والتخمين إذا قلنا إنه فى تلك اللحظة القصيرة لنظرته الأخيرة الثابتة المليئة بالكبرياء كان قد شاهد وجه فرصته التى أتت إلى جانبه مقنعة ، كعروس من الشرق :

ولكننا نستطيع أن نرى فيه رجلا مغموراً استطاع أن يصل الى الشهرة ، ثم انتزع نفسه من بين ذراعى حبه الغيور ، تلبية لإشارة ونداء أنانيته المتضخمة . فهو يترك امرأة حية بلا رحمة ؛ ليحتفل بزواجه بمثل أعلى للسلوك فى عالم الأشباح . وإنى لأسائل نفسى الآن ، هل أصبح راضياً عن نفسه تماماً ؟ كان يجب أن نعرف . أنه كان فرداً منا . أفلم أقف ذات مرة كشبح استدعى من العالم الآخر ؛ لأضمن ثباته الأبدى على الحب والإخلاص ؟ فهل أخطأت يا ترى فى ذلك خطأ عظيماً ؟ إنه قد انتهى الآن ؛ وهناك أيام أحس فيها بحقيقة وجوده بقوة هائلة جارفة : ورغماً من ذلك فإنى أقسم بشرفى : إنه تمـر بى لحظات أخرى أيضا يختفى فيها عن عينى كروح خرجت من جسدها ، وتاهت فى متاهات العواطف المشبوبة على هذه الأرض . وهو على استعداد لأن يهب نفسه بإخلاص تلبية لنداء

عالم الأشباح الذى ينتمى إليه .

من يدرى ؟ لقد مضى دون أن يستطيع أحد أن ينفذ إلى أعماق شخصيته ، تاركاً الفتاة المسكينه لتعيش حياة لا صوت فيها ولا حيوية فى بيت شتاين ... أما شتاين فقد تقدم به العمر كثيراً فى الأيام الأخيرة ، وهو يشعر بذلك — وكثيراً ما يقول . « إنه يستعد لترك ... » وهو يشير بيديه فى حزن إلى فراشاته .

سبتمبر ١٨٩٩ — يوليو ١٩٠٠

السعر ٢٢٫٥ قرشاً